عُمانُ عَبرَ التَّارِيخ

تأليف

الفقيه الفاضل الشيخ

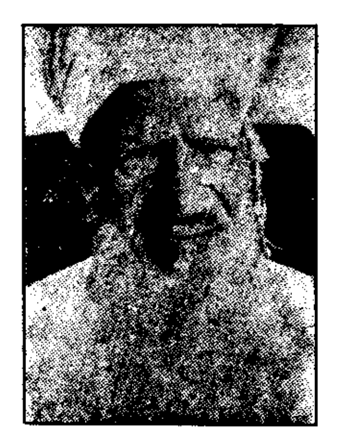
سالم بن حمود بن شامس السيابي

الجزء الثالث

الطبعة الرابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م





مؤلف الكتـــاب



إمامة الإمام الخليل بن شاذان

اعلم أن الإمام الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك بن بلعرب الخروصي ، أحد الأئمة الأجلاء فى عمان ، واليه ينتسب آل الخليل الذين بعمان ، والى جده الصلت ينتسب صلوت بنى خروص ، وأبوه الشيخ شاذان بن الصلت من أهل العلم والفضل ، وأخوه محمد بن الصلت كذلك ، وهؤلاء عائلة بارزة بالفضل والعلم والتقوى فى عمان ، ولله فى خلقه أسرار والخلق معادن • الحديث •

واعلم أن القرن الثالث الهجرى ابتدأ بحوادث متعددة ، منها الإمامة المستضعفة وما صار عليها من أهل عمان فيما بينهم ، وإمامة الإمام سعيد ابن عبد الله الرحيلى ، وبأمراء بنى العباس الذين صارعوا الإمامة وقضوا عليها من عهد يوسف بن وجيه وبنى مكرم وغيرهم من البويهيين الى القرامطة المعروفين فى التاريخ ، وإمامة الإمام راشد بن الوليد ، وتسلط أمراء بنى العباس عليه ، واحتلوا إمامته وتولوا أمر عمان الى تمام القرن الرابع ، وهم فيها الآمرون الناهون لا يردهم راد ولا يصدهم صاد ، وفى ذلك العهد صارت عمان دار كفر ونفاق ، لانطماس العدل ، واختفاء آثار المسلمين باندراس معالم الدين ، وبتسلط الجبابرة الظالمين ، الذين هم أعداء الدين والوطن والجنسية عقوبة لأهل عمان على تضييعهم الأمر منذ الإمام الصلت ، الى أن وقعت الطامة الكبرى بتضييع إمامة راشد بن الوليد ، فكانت عاقبة ذلك الأمر الوبال والخذلان ، مع تلاعب بالإمامة فى عهد إمامة الأئمة المستضعفين ، وكل ذلك إضاعة للدين وتضييع لمنهج المسلمين ، حتى بويع للإمام الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك بن بلعرب الخروصى •

قال الإمام رحمه الله : بويع له بالإمامة بعد راشد بن الوليد بزمان طويل ، تجبر فيه السلطان على أهل عمان ، وسامهم سوء العذاب بما بدلوا من نعمة الله ولعدم وفائهم بعهد الله ، حين خذلوا الإمام راشد بن الوليد وظاهروا عليه عدوه ، ومن أعان ظالما سلطه الله عليه ، أى ليذوق وبال أمره ، ولايخفى العهد الذى بين الإمامين راشد بن الوليد ، والخليل ابن شاذان ، وعمان ترزح ثقلا بوطأة الجورة الظلمة المفسدين للدنيا والدين ، المتسلطين على بيضة المسلمين ، فان ذلك القرن قام فى أوله الامام سعيد بن عبد الله الرحيلى ، فجمع الشمل ولم الشعث وأيد الحق الذى يدعو اليه المسلمون ، ورفع مستوى أهل الايمان ، حتى قضى الله عليه بمناقى من أعمال الرستاق وقبره بها ، ثم قام على أثره الامام الراشد بن الوليد ، فانقلب عليه أهل عمان بغير جرم ارتكبه ، ولا حدث اقترفه ، ولا شقاق أوقعه ، ولكن ابتلاه الله بذلك ، وعسى أن تحبوا ، وعسى أن تكرهوا ، وكل شىء بيد الله .

قال الامام : وبقى أهل عمان يكابدون النكال تحت قهر الجبابرة من بنى سامة وغيرهم ، حتى عقدوا الامامة على الخليل بن شاذان فى سنة سبع وأربعمائة ، وفى بعض الكتب فى سنة بضع وأربعمائة ، فسار فيهم سيرة حسنة جميلة ، ودفع عنهم الجبابرة وأمنت بعدله البلاد ، واستراحت فى ظله العباد ، ودانت له الممالك ، ووفدت اليه الوفود لظهور العدل ، وانتشار الفضل ، وقام الخليل بواجبات الأمة فى حلها وترحالها ، ودافع الخصوم وصارع الجبابرة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وانتشر له صيت شاع فى الجزيرة الى اليمن ، وحضرموت ونحوها ، وقامت امامته على أعمدة العدالة والانصاف والمساواة بين المسلمين .

ووفد عليه الامام أبو اسحاق ابراهيم بن قيس بن سليمان الحضرمى ، من أرض حضرموت مستنجدا به ومستعينا بالمسلمين على حرب أهل بلاده الخارجين عن طاعته فى حضرموت واليمن ، فأمده الإمام

الخليل بالمال والرجال ، حتى وطد به دعائم ملكه فى تلك الأطراف اليمانية ، وفيه يقول من قصيدة :

وذكر امام شاع فى الناس ذكره
وطلب الثنا فيه الخليل بن شاذان

الى آخر القصيدة • وقال فى أخرى :

وارموا بنا نحو الامام المرتضى
المفزع المأوى لكل دخيل

ذاك الذى جلى عماناً بعدما
وأراهم غيم الطغى بذيول

الى آخر ما قال فيها من الثناء والمدح والاستنهاض ، حتى مكنه الله من عدوه وأثبت به قواعد دينه ، ودوخ به أعاديه ، وبعد ذلك أرسل الى الامام يحدثه عن واقعه وعما صار اليه أمره بقوله :

سل الوفد عنى يا امام ألم أكن
تسربلت يوم الروع ثوب العزائم

وهل كان همى غير ما كنت ذاكرا
وهل نمت عن طرف الجواد وصارمى

الى أن قال :

سل الخطبا لما دعوا لك جهرة
على رغم أهل الجور عند التصادم

وسل عرب البيداء هلا أذقتهم
عشية خانوا العهد ســم الأراقم

قوله : عرب البيداء أراد بهم البدو خاصة وهم نهد وعقيل ، وهاهنا يخبره بلسان المقال عن حقيقة الحال فيقول :

وأما نواحى حضرمــوت فإنهــا
بحــول إلهى طوع أمرى كخاتمى

فاستقر الأمر للامام الحضرمى البطل المقدام فى أرض حضرموت بهمة الامام الجليل الخليل بن شاذان رحمه الله .

وكان للامام الخليل وزير يتولى مهمات دولته ويقوم بواجباته فى حضوره وغيبته اسمه محمد بن صلهام ، وهو يناصر الامام الحضرمى . قال صاحب المعالم : ولم يجد أبو اسحاق فى حضرموت من يناصره فى صد غارات القرامطة ، فالتجأ الى الخليل بن شاذان الاباضى امام عمان طالبا منه النجدة ، وقدم اليه قصيدة جاء فيها يشكو اليه الحال الذى هم فيه :

يا خــير خل خربت أوطاننــــا
واستعبد السفهــاء كل نبيــــل

يا خير خل لم نطق دفع الأذى
عن أخــذ مكنون وجــذ نخيــل

يا خــير خل أصبحت أســواقنا
أســواق سحت واعتــداء محــول

يا خير خــل قــد غلبنــــا فانتصر
وانظر لنــا بالرأى عــزم أصيل

وجاء فى قصيدة أخرى يذكر ما نال من الامام الخليل رحمه الله وما وفقه الله له من النصر فيقول :

وجدت لـــه بالعذر بسطاً وجادلى
بمـــا فيـــه نصر لا عدته المكارم

فها أنا ذا بالمـــال والبيض والقنا
على حضرموت بالســـلامة قـــادم

سلا تخبرا عنى اذا صرت نحوها
وناديت فى الإخوان أين اللهامم

قال : وعاد أبو اسحاق الى حضرموت بعد أن أمده الخليل بن شاذان بالمـــال والسلاح ، قال : وقد استطاع بهذه المعونة أن يجمع حوله جنودا وأنصارا فرق بهم أعداءه ، حتى لم تبق منهم سوى طوائف ، التجأت الى القرى الواقعة بأطراف البلاد ، قال : وفى هـــذا يقول أبو اسحاق من قصيدة أرسلها الى الخليل إمام عمان ، مع وفد وجهه اليـــه عقب انتهاء الحرب يخبره فيها بما تم لـــه من النصر ، وهى القصيدة التى أشرنا اليها ومنها قوله :

سل الوفد عنى يا إمام ألم أكن
تسربلت يوم الروع ثوب العزائم

الى آخر ما جاء فيها ، وفيها يشير أيضا الى الصليحى أحد حكام اليمن فى ذلك العهد إذ يقول :

ولم يبق لى إلا الصليحى قائماً
وها هـــو أيضاً سعده غير قائم

الى أن قال يذكر منه :

اذا وفــده ولى الى مصر رائداً
مضى وفدنا قصــداً لخـير المعالم

يعنى عمان أى اذا ولى وفد الصليحى الى مصر مضى وفدنا الى عمان ، فهو يستنجد بمصر فنحن نستنجد بعمان •

قال : إن الخليل أمده مرة بالمــال فقط ومرة أخرى بالمال والرجال ، فهذا يدل على تردده على الامام المذكور فى تقويم واصلاح شئونه ، وكان يفتخر بذلك ويهدد به الخصم ويعلن بذلك فى المجامع • قال : ويزعم الشيخ سليمان البارونى أن أبا اسحاق أقام عاملا بحضرموت للخليل بن شاذان مدة حياته ، فلما نصب راشد بن سعيد اماما بعمان بعد الخليل بقى عاملا على حاله وله مع الامام راشد قصائد يعترف له فيها بالولاء ، منها قصيدته التى أرسلها يعرض فيها للامام راشد النجدة فى حربه مع نهد وعقيل حيث يقول :

إباضــية زهــر كرام أفاضـــــل
مناقبهم فى كل ســامى علا تبدو

وأنت لنا من بعدهم صرت قيما
حمولا لثقل الخطب يورى بك الزند

وللامام الخليل رحمه الله فضائل أعمال وجلائل خصال أولاه الله عز وجل إياها ، وقــد ساد الخليل عمان سيادة ازدهرت بها البلاد ، ونشط فيها الرشاد ، وارتفعت به فيها رءوس الأمجاد ، وكان علمـــاء المسلمين بعمان أنصار الإمام الخليل ، وأعوان السيد الخليل ، وكانوا لا يداهنون اماما ولا سلطانا اذا خالف الحق ، ففى يوم الثلاثاء لعشر

ليال من شهر رمضان سنة تسع وأربعمائة ، أى بعد وقوع البيعة للامام الخليل بسنتين ، أنكر العلماء بعض الأشياء فى عهد هـذا الامام النبيل ، فاجتمعوا ضحوة نهار الثلاثاء من اليوم المذكور ، وهم موسى بن أحمد ، وأحمد بن محمد ، والحسن بن أحمد ، وعمر بن محمد ، وراشد بن محمد ومن معهم من إخوانهم المسلمين ، ونظروا فيما استنكروا وكتبوا فيما أنكروا كتابا الى وزير الامام محمد بن صلهام قالوا فيـه كلاما طويلا من جملته :

وبعد هذا فنحب أن يقف الأخ على طرف من الأمور التى تجرى فى بلادنا من القائمين بها ، أى من طرف الامام المتولين لأمورهـا ، من تركهم اتباع سنة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، وآثار المسلمين وسيرهم فى الرعية بغير الحق ، حتى كثرت المناكر ، ومات الحق وأهله ، وارتفع الباطل وحزبه ، وصار أهل الحق لا يقدرون على الأمر بالمعروف ، ولا النهى عن المنكر ، لأن المنكر ابتلى به من تسمى بالحق بلسانه ، ويخالف ذلك بأفعاله ، وقد خشينا من ذلك زوال النعم وتغيير الحـال ، وقد كتبنا للامام نصره الله عام أول كتابا مترجما لـه فيه ما كنا نتوقعه من هذه الأشياء ، ولم نرد بذلك إلا نصيحة له ، وخروجا مما يجب علينا مما تعبدنا الله به ، فرجع الجواب الينا على غير ما كنا نرجوه ، وأنزلنا فى ذلك بمنزلة التهمة ، فلما رأينا ذلك توسعنا بالسكوت ، لأنه يوجد عن بعضهم أنه قال : اذا كان الذى ينكر المنكر لا يقبل منه ويستخف به لم يكن عليه ، أن يعرض نفسه للاستخفاف أو نحو هذا من اللفظ ، وهنا أقوام ممن قد عرفوا بكثير المناكر ، صاروا يكاتبون الامام نصره الله رقعة بعد أخرى ، ويزينون فعل من قد ساعدهم على مناكرهم ويقولون غير الحق ، ويشهدون بالباطل (ستكتب شهادتهم ويسألون) كل هـذا خشية أن يولى عليهم من يشد عليهم ويمنعهم من المناكر التى قد شهروا

بها ، ويصيروا هم وغيرهم من الرعية ســواء ، فإنما هم يرجعون على الامام فى كتبهم بغير الحق ، وقد أمنوا ألا يبحث عن أفعالهم ، ولا يسأل عن صحـــة قولهم ، ولو كان الامام نصره الله ينظر فى هــذه الأمــور وصحتها ، ويسأل عن حقها وباطلها ، وصحيحها وسقيمها ، فضر أهل الباطل باطلهم عنده ، ونفع أهل الحق حقهم عنده ، لمــا اجترأ أحــد أن يكتب اليــه الكذب ، ويتقول على لسان الرعية مالم يكن ، ولكان هذا الباب قد انغلق ، ولم يتجاسر أحد أن يكتب اليه إلا الحق .

ولمــا ضاقت أنفسنا من هذه الأمــور التى شرحناها ووصفناها ، رأينا اطلاع الأخ العزيز أدام الله أنسنا به على ما عندنا ، وشرح ما نحن فيــه لعلمنا أنه ممن يغضب للحق ولا يرضى الباطل ، فإن رأى أن يطلع الامام نصره الله على ما ذكرنا وشرحنا ، فإنا لم نذكر لــه ما عندنا إلا اختصاراً ، ولو ذهبنا نصف كل ما نراه ونعانيه من هــذه الأمــور لم تبلغ كل ذلك ، إلا أنا نكل أمورنا الى الله ، ثم رأى الأخ فيما كتبنا اليه ورد جوابنا مما نستدل به منه على وصول كتابنا اليه ، وما يقتضيه رأيه فى ذلك إن شــاء الله والسلام عليه من جماعتنا ، ويسلم منا على الشيخ أبى الحسن على بن راشــد ، متعنا الله ببقائه ، والحمد لله وصلى الله على رســوله محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

قال الامام رحمه الله : ولم نظفر بجواب هذا الكتاب ، غير انى وجدت جواباً من أبى على الحسن بن أحمد النزوانى وهو فيما أحسب قاضى الامام الخليل رحمهما الله تعالى ، كتبه أبو على جواباً فى مثل هــذه القضية : قال رحمه الله تعالى : فهمت ما كتب بــه الشيخان فى مــال المشايخ ، وتعدى من تعدى فيه وترك المنع من الإمام نصره الله ، قال الإمام : ما ولى عليها محمد بن حمزة ، ولا أمره بقبض الصدقات منها ، وانما سأله بعض أهلها أن يكون معهم للأنس وللانكار فيمــا قدر على

انكاره ، والمعروف من آثار المسلمين أن الإمام اذا كان فى حال المحاربة ، ولم نستول على المصر أنه مخير فى الأحكام ، إن شــاء حكم وإن شــاء ترك الحكم ، حتى يفرغ من محاربة عدوه ، وقول ليس له ذلك وليس عليه أيضاً ، ولا يضيق على الإمام ما وسع لــه المسلمون ، إلا أن الذى نختاره له ونحبه له ألا يدع شيئاً من الأحكام ، ولا من الانكار مــع القدرة عليــه ، وهما قد عرفا ما جرى فى مال بنى زياد بسمو نزوى من الخراب، وأخذ الدواب واتلافها واتلاف الثمار فى أيام الإمام ، فمــا عاب أحد على الإمام حتى سهل الله وتبين للوالى النظر فى ذلك ، ومنع عنه ، وكان لم يزل يجرى فيــه الخراب مرة بعد أخرى ، الى أن كان أيام دهمان ، ومنع عنه ، وكان جرى فى المــال الذى تركه على فى السر ما جرى ، ومنع الوارث وهــو يصيح ويستغيث ، فما عيب على الإمام ذلك ، وليس أريد بهذا احتجاجاً من الظلمة إلا أنى أذكرهما ما يعرفانه لئلا يتوهما فى الإمام غير ما هــو عليه ، وهؤلاء المشايخ حرسهم الله ، لو وصلوا الى ما لهم وقاموا فيــه لكان كل من قدر على معونتهم بالحق من إمامهم أو غيره أعانهم •

وهذا يدل أن هناك أهواء ومنافسات ، ولعل ذلك بين بعض الزعماء وأهل العلم بحسب المفهوم من سياق الكلام الذى تقدم من المشــايخ الأولين ، وفى الكلام الأخير ما هــو من نوعه وهو واضح • ولم يكن الإمام رحمه الله ممن لا يقبل أقوال أهل العلم ، ولا ممن لا يقبل النصح حاشاه ، بل هو أحفى بذلك وأولى يرى ما لا يراه غيره ، ولعل له عذراً وأنت تلومه ، وعلى كل حال إن الإمام رحمه الله مبتلى بأمــور الأمة ، وعليه الصبر على ما يرى ويسمع •

قال الإمام أبو اسحاق رحمه الله :

من شـــاء يعلم ما كانت أوائلنا
فيـــه فسيرتنا تكفيـــه برهـــانا

هـــذا الخليل إمام المسلمين حكت
أنوار ســـيرته فى العـــدل نيرانـــا

والمراد قوة الاضاءة فكأنها نيران تشتعل لا ناراً فقط ، وذلك كناية عن قوة الاشتعال وقوة الاضاءة تجوزاً عما لايخفى ، ويليه قوله :

يا أيها العلم العدل الذى كملت
لـــه الخصـــال مروءات وإيمانا

انى أحبـــك والرحمـــن يعلمـــه
حب احتساب الى ذى الطول قربانا

ومنهـــا :

حتى عبرت اليـــك البحر منتصراً
أيام عـــدت بما أوليت جـــذلانا

ومنهـــا :

إن الذى عمرت صنعاء دولتـــه
بالفســـق أصبح من مـــولاى فزعانا

هذه هى حالة الإمام الجليل الخليل بن شاذان رحمه الله ، ومضت

أيامه على هـذا المنهج الكريم والصراط المستقيم ، ولم تعرف له سوءة تذكر إلا ما أشـار اليه مقال أولئك الأشياخ الذى أوردناه لك عنهم ، وله فيه عذر ، وعذر عند الله وعند عباده •

قال ابن رزيق : ولمـا ركدت زعازع بغى الخلفاء العباسيين عن عمان ، وانقطعت مادتهم عنها بالبغى والعدوان ، عقد أكابر عمان الإمامة على الخليل بن شاذان ، فسـار سيرة العدل والانصاف ، واتبع أثر السلف الصالح ، وأقر عيون الرعية ، وجعل الفقير والغنى بالسوية ، والضعيف والقوى فى اتخاذ القضايا الحكيمة ، وصارت بعدله أرض عمان فى أمان واطمئنان ، وقطع شقشقة لبغاة ، وجدع أنفا شماء من الطغاة ، فعاش حميداً ومات كريماً ، وكانت دولته على الأشهر سبع عشرة سنة لأنه مات سنة ٣٢٥ على التحرى ، وبعده بويع راشـد بن سـعيد ، وعاش الى عام خمس وأربعين ، ومن هنا صار لابن رزيق الغلط فى مدة إمامة الإمام الخليل بن شاذان ، إذ قال كانت مدة إمامته خمساً وأربعين سنة ، وذلك أن راشد بن سعيد مات سنة ٣٤٥ ، وكان بويع سنة العشرين بعد ثلاثمائة ، وكان الزعماء الذين تسلطوا على الخلافة العباسية جعلوا التنكيل بأهل عمان كالمفروض عليهم ، ونظر الى ما قاله ابن رزيق ، ولمـا ركدت زعازع بغى الخلفاء العباسيين عن عمان ، اشارة الى أن زعازع رياحهم لا تزال تعصف بعمان وتسفى عليها من غبار الطغيان ، ولمـا كانت الزعامة العباسية ، مسيطرة على عمان فى هـذا العهد منذ انمحت دولة الإمام راشد بن الوليد ، وسقطت عمان فى الحضيض ، وصارت دار كفر ونفاق منذ ذلك العهد كما قدمنا ، ولمـا هانت وطأة البغى وتراخت الزعامة العباسية عن عمان ، وظلت عمان واهية الارادة ، هامدة الأهمية ، وقد خمدت فى ذلك الحال نار البغى ، وهانت الأمور ، قام أهل العلم ورجال الحق كعادتهم عند حلول الفرص ، فبايعوا الإمام الخليل بن شاذان ، وقاموا لاحياء معالم الدين والايمان ، واخماد ما أثاره أهل البغى واعادة الحق الى مجاريه ، فقام الإمام المذكور بواجبه

امتثالا لأمر ربه ، واتباعاً لسلفه الصالح ، وشـــاع أمره وظهر صيته ، جهزت له البغاة قوتها لكسر هــذه الإمامه الخليلية ، وهدم مبانيها القوية ، فجاءت جيوشها بقيادة أركان حربها من الترك العتاة .

قال الإمام رحمه الله : وخرجت الترك على عمان أيام الخليل بن شاذان . قال : ولعل هؤلاء كانوا جند بنى العباس ، فإنهم قد استخدموا الترك وغلبوا على أمرهم حتى صارت الدولة اليهم ، وصار بنو العباس آلة فى أيديهم ، فخرجوا على عمان وأسروا الخليل بن شاذان .

ونصب أهل عمان بعد أسره محمد بن على إماماً ، ثم إن الترك ردوا الخليل الى هنا انتهى ذكر هؤلاء الترك وفعلهم فى عمان ، فاذا نحن بحثنا التاريخ سائلين : متى كان أسر الخليل ؟ وفى أى بلد أسر ؟ وعلى أى صفة كان أسره [1] فان قوله : فخرجوا على عمان ، وأسروا الخليل ، لا نرى لنا فيـــه جواباً ، ولا يكفينا إذ لا نرى فيه صواباً عن بحثنا ، فهو كلام أشبه بمقطوع الرأس أو منهار الأساس ، فإن للتاريخ حقوقاً يجب أن تراعى ، وهى كشف غموضه اذا أمكن ، واستخراج وجوهه فى فلسفة أدبية لا يجهلها إلا الأغبياء ، فإن أسر الخليل وهو إمام فى قومه فهو كلام أشبه بمقطوع الرأس أو منهار الأساس ، فإن للتاريخ حقوقاً يمكن أسره على هدوء كما يفهم من التاريخ الذى بين أيدينا ؟ أم كان بعد حرب غلب فيها وذلك غير مستنكر ؟ أم نادوه فأجابهم وخاطبوه فأذعن لهم فقادوه سامعاً مطيعاً للأمر ؟ لا نظن ذلك ، وأين ترك جنده وكيف حكم بيعته ؟ وعهد الله فى الأعناق وأين عمدة أمره الذين أقاموه إماماً للناس ، وبايعوه على أقوى أساس ؟ لم يذكر التاريخ الذى بين أيدينا شيئاً مما نشـــير اليه ، ولا يكفينا ذلك عنه ولا يشفى غليل البحث على هــذا الوضع منه ، لكن الأمر يحتمل أحـــد شيئين :

---

(١) لم نتلق جوابا .

أما الأول فإنه لابد هناك من وقوع حرب انتصر فيها البغاة ، وبذلك قضوا على الإمام وأخذوه أسيراً ، وهـذا من الجائز والممكن ، وأنه لابد أن يكون ذلك مذكوراً فى التاريخ ، كما ذكروا حادثة الإمام عزان ابن تميم ، وأنه لما قتل قطع رأسه ، وحمل الى بغداد ، ولكن التاريخ ضاع فلم يوجد ، وهذا عذر لكنه أوهن من بيت العنكبوت ، لأنه شبيه بالمستحيل أن يقع مثل ذلك وينطمس ذكره بتاتاً ، فلا يوجد لـه اشارة فضلا عن ذكر جلى يحسن السكوت عليه •

وأما ثانياً فأن يقال انه لما شاع خروج الترك على الإمام المذكور ، فر عنه جنده كما فروا عن راشد بن الوليد ، إما طمعا فى دولة السلطان الخارج ، وإما خوفاً منه واستشعاراً للغلبة ورهباً من شماتة الأعداء ، ولعل هـذا أقرب الى الصحة وأوضح فى المقام ، فإن الجنود العراقية مازالت تغزو عمان أيام ضعفها ، وقد وقع الإمام الراشد بن الوليد من نوع ما نتكلم نحن هنا عنه ، فأصبح الإمام خائفاً يترقب ، حتى آل به الأمر أن أصبح مفقوداً من بيته ، فلعل قضية الخليل بن شاذان من هـذا النوع ، ولما رأى العجز أخـذ بالرخصة واستسلم للأسر ، وهما أمران أحلاهما مر ، ولكن اذا ابتلى المرء أخذ بالممكن ، والأمر لله عز وجل •

ولعل أيضاً لما دخل الترك عمان ، وجدوا الإمام الخليل فريداً ذليلا بترك قومه له فقبضوا عليه راغماً ، وقادوه أسيراً ، ثم لما لم يروا لديه أمراً هاماً يعرقل مساعيهم ، وعمان اذا أرادوها وجدوها رهن أياديهم ، فلذلك قالوا للخليل : رُح الى بلادك وأولادك ، مانين عليه بذلك ، لكن هـذا يبعده أيضاً اجتماع العمانيين بعده حالا على بيعة لمحمد بن على إماماً بعمان ، ولعل الخارج لم ير صلاحاً له فى عمان ، لأنها ضعفت فى ذلك الحال ، الى أقصى حدود الضعف عن الدفاع للغزاة ،

إذ المـال فيها قليل ، وقد مزقها الأعداء وذهب الخير منها ، فلعله خرج عنها تاركا لها ، ولمـا علم العمانيون ذلك بايعوا محمد بن على ولم يذكروه ممن ولا من أى البلاد ، ثم لمـا رجع الخليل بن شاذان رجع اليـه أهل عمان ، وأعادوا الإمامة له ف تأمر جرى بينهم لرعايه الاصلح لهم ، ولعل الخليل أيضا علم من الغزاة الترك لعمان لعدم الصلاح لهم فيها ، وإلا فكيف يقبل أن يعود إماما لعمان ؟ وقد رأى وسمع ما ساءه من العدو الخارج ، وأنه ربما خرج غدأ أيضأ أمر أشكل تحقيقه ونظر صعب تدقيقه ، وعمل ابتلى به قوم ، وحوادث وقعت أردنا أن نفهمها لنعمل فيها بعد العلم بها بما يجب علينا ، واذا ألقينا نظرة الى قوة الغازى ، وضعف أهل عمان فلن يقبل الإمام أن يعود إماما لأهل عمان ، بعد ما صار عليـه ما صار بين أظهرهم ، ولا يرضى أن يكون كمن سبق اذا جاء السلطان دخل بيته واختفى ، واذا خرج السلطان برز الى الناس ونادى أنا إمامكم هلموا نحوى ، هـذه الاحتمالات نحررها للاشكال الذى أدى اليه الحال من أمر الإمام الخليل بن شاذان ، وأسره بعمان بين الأنصار والأعوان ، والأقارب والإخوان ، ولم يذكروا سبب ذلك والله أعلم بما هنا لك .

وأنه يفهم من قولهم خروج الترك على عمان ، خروج تركيا الدولة المعروفة وليس كذلك ، وإنما هم على الصحيح قواد جيوش الدولـة العباسية ، الذين تولوا الأمر على بنى العباس ، فأطلقوا عليهم اسم السلطنة ثم ألحقوه بعد ذلك بمعناها تقية لهم ، اذا أصبحوا يتلاعبون بهم تلاعب الصولجان بالكرة ، ولم يبق لبنى العباس حتى الاسم عقوبة على تضييعهم أوامر ربهم وتعلقهم بالهوى ، واتباعهم لكل من غـوى وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

المسلمون يأتمرون بعد رجوع الخليل الى عمان

لمـا تحقق رجوع الإمام الخليل الى عمان سالماً نظر المسلمون فى القضية ومن هـو الأولى بالإمامة ، فرأى فريق من المسلمين أن الإمام الأول حكمه حكم المفقود اذا رجع الى زوجته ، وقد تزوجت بعده أن له الخيار ، اذا أرادها ينزل عنها الثانى ، وتعود الى زوجها الأول ، وإلا فله أقل الصداقين وذلك للترغيب فى العودة اليها وكذلك الإمامة اذا أرادها الإمام الغائب عنها رجعت اليه بذلك العقد الأول •

قال الإمام : تنصيب أهل عمان من بعد أسره محمد بن على إماماً ، ثم إن الترك ردوا الخليل ، ومال الناس اليه بحبهم له ، ورغبتهم فيـه لعدله ، أى كان محبوباً فيهم مقبولا لديهم ، فيقال : إن الإمام محمد بن على اعتزل الأمر بنفسـه ، ورد الأمر الى المسلمين فردوا الإمامة الى الخليل بعد خلاف وقع فى المسألة أيهما الإمام • فقال بعضهم : إن عقد الأول سابق وأنه هو الإمام أى مع وجوده ، وقال آخرون : إن الأول زالت إمامته حين صار فى يد العدو ، وإن عقد الثانى هو الثابت • قال الأولون : بل الإمام الأول يكون فى حكم المفقود الذى حكم بفقده ، وتمت أيام مدة فقده واعتدت امرأته وتزوجت ، فإنه إن رجع بعد ذلك خير بين امرأته وبين أقل الصداقين ، فأيهما اختار كان لـه ، فلولا أن تزويجه سابق ثابت ما كان لـه التخيير ، فالإمام اذا أسر ثم رجع يكون مثل ذلك •

قال الإمام السالمى رحمه الله : والذى أقوله إن الإمامة قد تزول بالعجز عن القيام بها ، لأنها أحوال منوطة بقدرة القائم ، فاذا زالت القدرة فالمسلمين أن يقدموا غيره ، فاذا قدموا غيره كان هو الإمام • قلت : ذلك دليل على أن إمامة الإول تزول بالعجز عن القيام بها ، قال : وليس لهم أن يتركوا عقده لرجوع الأول اليهم بعد أن عقدوا له بوجه

صحيح ، فأما لو انتظروا رجــوعه كان لهم ذلك جائزا ، وحين اعتزل الإمام الثانى اختيارا وقبل المسلمون منه ذلك ارتفعت المئونة وانتفى الخلاف ، لأن للإمام أن يعتزل عن مشورة المسلمين اذا قبلوا منه ذلك ، ورجوا أن غيره أعز وأقوى على الأمر ، وأصلح للدولة ، لأن المقصود بالذات صلاح المسلمين ، وقد قيل إن الإمام الجلندى بن مسعود رحمه الله ، اعتزل مرتين ، وما كاد فى الثانية أن يرجع إلا بشق الأنفس حين لم يجــد عذرا من المسلمين .

ويفهم من الأحوال أن الإمام الخليل كان صاحب أخلاق واسعة ، وعواطف جامعة ، أخذت من قلوب الأمة مأخذها ، ولولا ذلك لمـــا أرادوا الرجوع اليه ، وقد وجدوا الخلاص منه بقهر العدو الداهم له ، وانحلال أمره بذلك لكن العواطف الجميلة لها فعل جذاب لنفوس صفوة الأمة ، ولم لا وأخلاق الصلت عرفها الكل فى عمان .

وفاة الإمام الخليل بن شاذان رحمه الله

لما كان لابد منه محتوماً على الانسان ، وكان الإمام الخليل بن شاذان ممن عاش فى أيامه كلها مشغولا بأمور المسلمين ، معنى بحقوق رب العالمين ، وقد مرت عليه شدائد فى حيلته ، منها أسره فى أيد عدوه ، وزوال الأمر عنه بذلك حتى قاسى من ذلك .

قال الإمام : كان فى إمامته مشكوراً وصار سجل الثناء عليه من بعده منشوراً ، توفاه الله الى رحمته ورضوانه فى أول سنة ٤٢٥ [1] على التحرى ، إذ ليس نص صريح فى تحقيق حياته وموته ، وبالأخص فى قضية أسره كما قدمت ذلك ، فإن اهمال التاريخ وعدم النشر للمؤرخ يقضى بذلك والعلم عند الله .

---

(١) هنا اشكال كبير فى التاريخ فان الامام الخليل توفى سنة ٤٢٥ .

إمامة الإمام راشد بن سعيد اليحمدى

وأنـــه كان إمـــاماً شـــارياً
مجاهـــداً فى الـــبر والبحـــار

كان الإمام راشد بن سعيد رحمه الله من أهل سونى بايعه المسلمون بالإمامة فى سنة ٤٤٥ خمس وأربعين وأربعمائة على أثر موت الإمام الخليل ابن شاذان بن الصلت ، وكلاهما من عنصر واحد ، وبحسب ظاهر التاريخ العمانى أن الزعامة العراقية تأخر رائدها عن عمان ، وذلك بعد رجوع الإمام الخليل بن شاذان رحمـــه لله ، وكان ذلك فى عهد المكتفى بالله العباسى ، وكان انحطاط القوم فى هذا العهد قد بلغ نهايته ، قال الخضرى فى محاضراته سنة ٣٣٤ : وقد كان الخليفة المكتفى بالله ، وكان البويهيون هم السلاطين والعباسيون هم الخلفاء اسماً دون معنى • قال : كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير الى العراق بعد الاستيلاء على واسط ، فصار أحمد بن بويه يسير الى واســـط ، ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها فى احـــدى عشر من جمادى سنة ٣٣٤ أربع وثلاثين وثلاثمائة ، والخليفة بها المكتفى بالله ، فقابله واحتفى به وبايعه أحمد ، وحلف كل واحـــد منهما لصاحبه هذا بالخلافة ، وهذا بالسلطنة ، وفى هـــذا اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب ، فلقب علياً صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهـــو أكبرهم ، ولقب الحسن صاحب الرأى والجبل ركن الدولة ، ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة ، وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود ، وهذا اليوم هـــو تاريخ الدور الثانى للخلافة العباسية ، وهو تاريخ سقوط

السلطان الحقيقى من أيديهم ، وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً لا أمر لـــه ولا شىء ولا وزير ، وإنما له كاتب يدبر اقطاعاته واخراجاته لا غير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشـــاء ، ومعنى هـــذا أن الأمر اليه كله نقضاً وابراماً ، وحلا وعقدا ، وأمراً ونهياً ، وعليـــه فقد انتهت الخلافة تماما ، وانقضى دورها ، ولكل شىء غاية ينتهى اليها (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ظن بنو العباس أن الدنيا خلقت لهم ، والخلافة خصت بهم ، والأمر اليهم وتأولوا الأحاديث ، واستدلوا بتأويلهم أن الخلافة الى آخر الدهر فيهم اليهم ، وما دروا أن الله هــو السلطان الحقيقى ، وأن كل العبيد تحت قهره وتصرفه ، وأمرهم بيده ، فعاثوا فى الأرض فساداً ، وفى الدين ضلالا ، وفى الأحكام جورا ، وفى الحق باطلا ، فسلط الله عليهم عــدوا أدنوه منهم ، وقربوه بأنفسهم ، فسلطوه على الأمة فتسلط عليهم عقوبة بغيهم وفسادهم ، وتكبرهم وعنادهم .

قال الخضرى فى محاضراته : وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة عنهم بل عن عامة آل العباس ويوليها علويا لأن القـــوم كانوا شيعة زيدية ، وكانوا يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة الى آخره ، والقوم قد انحلوا من الأمر تماما قبل هذا التاريخ ، وتولى عليه خدامهم الذين كانوا جنودا وضباطا ، وأصبح اسم السلطان يعلن لهؤلاء ، واسم الخلافة لأولئك ، وكان السلطان اليـــه الحل والعقـــد وليس للخليفة إلا اسمه وهو قاعد فى لهوه وطربه ، نائما بين قيناته وغوانيه ، متمتعا بلذاته وأغانيه ، وهكـــذا وهـــذا شـــاهر ، ظاهر ، ولو كنا معنيين بتاريخهم لرأى الناس فيه العجب ، وذكرنا هـــذا توطئة لسكون الغزوات من نحوهم على عمان وعـــدم الاعتراض على العمانيين ،

إلا أن الخـوف من غاراتهم لم يزل يطن على آذان أهل عمان ، وكان الإمام راشد بن سعيد من أجلة أئمة أهل عمان إذ كانت بيعته على الشرى ، وهذا كان دليلا على قوة نهضته فى عمان .

قال الإمام : وكان إماما شارياً يعنى راشـد بن سعيد ، وكان لفظ الشرى الذى يشارى عليـه هذا الإمام ، إذ كان عماله يأخذون له البيعة من الناس بهذا اللفظ ، وهو أنت قد شاريت الإمام راشد بن سعيد على طاعة الله وطاعة رسـوله ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى الجهاد فى سبيل الله عز وجـل ، وعلى أن عليك ما على الشراة الصادقين ، بهذا العقد الذى يعاقدون به الدجال فى الدين وهو عظيم ، فلن الشـارى متجرد للموت فى سبيل الله لا ينثنى ولا يخشى فى الله لومة لائم ، أو تفنى روحه أو ينصره الله على عدوه ، وبنفس هذه البيعة اهتزت عمان هيبة له إذ كان أمره جللا ، وبذلك اندهش البغاة فرأوا أن سـيوف الإمام وحزبه مسلولة ليلا ونهاراً ، اذا جاءهم الصريخ لبوه كالهيم العطاش ، وكالأسود الضارية ، فسكنت عمان تحت قدمه وقرت عيون أهلها بين يديه .

وفى هذا الأثناء لبته الزعامات ، وقامت قناته على الرؤوس والهامات ، ولم تتحرك عليه فى عمان حركة ، إلا أن بعض الغزاة من بادية اليمن وهم نهد وعقيل ، كانوا يأتون أطراف عمان ، فينهبون من لاقوا من ضعفاء المسلمين فى الطرق ، وكانوا ينزلون بأطراف الأحساء ، ويناوءون الإمام عداء ،ويظاهرون عليه عدوه ، إلا أنهم لم يقدروا أن يقروا فى أرض خاصة خوفاً من هجوم الإمام عليهم ، ولـما تبين للإمام رحمه الله أنهم ينزلون الأحساء ، خرج اليهم بجيش جرار ، فما شعروا إلا والإمـام

راشد بن سعيد حولهم ، وسرعان ما تفرق جمعهم وتشتت شملهم ، وتفرقوا فى الأرض شاردين والرعب حولهم كما يقول المتنبى ، حتى إن هاربهم اذا رأى غير شىء ظنه رجلا ، فانمحى فســاد هؤلاء الأوغاد ، وهم انما تحصنوا بالبعد ويظنون أن يد الإمام لا تنالهم ، وما دروا أنه من باع نفســه لله هان عليه كل صعب ، ورأى المر أحلى من العسل ، وبذلك تهون عليه المصاعب ، ويتجشم الأمور راجياً عليها عند الله فوزاً عظيماً ، وفضلا عميماً ، وكان من الحزم بمكان ، ومن العزم فى أعلاه ، ومن الورع فى منتهاه ، وزاره أبو اسحاق الحضرمى الذى زار قبله الإمام الخليل بن شاذان ، واستنجد به كما استنجد بمن قبله وردد أصوات الثناء عليــه فى الأثير المترامى ، فسير اليه من غرر شعره جواهره قائلا فيه ومخاطبا له :

ألا حى منها ما حوى العلم والتقى
الى همــة تعلو اليها والمرازمــا

ومن ســل ســيف الحق للحق داعياً
اليــه مجــداً قد أزاح الأشائما

أما ما بنزوى قائماً قام فى الورى
بعدل فاضحى الحق إذ قام قائما

أديبــا لبيبــاً يحمد يا غضنفرا
من الأزد ليثا فى حمى الحرب غانما

أيا راشــد انــا لعمرك نزدهى
بذكراكم فى حضرمــوت تعاظمــا

اذا مـــا عمانى ألم بأرضنـــا
أحطنا به نســأله عنكم تراحمــا

هنيئا لكم أهلا لمــا قــد حباكم
به الله من فضل له الحمد دائما

وما زال الإمام الحضرمى يهتف بالإمام وينــادى به فى الأوطان الحضرمية والمجامع اليمانية وفى قصائده الشعرية ، ومنها قوله من قصيدة أخرى :

وبيض بأيدينـــا خفاف صـــوارم
ثقال الظبى مشحــوذة بالمبـــارد

معـــودة هتك الجمــاجم أظهــرت
سبيل إمامينا الخليـــل وراشــــد

وقال فى أخرى ويذكر فيها أحوال نهد وعقيل الذين شرد بهم الإمام وهربوا عنه هروب النعام الجافل فى الفلا ، وكناه بأبى غسان فقال :

ألا أبلغـــوا عنى الســـلام تحية
إمـــام عمان راشـــدا أيها الوفـــد

وسار فيها سير المشوق المحب المغرم بمن أحب ومدح وأثنى وردد الذكرى قائلا :

وما كان من أبنـــاء نهد وأختها
عقيل أولى البغى الذى شابه الحقد

لقد زال عن آرى عقيل وأختها
لنسل الفتى شاذان والديلم الرشد

أى زال عنهم الرشد إذ خاصموا الإمام فتى شاذان ومناصرتهم للديلم أيام الخليل بن شاذان ، فردوا على أعقابهم خاسرين وقال :

كذلك نهـد قـد أزلت رقابهـا
لنصرهم الأعـدا لقد عجزت نهد

لقد جمع الأقـوام طراً وخالفوا
جيوش أبى غسان فاستوثق الحشد

ومضى يصف الحال التى وقع فيها أولئك الأوباش والأوغاد :

وأمـوا للقيـام بجيش عرمـرم
ولم يثبتوا عند اللقاء ولا اشتدوا

ولمـا ترائى العسـكران تدابروا
كمثـل نعام شارد خلفـه الأسد

فقتل منهم فى المعـارك عصـبة
على حنق خاضت دماءهم الفهد

فإن عـدلوا عن بغيهم وتراجعوا
الى عسكر الاسـلام والحق وارتدوا

فأهـلا وسـهلا بالعشـيرة إنهم
اليكم باخلاص لرب السما أدوا

وإن هم أبوا فاستصرخونا فاننـا
قريب وما للقوم من صحبهم بـد

أى نادونا فانا معكم نجيب الندا ونرد العدا ولم نجد من ذلك بدا :

ومـا بين وادى حضرمـوت وبينكم
اذا سركم إتياننا نحـوكم بعـد

أى ما بيننا ونحن فى حضرموت وبينكم وأنتم فى عمان بعد اذا أردتم مناصرتنا لكم عليهم فانا مستعدون لها الى أن قال :

متى يأتنـا منكم صريخ نؤمكم
بعسكر جرار يضيق به النجـد

كهـولا وشبانا صباحا مسـاعرا
ورادا الى الهجا اذا استعصب الورد

بكل ردينـى أصـم ومـرهف
كمثل شعاع الشمس تحملنا الجرد

لله درك يا أبا اسحاق وأنت البطل المقـدام لا يشـق لك غبار ، ولا يستطاع لك لحاق ، تجردت لله وبعت نفسـك لرضاه ، ولله إمامنا الراشـد اسماً ومعنى .

وكان الإمام راشد أديباً لبيباً له رقيق يدل على ملكة عالية ونفس سامية وبلاغة فى سهولة مـورد ، وعذوبة ذوق ، ودماثة خلق ونشاط جميل ، ورأى أصيل وذكاء ناضج ، وفهم واسـع ، وشـعر يدل على شعور كامل وذهن حاد ، يتجلى على نفسه الوثابة للمجد وهمته العارمة على كل وغـد منها :

لمن مـنزل قفر تعفت جوانبـه
وغـيره من سافح القطر سـاكبه

كأن لم يكن فيه من البيض شادن
تضاحكـه أترابـه وتلاعبـه

فأضحى أسى من بعـد أن كان سـلوة
تجـربه أذيال خـز كواعبـه

انظر لطف هـذه الأبيات وسلاستها وحسن التخييل فيها ، بحيث تسلب اللب وتجذب القلب ، وتحرك الجامد وجدا وتنعش الجامد حبا وتحيى النفوس المترمتة شـوقا •

وانظر الى ما يقوله فى نفس القصيدة من الحكمة البليغة فى عبارتها المنيعـة :

من الجهل أن تعنى بأمر كفيتـه
وتـترك مـا كلفتـه لا تطالبه

اذا المرء لم يعرف مـذاهب سـعيه
لـدى وعيـه غالته يوما مذاهبـه

ومن لم يفكر فى عـواقب أمره
مـدى دهره صارت عقـابا عواقبه

ففى هذه الأبيات من الحكمة مالا يخفى على أديب ، واسمعه يعظ :

وما هارب إلا الى المـوت آيب
ولا سـالب إلا وذا الدهـر سـالبه

لقد صدق والله فى هـذا كما صدق فى قوله : لا إله إلا الله الى أن قال فى هـذا المقام :

مدى الدهر لا ينجو من السخط والرضا
فإسخاطه قوما لقوم مواهبه

وما عاقل فى الناس من راح واغتدى
بغالب فى دنياه ما هو غالبه

وأجهل أهل الجهل من كان جاهلا
ولم يدر أن الجهل يهلك صاحبه

وأجهل منه جاهل ظن أنه
بصير وقد عابته جهلا عوائبه

ولا خير فى خير ترى الشر بعده
ولا فى أخ دبت اليك عقاربه

فقد جاء فى هـذه الأبيات الثمينة والكلمات الرزينة بحكمة غالية وموعظة سامية أبرزها فى قالب الأدب الصحيح ، وأخرجها من لجها الزاخر الى الفضاء فى منهجها الرجيح ، واسمعه يبدى شيئاً مما فى نفسه الجياشة :

ولا العيش إلا أسمر اللون عاسل
وأشقر فى يوم عبوس تلاعبه

ورقن تعاطيه الحمام وفارس
تعاطيه حيناً ثم حيناً تضاربه

ذرينى وخلقى يا ابنة القوم إننى
رأيت الأذى حرباً لمن لا يحاربه

على أننى إما امرؤ ضمه الثرى
وإما فتى جلت بقوم كتائبه

وإما فتى أبكى عيون عداته
وإما فتى تبكى عليه أقاربه

وإما فتى يقضى عليه حمامه
وإما فتى تقضى عليه كتائبه

وفى رواية قواضبه ، وانها لقنابل حماسة تحملها نفسه الحساسة وتعرب عنها شاعريته الانسانية ، وطويته الإيمانية ، وما يجيش به الصدر تقذفه اللسان ، وما يهتز له الجان ، يذيع به البيان والمرء بأصغريه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسمعه يثنى على الحضارم إذ واعدوه القيام على نهد وعقيل اذا أراد منهم ذلك كما فى كلام الإمام الحضرمى ، حيث يقول متى يأتنا منكم صريخ نؤمكم بعسكر جرار الخ فقال :

وفتيان صدق من رجال حضارم
أوائلهم أعيت على من تغالبه

لهم همم تطلو العلى وعزائم
يصدقها فعلا كرام مناقبه

وأما إذ اشتد البلى بنفوسهم
وبالمال ما إن ضن بالمال واهبه

وأكرم بقوم قولهم هــو فعلهم
ولا فعــل إلا ماكرام مناسبــــه

واسمعه يؤنب من كان بخلاف ذلك من الرجال :

وكم قائل فى قولــه غــير فاعل
إلا أن شر القــول ما أنت كاذبه

لقد صدق والله وبهذا جاء القرآن العظيم ، وحديث النبى الكريم وبذلك يقضى حكم المروءة فى الانسانية الطيبة النزيهة ، واسمعه يعرب عما فى نفسه الصافية من الأدران الصادقة الإيمان :

ولست امرأ يرضى سلامــة نفســه
وإن يتلف الدين الذى هــو طالبه

ســلى هل قطعنا سبسبا بعد سبسب
تعــاوى بــه سيــدانه وثعالبـــه

سل النسر هل زرنا فلم نقض حقــه
وقــد نشبت فى لحم قــوم مخالبــه

فمازال يخفى الليل ما فى سواده
الى أن بدت عند الصباح عجائبــه

واسمعه يرثى لساقط الهمة الخامل فى الأمة بقوله :

متى يكسب المعروف من كان همه
غــداء يغــدى أو فتاة تراقبــه

أى همته بطنه وفرجه ، بئس من كان هـذا غاية مطلبه ، وفيــه يقول رحمــه الله :

أذا هم صـدته زواجر خـوفه
وعاقته من دون الرحيل حبائبــه

قال الإمام : وإنما ذكرنا القصيدة بأسرها لسهولة موردها وعذوبة مشربها ، وهى مع ذلك دلالة على سمو همة الإمام وغزارة فهمه ، وبعد مرامه وحسن اقتداره •

قلت : وإمامنا السالمى رحمه الله يعشق ما كان كذلك من الشــعر ويطرب له طبعا ، فلله دره من همام ولله در ذلك الإمام •

وقد سكنت عمان أيام هذا الإمام الرضى الشارى الولى الذى باع نفســه برضى الله عز وعلا ، ولم يبلغنا أن قائمة قامت عليه من أهل عمان ولا غيرهم ، وانما انتقد بعض العلماء بعض الأشياء رأوها تقع فى جيوش الإمام راشــد بن سعيد فاستنكروها ، وجردوا فيها سؤالا للإمام رحمــه الله ، وأرادوا أن يعلموا ما عنده فيها فأجابهم عنها على نحو سؤالهم مع علمه بما يشيرون اليــه ، وقد برح الخفا ولا حيا فى الحق ، ولا طاعة للمخوق فى معصية الخالق ، والاستكشاف تثلج بــه الصدور وتصح به الأمــور ، وسوف ترى ذلك قريبا إن شــاء الله • وقال شيخنا ابن جميل فيــه :

والحضـــرمى نشـر الأشعـــارا
فى فضلــه ورفـــع المقـدارا

معناه رآه أهــلا لأن يمدح وتنشر فضائله وتذكر جمائله ، ومن مدحته الأخيار وأثنت عليه الأبرار ، كان أهلا لأن يذكر بكل جميل ، والخلق شهود الله فى أرضه ، وهذه كتب من الإمام راشــد بن سعيد أوردها العلماء فى آثارهم ، ليؤخــذ منها أحكامه وتفهم منها نواياه ، ويستدل بها على غزارة علمه ويعرف منها مبلغ حزمه ، ويستمان بها على المراشد التى تتبغى من أولياء الأمر وقادة الأمة ، وتجعلها دستورا هاما فى الدين يقول على مثله هداة المسلمين ، منها ما كان بصفة فتوى من الإمام ، ومنها ما هــو مراشد للولاة ، وتوصيات للقضـــاة ونصائح للأخصاء من الإخوان ، ودعايات الى واجبات الدين والإيمان ، ومنهـا تحريض للعمال على ملازمة الأعمال ، وتحذير لهم من الميل والركون الى الدنيا وأهلها من أصحاب الأموال .

قال الإمام السالمى رحمه الله : وفى الأثر مما كان يبتلى به الإمام راشد بن سعيد رحمه الله ، وسئل عنه ما تقول أيها الإمام فى الإمام اذا غزا قوما من أهــل البغى ممن هــو معروف مشهور بسفك دماء الناس ، وأخــذ أموالهم مثل عقيل ونحوهم ، فوقع على بعض أصحابهم وأغار عسكره عليهم ، وقتل من قتل منهم ، وأخـــذوا لهم جمالا وجواليق ، ولم يمنعهم الإمام ذلك الوقت من أخذ الجمال ، لأنه كان يحفظ الأثر أنه جائز أن يستعان على البغاة بخفهم وكراعهم ، وهى الخيل والابل ، فسكت عن الانكار لهذا ثم نظر واذا بعض عسكره قد جعل ما أخذه من تلك الجمال غنيمة لنفســه ، ورآهم قــد حملوا عليهم حبا ، وركبوها ولم ينكر عليهم ذلك ما يلزم الإمام على هذه الصفة أيلزمه توبة وضمان ، أم توبة بغير ضمان ، أم لا يلزمه شىء من ذلك ؟ ! فأجاب الإمام رحمه الله قائلا : أمـــا الضمان فلا يلزمه فى هــذه الجمال على ما وصفت ،

ولكن عليه أن يعلم من أخـذ هذه الجمال أن غنيمتها لا تجـوز لهم ويأمرهم بالتخلص منهـا الى أصحابها ، وإن لم يعرفهم أو لم يعرف أحـدا منهم دان لله بالانكار عليهم اذا عرفهم •

ومنها كتاب كتبه الإمام راشـد بن سعيد رحمه الله الى أحد عماله وهو أبو محمد عبد الله بن سعيد والى منح ، قال فيه : من الإمام راشد ابن سعيد :

سلام عليك فإنى أحمـد الله ، اليك وآمر بطاعة الله ، وأوصيك وأنهاك عن معصية الله القادر عليك ، وبعد هـذا فانى أعلمك نصر الله الحق بك أن الأطماع قد اتسعت فى أموال الناس ، وجعل كل فريق من ادعى فى مال رجل دعوى طرح يده فيـه ، والوجه أن تنادى فى البلدان كل من يطرح يده فى مال فى يد غيره يحوزه ويمنعه ويدعيه ملكا له ، فانه يعاقب على ذلك ولا يحصل على شىء غير العقوبة ، ولا نطلب عليه البينة العادلة ، بل يرجع فى ذلك الى قول أهل البلد ، فاعرف ذلك واعمل به ولا تقصر فيه حتى تنحسم مادة الطمع ، وزول الظلم وينغلق هذا الباب ، ولا تؤخر ذلك إن شاء الله •

قال الإمام السالمى رحمه الله : وهى سياسة من الإمام أى راشد بن سعيد ونظر منه فى قطع مادة الفساد جزاه الله خيرا ، فان رأيه سديد •

وهذا كتاب من الإمام راشد بن سعيد رحمه الله ، الى عامله أبى المعالى محمد بن قحطان بن محمد بن القاسم ، عهدا عهد به اليـه يعلمه فيـه شرائط العدل ، ويتوخى فيه مسالك الحق لديه ، ويتقى الله باريه ،

فانه هـو المـالك لأمره والعالم بسره وجهره ، قال فلقيته فى جميع أموره التى جعلت له السبيل اليها وأوحـدته المدخل فيها ، على شروط يشتمل كتابى هـذا عليها فأول ما ابتدأنا به بعد حد الله تعالى فيـه ، وصلى الله على سيدنا محمد صلى الله عليـه وآله وسـلم ، وإنى فأوصيك يا أبا المعالى قحطان بن محمد بن أبى القاسم بطاعة الله وطاعة رسـوله صلى الله عليه وآله وسلم ، والانتهاء عما حرم الله عليك فى زواجره ، والعمل بمـا أمرك الله به من أوامره ، فيما ساءك أو سرك ، أو نفعك أو ضرك ، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به ، وتنهى عن المنكر وتقف عنه ، ولتحذر من خدائع الشيطان ، وممن يؤازره على ذلك من الأعـوان ، احذرهم ونفسك وهواك وشهوتك ودنياك ، فقد قال الله تعالى : (إن النفس لأمارة بالسـوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم) وقال : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعـه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) ، (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) ، (إنما الحياة الدنيا لعبا ولهو وزينـة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكـون حطاما وفى الآخرة عـذاب شـديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيـا إلا متاع الغرور) ، واذكر حق الله عليك ، واشـكر نعمته لديك ، ولا تذهب بك حمية ولا تمنعك تقية أن تساوى فى الحق بين وضيع الناس وشريفهم ، وقويهم وضعيفهم ، وبغيضهم وحبيبهم ، وبعيدهم وقريبهم ، وقـد جعلت حماية صحار وما يتصل بها من العفة الى صلان اليك ، وعولت فيها عليك ، فقم فيما وليتك من ذلك حق القيام ، واستفرغ منك الطاقة والجهد التام ، وشمر فيه عن ساق الجـد ، واحسر معـه عن ذراع الشد

أى لأن صحار هى البلد المنظور اليـه فى ذلك الطرق ، وخصوصا فى ذلك الوقت ، والمحـذور عليه من الغزاة الذين طالمـا هاجموه . قال : من غير أن تتعدى فى ذلك محظورا ، أو تركب فيـه منكـورا ، أو تعترف فيـه ظلما ، أو تكسب فيه حوبا وإثما إلا ما تعتمده من منع ظالم فى حال عدوانه من غير أن تعاقبه على شىء من عصيانه ، فلترفعه الى القاضى بصحار ، أى هـو الـذى يفرض العقوبات ، وذلك لحفظ الوالى من التهور ، لأنه لا يؤمن من الجاهل أن يضرب من حيث يظن النفع ، أو يفسـد من حيث يظن الصلاح .

قال : حتى يحكم عليه بما يلزمه من فعله ، ويعاقبه بما يستحقه على فعله . واعلم أنى لم أجعل لك شيئا من الحكومات ، ولا أمرتك بشىء من العقوبات ، بل جعلتك لحماية البلاد ، وأمرتك بالمنع عن الفساد ، ولدفع أهل الباطل عن ظلم العباد ، فلا تتعاط ما لم يؤذن لك به ، ولا تقصر عما أمرتك بفعله ، وكن للقاضى أبى سليمان مناصرا ومعاونا ومؤازرا ، ما دام فى حكمه قائما ، فقد أوجبت له ذلك عليك ما دام فى حكمه عادلا ، وبطاعة ربه عاملا ، وأوجبت لك عليـه وقبله أن يعينك على ما أهلتك لـه ، وأوجبت على الشراة ما أوجبت عليه إلا أن تستعين بهم فيما لا يجوز لك ولا لهم المعونة فيـه ، وحجرت عليك وعليهم خـذلان بعضكم لبعض فيما يجب عليكم من المعاضدة والمعاونة والمسـاعدة ، وفيما يعود بطاعة رب العالمين ، وفى إعزاز دولة المسلمين وكسر شـوكة المعتدين ، فافهم ما ذكرته لك وتدبر فيـه ولا تجاوز حده ومعانيه ، وقد أوجبت على الشراة أن يطيعوا الشراة وغيرهم ممن تجب عليه طاعته فى طاعة الله ربهم أن يطيعوا أمرك ، ويقووا على الحق يدك ، ما كنت فى طاعة الله

داعيا ، وعن معصية الله ناهيا ، وحجرت عليهم عصيانك وخذلانك اذا استنصرت بهم على محاربة أهل الظلم ، ومن يعتمد فى المسلمين بالجور والغشم ، على أن تستمل فى ظعنك وإقامتك وحربك ومسالمتك للمسلمين غير ما أحل الله لك ولدولتك ، ولا تحرم غير ما حرم الله عليهم وعليك ، فان فعلت ما رسمته لك فذلك رجائى وحاجتى اليك ، وان خالفته بعمل الباطل والجـور وكون الى الشىء المحرم المحجور ، فانى برىء من فعلك وأنت مأخـوذ بما يجب عليك فيه فى نفسك ومالك ، فاتق الله فى قولك وأعمالك ، واستعذ به من الورطة فى المهالك ، واستعنه على ما يتقرب به اليـه ، واعتصم به على ما تحذره وتتقيه ، وتوكل فى جميع الأمـور عليه ، (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشـدا) ، (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمـور) والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أ هـ ..

فترى هـذا العهد العظيم من الإمام الكريم لواليه على صحارى ، فشمل القاضى والشراة الذين هناك ، وقد ربط الإمام رحمة الله بينهم بهذا الرباط الوثيق ، على هـذا العهد الحقيق أن يكتب بمـاء الذهب ، فقد بين فيـه الواجب والجائز وما ينبغى فى مصالح الدين والدنيـا ، وما يرام فيها بين المسلمين من الأعمال الخاصة والعامة ، فلله درّ إمام يراعى أمته فى بعدها وقربها ، وفى حلها وترحالها ، ويؤيدها مع الحق ويتبرأ ويتنصل من أفعالها إن خالفت للحق غير مبال بها فى طاعة الله وطاعة رسوله ، فالحمد لله الذى جعل فى الاسلام مثل هؤلاء الأئمـة الأعلام ، والهداة الكرام الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولا عذل

عاذل ، قريبهم المطيع لله ، المستقيم على النهج الذى عليه المسلمون ، وبعيدهم من يخالف ما عليـــه المؤمنون فلا عنصرية ولا عصبية ولا مذهبية إلا الحق فى كل دور من أدوار حياتهم ، فهم فى سيرهم وسراهم لله وفى الله . بمثل هؤلاء الرجال تسعد الأمة ويعلو مقامها عند الله ويجمع الله بها الشمل .

هذه هى سيرة أئمتنا الكرام أعاد الله علينا وعلى الأمة أمثالهم .

الإمام راشد بن سعيد يقضى بفصل قضية موسى بن موسى وراشد بن النضر والصلت بن مالك

فى يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقين من شهر شوال سنة ٤٤٣ ثلاث وأربعين وأربعمائة ، جمع الإمام راشد بن سعيد المشايخ الذين معه ، وهم : أبو على الحسن بن سعيد بن قريش القاضى ، وأبو عبد الله محمد بن خالد ، وأبو حمزة المختار بن عيسى القاضى ، وأبو عبد الله محمد بن تمام ، وأبو النضر راشــد بن القاسم الوالى ، وأبو على موسى بن أحمد بن محمد بن على ، وأبو الحسن على بن عمر ، وأبو بكر أحمد بن محمد بن أبى بكر ، وعرض عليهم رأيه فى قضية الأئمة : الصلت ابن مالك ، وراشــد بن النضر ، وموسى بن موسى ، وأفاد ما عنده فى القضية فصلا حاسما لنزاع لم يزل بين مشايخ العلم فى تلك الحادثة التى لم تزل أحدوثة السمر ، وبها قد انشقت عصا المسلمين ، وحصل بينهم بسببها الحقد والكدر ، والإيمان يدعو الى التآلف والتآزر ، ورفض ما يفرق أمر المسلمين ، وهم جميعاً كما نص بذلك القرآن الكريم حيث يقــول : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وكما نص الحديث الشريف عنه عليــه الصلاة والسلام : كونوا عباد الله إخوانا وعلى الخير أعوانا فى أمثاله .

قال الإمام رحمــه الله فى كتاب حرره فصلا للقضية المشار اليها وهو قوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، من إمام المسلمين راشد بن سعيد ، قد اجتمعت بحمد الله ومنه كلمة عمان على أمر واحــد ، ودين قيم ، وهو دين الله الذى أرسل به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من تولى الصلت بن مالك رحمه الله ، وبرىء من موسى بن موسى وراشد بن النضر ، ومنهم من تولى المسلمين على ولايتهم الصلت بن مالك رحمه الله ، وبراءتهم من موسى بن موسى وراشد بن النضر ، واجتمع على

الدينونة بالسؤال فيما يجب عليهم السؤال فيه عند أهل الحق الذين يرون السؤال واجبا ، واجتمع رأيهم على أن من دان بالشك فهو هالك ، وكذلك اتفقوا على أن من علم من محدث حدثا وجهل الحكم فيه أن عليه السؤال فيـــه ، وأن علم الحدث والحكم كان عليه البراءة منه ، اذا كان حدثه ذلك مما يجب به البراءة من فاعله والحمد لله حق حمده ، وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبى وآله وسلم •

وكتب هــذا الإمام راشد بن سعيد بخط يده فصدق عليه المشايخ ، ورضوا به فصلا للقضية وحجة تقضى على تلك البلية ، التى صار لها بينهم عظيم الأهمية ، إذ هى قضية دينية • قال الناقل عنهم : ولأجل هــذا الكتاب غضبت الغلاة فى أمر موسى بن موسى ، وراشد بن النضر ، على الإمام راشد بن سعيد غضب الخيل على اللجم ، قال : فأضمروا فى أنفسهم ما أضمروا ، ولم يستطيعوا كيدا للإمام ولا إظهار عداوة ، بل انقادوا فى الظاهر وأخفوا بدعتهم فى أنفسهم ، كما ســترى بعض كلامهم فى إمامة ولده حفص بن راشـــد بن سعيد ، أى حين اختلف الوضع وتبدل الشخص عادوا الى ما كانوا عليـــه والشيطان يتلاعب بالناس تلاعب الكرة بالصولجان وقاصد الخير لا يبعث الشر ، والداعى الى الحق لا ينبغى منه السعى الى الباطل ، وموسى بن موسى وراشد بن النضر ، والصلت بن مالك ، لا يخص من جاء بعدهم شىء من أعمالهم ، والله لا يكلف قوما بأعمال غيرهم ، ولا يرضى فى عباده إلا الحق ، ولا فعل هــذا صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم • وقد وقعت بينهم فتن وحوادث ، ونزلت بينهم قضايا هامة وهى على كاهل أهلها (تلك أمــة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولا تسألون عما كانوا

يعملون) فما بالنا نحن كلما طال الزمان جددنا المـأساة ، وأعدنا العداوات بها ، أيرضى بهذا عاقل عافاه الله من ذلك ، إن هذه لعجب •

وكان الإمام راشد بن سعيد رحمه الله يشارى الناس ، وبقى البحث هنا فى هل يبقى حكم الشرى بعـد موت الإمام أم لا ؟ فأفتى الشيخ أبو الحسن بن سعيد ببقاء حكم الشرى على ما كان عليـه ، حتى يموت المشـارى يراه عقدا على طاعة لا يصح نقضه إلا بالمـوت ، أى لا يرتفع عن المعاقد إلا بموته ، وربما يرى بعض العلماء أن تلك صفقة صافقها المشـارى إمامه وعليه الالتزام مادام مصافقه حيا ، فاذا مات انحل ذلك لعدم المصافق ، وبهذا أفتى محمد بن خالد أحـد علماء ذلك الوقت والله أعلم •

قال شيخنا ابن جميل عفا الله عنه :

ولم يـزل كذلك فى الإمـامه
حتى توفـى بالغـا حمامـه

وقـبره بنزوى قـد روينـا
لا أعرفن موضعـه تعيينـا

وتوفى الإمام راشد بن سعيد رحمه الله فى المحرم سنة ٤٤٥ بنزوى رحمه الله وقبره بها •

وهذا كتاب من الإمام راشد بن سعيد الى الشيخ موسى بن نجاد ، والى منح وأدم معا فى أحوال بعض السرايا التى سيرها الإمام المذكور فى بلاد المسلمين ، وانتقد بعض الناس منهم أحوالا ، وذكروا عنهم أعمالا ، ولا تخلو هذه الحياة من حوادث تنتقد ، وأعمال تعتمد •

قال الإمام رحمه الله على أثر ذلك : فإن كان أحـــد من أهل هذه السرية قد ركب جورا أو فعل فعلا منكورا فأنا برىء منه ، أى لم آمر بفعل الجـور ولا أرضى به ، ولا يسعنى السكوت عنه اذا قامت حجته ، قال رحمه الله : أنا برىء منه ومن فعله ، معاقب لـه على ذلك بعــد الصحة ، منصف بما يجب فى الحق عليــه ، غير راض بجهله وتعديه • وما بعثت هذه السرية إشارة للسرية التى وقــع النقاش من أجلها لم أبعثهم ، حتى نهيتهم عن ظلم العباد ، أى تقدمت عليهم بذلك كما هى سيرة أئمتنا منذ الجلندى ، بل منذ أبى بكر الصديق رضى الله عنــه ، إذ كان يتقدم على كل السرايا تحذيرا وتنبيها وتنصلا الى الله ، ثم الى المسلمين إخوانه حتى لا يقع عليــه ســوء ظن رحمهم الله وجازاهم عن الدين أفضل الجزاء ، ما كان لهم نظر فى غير المصالح الدينية ، فهم هداة الأمة الى الحق ، وهم الدعاة الى إحياء الشريعة المحمدية ، لم يغتروا بالبيضاء والصفراء وإن كثرت ، كما روى عن على بن أبى طالب أمير المؤمنين قوله : يا بيضاء ويا صفراء لا تغرينى وغرى غيرى ، أى لست المغتر بك لا أرب لى فيك ، ولا يميل قلبى اليك ، إنمــا أنت فتنة فلا أفتتن بك ونحــوه عن أهل العلم المخلصين لله عز وعلا فى المذهب •

قال الإمام راشد بن سعيد رحمه الله : وأمرتهم فى غزوتهم المشــار اليها بطاعة رجل من أهل الصلاح والرشاد ، ولابد للسرية من أمير من طرف الإمام ، هكذا قال ، فان كانوا تجاوزوا فى ذلك الى مالا يجــوز لهم فعله فعليهم وزر ما فعلوه ، وضمان ما أتلفوه على الناس وأحدثوه ، ولست بداخل معهم فى عصيان ولا مشارك لهم فى ضمان ، فان يكن أحد يدعى على أحــد من أصحاب السرية حقا فليصل الى حتى أوصله الى

حقه ، وليس على علم ما غاب عنى ، ولا إنصاف من لم يطلب الإنصاف منى ، ولن تقوم الحجة على العسكر بالخط ، أى بكتاب يرسله المدعى عليهم ، بل عليه أن يحضر ، وعلى الإمام إحضار الخصوم ، ثم يترافعون اليه ، فان شاء أن يحكم بينهم حكم وإلا دفعهم الى من يراه أهلا لفصل هذه القضايا من أهل العلم •

قال رحمه الله : لا تقوم الحجة عن العسكر بالخط والقرطاس ، أى لاحتمال أشياء فى المقام كما أشرنا الى وجه من وجوهها • قال : ولا الى كلام من لا يلتفت الى كلامه من الناس ، أى كذلك لا تقوم الحجة على المسلمين بكلام الغوغاء والمرجفين الذين لم يكونوا حجة فى دين الله ، كما نص على ذلك الكتاب والسنة ، قال رحمه الله : وللمسلمين بحمد الله مداخل فى العدل ومخارج من الجهل ، ينكرها من لا بصر له ولا تمييز معه ، ويعرفها من هداه الله لمعرفتها ونفعه الله بها ، ومن نطق بقول لا بصر له فيه ولا يعرف حلاله من حرامه ، وقصد من لا يعرف جوره من عدله ، لم يسلم من ذلك ولو أصاب فى قوله وفعله ، أى لم تغنه إصابته تلك لأنها كانت على غير علم ، كما أشار الى ذلك حديث الربيع وغيره فى قوله عليه الصلاة والسلام ، ولو أنه أصاب الحق فى خصوص حديث من أفتى مسألة أو فسر رؤيا بغير علم الحديث اهـ •

وهذا الكتاب الذى كتبه الإمام راشد بن سعيد لوالى منح ، وكتبه أيضا لوالى أدم ، وكتبه لوالى سنى ، وجعله حجة بينه وبين الولاة المذكورين فكان سداً مانعاً عما قد يكون من بعض الناس الذين تأخذ بهم معرة الجيوش ونشوة النصر ، والله الهادى للحق باذنه ، فرحم الله الإمام الراشد ورضى عنه ، وأن هذا هوسبيل أئمة الهدى

الوقاة من الردى ، والدعاة الى الاهتدا ، فان أصل قوامهم الإيمـــان بالله ، والإيمان يحتم عليهم الطاعة التى لا شائبة فيها ، والتباعد من أهل الســـوء كما يفهم من قـــوله عز وجل : (وليجدوا فيكم غلظة) ، والمراد بها التمسك بالأوامر الإلهية والثبات عليها فى المكره والمنشط ، والعض عليها بالنواجذ • ورد من يرتد عنها اليها ، وإرغام من عاداها عليها ، ولن يقوم الاسلام الذى هـــو دين الله الذى فرضه على عباده ، وأراده منهم وأرشدهم اليه فى الأيام الخالية ، فكان شمس الهدى العالم كله أضوأ من شمس السماء التى تعرفها العوام الجهلة إلا بذلك ، وما أشرق ضوء تلك الشمس إلا وأصبح العالم كله يتلألأ نورا ، ويشرق ضياء ، ينادى بلسان الحال كل ذى نهى فى الكون •

إمامة الإمام حفص بن الإمام راشد بن سعيد

قال شيخنا ابن جميل بعد ذكر راشد بن سعيد :

ونصبوا من بعده سليله
حفصا وكان فى الهدى مثيله

وكان سلطان العراق نقلا
جيشا على حفص وكان اقتتلا

وانهزموا ولم يزل إماما
حتى توفى واحتسى الحماما

والمعنى أنه لم يزل على إمامته حتى توفاه الله لا كما يقول ابن الأثير فى خريطته التى يدونها بغير تحقيق ، ويعلق الأخبار متلقفا لها من ألسن الأعداء الذين لا يبالون بما يقولون ولا بما ينقلون .

لقد عرفت نسب راشد بن سعيد مما تقدم ، وهذا ولده حفص بن راشد ، وقد توفى راشد بن سعيد فى سنة ٤٤٥ ، وبويع ولده هذا بعده . قال فى معالم الجزيرة : وبويع بعد راشد بن سعيد ولده حفص . قال الإمام : ذكر فى بعض السير أنه نصب من بعد راشد بن سعيد ولده حفص بن راشد ، قال : ولم يذكروا تاريخا لبيعته ولا لمدة إمامته ، قال : وظاهر كلام بعضهم أنه مات فى الإمامة ، فانه قال مات ولم يعزله المسلمون ، قال : وكلام أبى الحسن البسيانى وهو من الغلاة فى أمر موسى وراشد أن بيعته عنده غير صحيحة .

قال : ولعل ذلك لسلوكه طريقة والده فى أمر موسى وراشد ، فإن

أبا الحسن سئل بما نصه : ما تقول أيها الشيخ فى حفص بن راشـد إن تاب ورجع وجددت إمامته يرجع إمام المسلمين أم لا ؟ فان عقد لـه من متعلمى أصحابنا وثقاتهم خمسة أنفس تنعقد له الإمامة وإن بلينا به وطلب منا النصرة والخدمة ما نعمل ، وما يكون قولنا لـه ؟ قال : أمـا العقد الأول فانه لم يصح وعلى ما ذكر بعض من دخل فيه رأيته عقدا غير ثابت ، وأمرا مشكلا ، وقد جرى بعد العقد الذى هـو غير ثابت أحكام غير جائزة ، ومشهور فسادها ، ودخل فيها من لم يكن يجـوز أن يتقدم بأمرها ، ومع ذلك أيضا حدث قتل من قد علمتم فتكا بغـير صحة ولا حجة علمناها ، وأوحشنا ذلك ، فقد طلب منه تصحيح ذلك الحال أصحابنا ، فلم يبينه ، وقولنا فى ذلك قول المسلمين ، ونحن نتوب الى الله • وأما إن اجتمع أمر المسلمين وأهل المشـورة فى الدين على شىء ، ووقع التراضى على إمامته ، فبعد التوبة وإظهار ذلك والإنصاف أو حجة أى تخرجه مما يدعى جائز أن يعقد له إن تاب •

قلت : إن هذا الشيخ ينكر العقد للإمام حفص بن راشد ، ولم يبين وجه ما يقول ولا ما ينكر ، وليته بين حتى يعلم المسلمون ما عنده إن كان حقا تبعوه عليـه ، وإن كان باطلا اجتنبوه معه ، حتى يعلموا من الإمام الحق الذى لا ريبة معه ، أما الحـكم بالبطلان وعدم صحـة العقد ليرتب عليـه عدم صحة الإمامة فلا يكفى ، فانه اذا اكتفى به هو لم يكتف به غيره من المسلمين ، والأمر الذى يميل اليـه الجمهور أولى من الأمر الذى يتبعه الأقل خصوصا فى الأمر الجامع كالإمامة ونحوها ، فانها من الأمور العامة بين المسلمين ، وليتهم لم يشقوا العصا بينهم وإخوانهم فما يقوم به بعضهم يقوم به الباقون ، وهـو الذى يدعـو اليه القرآن ويأمر به الرسول الأعظم صفوة آل عدنان ، ولا ينتج الافتراق

والتلاشى إلا من نوعه ، وبذلك تسقط قــوة المسلمين وتذهب هيبتهم من قلوب أعــدائهم ، وبذلك يطمع فيهم من كان يخافهم ويخشاهم .

قال الإمام : وسأله آخر أى سئل الشيخ أبا الحسن فقال : أفتنا فى حفص بن راشــد أكانت إمامته صحيحة أم لا ؟ وقد بايعنا لــه محمد بن الحسن الليانى على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله فبايعناه ، وخرجنا عندهم فلم نر من ذلك شيئا ، وسلمنا الى الثقاة من أهل دعوتنا شيئا من الزكاة فقبضها وأنفقها ، فوقع الخوف فهرب وانتهبت فضمنها ذلك الانسان الذى قبضها ألنا من هــذا براءة عنــد الخالق أم لا ؟ وذلك إنا كنا دائنين بطاعته مسلمين جاهلين بالبحث عن الإمامة ، وكذلك ابتليت أنا لهم بقبض شىء من الناس بأمر أصحابه أعلى فيه ضمان أما قبض بيدى فلا ، ولكن كنت أحضر ذلك وآمر فيه ما يلزمنى فى ذلك ؟ بين لى رحمك الله ، هــذا سؤاله وما كان ينبغى لــه أن يسأل عن مثل هــذا وقد بايع على حق بحسب الظاهر ، ولا ينبغى لــه ذلك لأن هــذا يكون من نوع ما نهى الله عن السؤال عنه فى قوله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية ولــا سأل عن هذه الأشياء أجابه الشيخ أبو الحسن بقوله : هــذا أمــر مستور ، وأمره كان مقبورا أى مكتوما فى النفوس ، فــلا أحب فيه ظهورا ، وأما أنا فقد بلغت الغاية وأفصحت الأمــور مع الريب الذى فيه ، وطلبت تصحيح ذلك فوجدت الأمر فيه غير ثابت فى العقــدة ، والعمل غير مستقيم ، ولم أكن دائنا لله بطاعتهم ، وكنت غرمت ما قبضوا منى ، وأبدلت صلاتى يوم صليت الجمعة عندهم ، وأما أنت على مــا سألت فان المستحل الدائن لله بالطاعة اذا أخطأ ثم علم بخطئه فأكثر القول أنه لا ضمان عليه ، وعليــه التوبة والرجوع عن ذلك ، وأمــا

الشيخ لعله يعنى أبا محمد ، فرأيت يوجب الضمان على من دخل مستحلا بغلط ، وقد كان ألزمنى ضمان ما كان أيام راشد بن الوليد ، لعل أرادوا من الذى دفعت وقبضت ســوى الذى فى الاستحلال والدينونة ، والذى أحبه لك أن قدرت على الخلاص من ذلك أن تبدل مكان زكاتك وتستحل من أخذت منه شيئا إلا أن يكون رســولا لصاحب الزكاة الى الوالى ، فلا ضمان ، وأما الأحكام عند الخالق فذلك اليه ، وإنما تعبدنا بالحكم ما يعلم فى الظاهر فعلمناه والسلام •

قال الإمام رحمه الله : هذا كلام أبى الحسن البسيانى وفيه ما فيه على حفص ، وما أراه إلا من قبيل مخالفتهم فى الغلو فى أمر موسى وراشد ابن النضر ، حيث إن الإمامين لم يكونا على بدعتهم ، وكتبت بعــد كلامه مسائل تشبه الرد عليه من كاتبها •

قلت : هى فى الحقيقة رد عليــه لأنها تعارض مــدعاة ، وتقضى بالاعتراض على ما أبداه ، وهــذا مما يخل بالأمر فى الاسلام ، لأن الله يقول : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ، وكان ينبغى الاجتماع على الأمــور ودفن كل سيىء مهما أمكن ، وكفى بالمرء نبلا أن تعــد معائبه ، ولا يسلم الانسان من هفوة وسقطة مهما كان ، والذى ينبغى التكاتف والتآزر وإلغاء العنصرية والعصبية فى الممكن إلا أن يكون كفرا بواحا وهــوى متبعا واعجابا برأى فهنالك التناصح مفروض والتجاوز مرضى •

ومن تلك المسائل التى تشير بالرد على الشيخ أبى الحسن قوله : قال البعض إن الإمام لا يحتاج الى العقدة اذا وقع الرضا به والتسليم لــه ثبتت إمامته ، والمعنى أن المعتبر الرضا لا العقد ، فان وقع خمسين

مرة على غير الرضا لا يكون حجة ، الا ترى اذا كان العقد على القهر والإجبار لا يكون حجة ، وإن كان الف عقد ، أما الرضا ممن هم الحجة فى الدين من علماء المسلمين وقادة المؤمنين ، فانه حجة ثابتة شرعية ، ومن ذلك إمامه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وإنما قدمه أبو بكر فقط فرضى به المسلمون وأذعنوا ، فثبتت إمامته عليهم ، ووجبت فيهم ، ولم ينكر ذلك أحد من المسلمين ، وإنما أنكر بعضهم غلظة عمر وشدته ، والقضية مشهورة بين المسلمين ، معروفة صحتها فى الدين ، وبها احتج هـذا القائل المعترض على هـذا الشيخ الطاعن فى إمامة حفص بن راشد رحمهما الله .

قال : ومن ذلك إمامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إنما قدمه على الإمامة للناس أبو بكر وحده رضى الله عنه ، فلما وقع التسليم والرضا بإمامته ثبتت له من غير عقدة اهـ بنصه .

قال : ومنها ما معناه أن الإمام مصدق فيما يكون فيه مؤتمنا فلا يطالب بالبينة على يد سارق قطعها ، ولا على حـد أقامه ، ولا على حكم أمضاه وأنفذه ، وإنما يكون محجوجا فى الأشياء التى هو والرعية فيها سـواء ، مثل الحقوق التى للعباد فيها تعلق وتخرج منه مخرج الأحداث ، كما من غيره أيضا وفى هذا انتقاد واعتراض على الشيخ أبى الحسن المنتقد على الإمام الحفص ، المبتلى بأهل عمان فى ذلك الزمان ، وكان أيضا الشيخ أحمد بن عمر بن أبى جابر المنحى من الغلاة فى أمر موسى بن موسى ، وراشد بن النضر ، وكان يلوح بالانتقاد على حفص ابن راشد ، إذ كان يرى فيهما رأى أبيه ، وكان الغلاة يغضبون عليـه غضب الخيل على اللجم .

قيل لهذا الشيخ : ما تقول فى إمام غير ثابت الإمامة ألزم رجل من المسلمين المدخل عنده فى أسباب ، وكان يأمره أن يكتب إطلاقات فى

الجبايات ، إن كان إطلاق هـذا الرجل لهذا المـال على سبيل الاحتساب أنه يطلقه للفقراء وابن السبيل ، وكان اعتماد هذا الرجل على هذه النية لا ليمضى أمر هـذا الإمام ولا يعمل برأيه ، وإنما هو على قدر ما يرى من يستحق هـذا المـال لفقره لا غير ذلك ، هل يسعه ذلك ؟ قال : يسعه • قال الشيخ يسعه ذلك على هذه الصفة ؟ قيل له : فان أمره أن يحلف له رجلا ممن يخشى منـه كما يفعل الأئمـة ، قال الشيخ المذكور يحلفه للمسلمين لا لـه ، قيل له : فان أمره أن يبايع لـه أحدا من النـاس هل لـه ذلك ؟ قال الشيخ : يبايعه للحق لا له ، قيل له : فأن أنفـذه لغزو عدو للمسلمين أو لقمع ملصة ؟ قال الشيخ : يكون احتسابه ذكر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فان امتنع عليه من أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، وكان منكره الذى ارتكبه عيانا كان له محاربته إن حاربه بعـد أمره لـه بترك المنكر الذى ارتكبه ، وإن كان على وجه التهمة لـه مثل قطعه الطرق والتعرض لمظالم الناس والتعدى عليهم ، ولحقه هـذا القائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لم يحاربه إلا بعد الاحتجاج عليـه بأن المسلمين قـد رأوا الامساك فى الحبس على الأشياء التى قد نسبت اليك ، وشهرت عليك من المناكر ، وقصدك الى الظالم ، فان أجاب لم يكن إلا ما رآه المسلمون ، وإن امتنع عن ذلك عملوا لـه على الاستيثاق منه ، فان شهر السلاح وحارب على ذلك ولم يرجع الى الحق كان قصدهم فى مجاهدتهم هذه على أنهم يمسكونه عن الأشياء التى قد نسبت اليه من المظالم والقصد لها ، والمناكر والعمل لها ، فان تلفت نفسه فى ذلك لم يكن فيه تبعة على هذه الصفة •

قيل له : فان أراد هـذا الإمام الخروج الى بعض النواحى لغزو قوم ظلمة معتدين ، وطلب صحبة هـذا الرجل هل يصحبه ؟ قال الشيخ : إن شرط عليه ألا يفعل ولا يقدم على شىء إلا برأيه وعرف صدقه فى ذلك أنه يقبل منه ولا يغضبه فى شىء جاز لـه الخروج معه على هـذه الصفة والله أعلم اهـ •

وعلى كل حال إن محاربة البغاة وأهل الفساد فى الأرض والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمـور مفروضة على كل فرد من عباد الله ، ولولا ذلك لضاع الاسلام وانهد كيانه وتبعثر بنيانه ، واذا كان هـذا الإمام غير صحيح العقد فى الإمامة ورضى به المسلمون ثبتت إمامته كما ثبتت إمامة غيره بغير شك ، وأى جرم اجترم حفص بن راشـد حتى ينتقد عليـه ، أما متابعة والده فى مقاله فى موسى بن موسى وراشد ابن النضر ، والصلت بن مالك ، فلم يفعل والده شيئا يقدح فى إمامته ، وقد رام الرجل أمرا يكون صالحا أمر المسلمين جامعا لشملهم ، وأن تموت تلك الزعزعة العاصفة بالأمة وينقطع غبارها ، وتنطمس آثارها ، وألا تبقى تعاد طول الدهر لاثارة الشقاق وإقامة بواعث الافتراق ، ولقد أحسن فيما صنع ولكل نظره والله ولى التوفيق .

أما ذكره ابن الأثير فى كامله فى آخر إمامة راشد بن الوليد ، وهو يقول ذلك فى إمامة حفص بن راشـد المذكور ، ففيه تخليط ، أما أولا فقد أورده فى حوادث سنة ٣٦٣ ثلاث وستين وثلاثمائة ، وأما ثانيا فلأنه ذكر خروج سلطان العراق على الإمام حفص بن راشد ، وأن حفصا هذا جعل لـه أميراً اسمه ورد بن زياد ، وأن حفصاً بعد قتال سلطان العراق انهزم وفر الى اليمن فصار معلماً الى آخر ما قاله ، وكله لا أصل لـه فى التاريخ العمانى ولا غيره ، وإنما هو تلفيقات أوردها وأخاليط اعتمدها آخذاً لها من ألسن العوام الذين لا يعرفون قبيلا من دبير .

أما الحقائق العمانية التاريخية لم تذكر من هـذا شيئاً أصـلا ، وقد يؤخـذ من نقله أشياء . قال ابن الأثير المـذكور : اجتمع بجبال عمان خلق كثير من الشراة ، واختص اسم الشراة بالإباضية وهى إحدى مزاياهم ، قال : وجعلوا لهم أميراً اسمه ورد بن زياد ، وجعلوا لهم خليفة اسمه حفص بن راشـد ، فاشتدت شوكتهم . قال : فسير اليهم عضد الدولة المطهر بن عبد الله فى البحر أيضاً فبلغ الى نواحى حرفان .

قلت : لم نعرف حرفان بهذا الاسم ، ولا علمنا عنها شيئا من أعمال عمان •

قال : فأوقع بهم وأثخن فيهم وأسر ثم سار الى دما وهى على أربعة أميال من صحار ، فقاتل من بها وأوقع بهم وقعة عظيمة قتل فيها وأسر كثيراً من رؤسائهم ، وانهزم أميرهم ورد وإمامهم حفص واتبعهم المطهر الى نزوى ، وهى قصبة تلك الجبال ، فانهزموا منه فسير اليهم العساكر فأوقعوا بهم وقعة أتت على باقيهم ، وقتل ورد وانهزم حفص وفرّ الى اليمن فصار معلما •

وجاء عنه أيضاً : أن الخوارج يعنى المسلمين فى حوادث سنة ٤٤٢ قال : فى هذه السنة استولى الخوارج يعنى المسلمين ينبزهم بذلك إن لم يكن جاهلا بالأصل وإلا فكيف يطلق على المسلمين الخوارج ، ولا يطلق ذلك على غيرهم ، واذا سميناهم لأجل التمييز فقط إباضية ، من أين وجـد الإباضية خوارج إلا إن كان يعنى خوارج عن الباطل ! فأهلا وسهلا ، ولكن ما أراه أراد ذلك قال : استولوا على مدينة تلك الولاية ، وأراد بذلك نزوى إذ هى عاصمة الداخلية • قال : وسبب ذلك أن صاحبها الأمير أبا المظفر بن الملك أبى كاليجار ، كان مقيما بها ومعه خادم لـه ، قد استولى على الأمور وحكم على البلاد ، وأساء السيرة فى أهلها فأخذ أموالهم فنفروا منه وأبغضوه ، وعرف انسان من الخوارج يقال لـه ابن راشـد الحال فجمع من عنده منهم وقصدوا المدينة ، فخرج اليه الأمير أبو المظفر فى عساكره ، فالتقوا واقتتلوا فانهزمت الخـوارج وعادوا الى موضعهم ، وأقام ابن راشـد مدة يجمع ويحتشـد ، ثم سار ثانياً وقاتله الديلم ، وكان الديلم هم جند الأمـير أبى المظفر المذكور ، ولا شـك أنهم سيطروا على بنى العباس فى عراقهم ، فكانوا جنداً ، صاروا أمراء على الأمـة ، وأنه أهل البلد لسـوء سيرة الديلم فيهم ، فانهزم الديلم وملك بن راشـد البلد ، وقتل الخـادم وكثيراً

من الديلم ، وقبض على الأمير ابن المظفر وسيره الى جباله مستظهراً عليه وسجن معه كل من خط بقلم من الديلم وأصحاب الأعمال ، وخرب دار الإمارة ، وقال : هـذه أحق دار بالخراب ، وأظهر العدل وأسقط المكوس ، واقتصر على ربع عشر ما يرد اليهم ، وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، ولبس الصوف وبنى موضعاً على شبه مسجد ، قال وقد كان هـذا الرجل تحرك أيام أبى القاسم بن مكرم ، فسير اليه أبو القاسم من منعه وحصره ، وأزال طمعه هذا كلامه والله أعلم بصحته اهـ .

وعليه فماذا يؤخذ منه فانه قال أولا : إن حفص بن راشد انهزم الى اليمن وصار معلماً ، وهنا يقول خلاف ذلك كما تراه ، أما تخريبه دار إمارة الظالم فصوابه ظاهر ، وقوله • أظهر العدل فالعدل هو أنشودة أئمتنا رحمهم الله ، وأما قوله : وأسقط المكوس واقتصر على أخذ ربع العشر مما يرد اليهم ، يعنى بذلك ما يؤخذ فى الجمارك من أموال البحر الواردة للتجارة ، وهو صواب وهل يبعد الصواب عن الإباضية فيما حرم الله وما أحل ؟ لا والله انهم أحق بذلك من غيرهم ، ولذلك ينصبون الأئمة ويتجشمون المصاعب المهمة ، وهـذا هو بغية الاسلام من رجاله الكرام ، وأما قوله : وبنى شبه مسجد لا نعرفه فى أصحابنا فضلا عن أئمتنا ، اللهم إلا أن يكون موضعاً خصصه لصلاته حيث لا يمكنه الخروج الى المسجد لأجل الحزم كصلاة الأئمة فى غرفة الصلاة بنزوى ، وبالرستاق وجبرين وهكذا ، وأما قوله : وخطب لنفسه ، فعلى كل حال اذا كان هو الإمام لابد أن يخطب لنفسه ، لأنه الإمام أو يخطب له غيره بأمره • وقوله : ولبس الصوف لم يختص أئمتنا بحمد الله بلباس مخصوص ، يكون شعاراً لهم ، وإنما يلبسون ذلك زهداً وقناعة كما كان على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، وأئمتنا مازالوا ولن يزالوا على طريقة الصحابة فى كل جيل ، من رآهم نادى بأعلى صوته هؤلاء الصحابة ، أو من أراد أن ينظر الى الصحابة فلينظر

الى أئمــة الإباضية ، وهــذا لايزال يردده الأجانب ، وسمعناه منهم والحمــد لله .

قال العلامة أبو اسحاق الإطفيشى قوله : وتلقب بالراشد بالله الى آخره ، هذا اللقب وأمثاله لم تكن الأئمــة من أصحابنا تلقب به فى قطر من أقطار الإمامة فى المشرق أو المغرب ، وهذا من تخليط مؤرخى قومنا ، وانظر الى قوله : وبنى موضعاً على شكل مسجد ، فإنه تعبير سخيف فيه شىء من التهكم لتستدل على مقصد هــذا وأمثاله فى حق من يخالفهم ، ولتكن على بينة من أنهم حتى فى الحقائق الواضحة المشتركة ، لا يعبرون عنها تعبيراً صحيحاً اذا ساء لهم الهوى ، وإلا وأى غضاضة لو قال بنى مسجداً وكأن هــذا يرى أن الإمام ثار على خليفته فى زعمه ، وقد لفق كلامه هذا ليبنى عليــه زعمه ، ولكن تعبيره الأخير كشف مراميه وأبدى عواره ، والإمام قائم بأمر الله تعالى تبعا لنفســه من الأئمــة ، فهم ينتخبون إماما بعد إمام اذا مات منهم سيد قام سيد ، والحقائق لا ينكرها إلا عديم البصيرة ، واذا أنت أضفت الى قول ابن الأثير قيل وانهزم ، حفص الى اليمن فصار معلما ، فهو أسطورة ، ومؤرخو عمان أثبتوا أن الإمام حفص مات فى إمامته دون خلاف كما لديك اليقين فى الحكم على هــذا التشويه التاريخى ا هـ .

وقد قدمت لك التحقيق عن مقاصد هؤلاء المؤرخين ، وقــد وجهنا كلامه على أحسن الوجــوه اللائقة !هــذا ما قاله المذكورون ، وفى ابن رزيق قال : ثم عقد بالإمامة بعده أى بعد راشد بن سعيد على ولده حفص بن راشد بن سعيد ، فسلك نهج السلف الصالح فى سيرته الحميدة ، فما لبث فيها إلا يسيرا الى أن توفاه الله ا هـ .

وهذا يدل على أن الإمام حفص لم يطل عهد إمامته ، والتحقيق لم نتمكن منه وعمى إن شاء الله أن ندركه فنرفعه للاطلاع ، ومن المستنتج المفهوم من المقام أن الإمام حفص بن راشد عاش زمانا واسعا فى إمامته لا كما يقول ابن رزيق فانه تولى الأمر وقام عليه الأعداء من زعماء السلطنة العباسية كما تردد المقال عنه فى ذلك ، وصار وما صار بينه وجيوش السلطنة المشـــار اليها •

إمامة راشد بن على من أئمة الطائفة النزوانية

قال ابن رزيق فى سيرته :. ثم عقد بعده أى بعد حفص بن راشد على راشد بن على ، فان كانت هذه البعدية تاريخية فذاك ، وإن كانت وقتية احتملت الفراغ فى الوقت ، وظاهر الكلام دال على أن راشد بن على بويع بعد حفص بن راشد وهو الواضح ، قال : فحمدته الخاصة والعامة وسارسيرة العدل وقمع البغى والظلامة .

قال الإمام رحمه الله : ولم أجـد تاريخا لوقت بيعته ولا عرفت نسبه ، غير أن الأحوال تقتضى أنه بويع بعد حفص بن راشد ، وعلى ذلك ترتيب السير أى لم يكن مانع بعد الإمام حفص بن راشـد من إعادة الإمامة ، والعمانيون لا يرون لهم قرارا إلا تحت ظل الإمامة لما فيها من الاستقامة فى الأمـة ، ومالديها من العدل والمساواة ، وما تدعو اليه من الإنصاف بين الناس ، فلذلك ترى أهل اذا قامت الإمامة كانوا أعوانها وأنصارها ؟ ورأيتهم تحت أجنحتها مسرورين بوجودها ؟ واذا زالت تضاءلوا وانضووا فى بيوتهم مختفين حتى اذا رأوا الفرصة لها بروزا من مخابئهم ، وخرجوا من أكواخهم منادين لإخوانهم ، ناشرين لأعلامهم مؤيدين لإمامهم ، جامعين لأمتهم تحت ظل عدلهم ، وحسن الظن فيما قاموا له على أحسن التوجيهات التى تليق فى الدين ، وعلى أحسن المقاصد فى المسلمين .

قال الإمام رحمه الله : ووجدت تاريخا لتوبته الآتى ذكرها قريبا ، أى فيستفاد منه وقت إمامته ، قال إنها كانت أى توبته فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، فيكون على هـذا هو على أثر حفص بن راشد كما أشار الى ذلك ابن رزيق ، لأن راشـد بن سعيد رحمه الله توفى فى سنة

خمس وأربعين وأربعمائة ، وبويع بعده لولده حفص ، ثم بويع بعد حفص بن راشد للإمام راشد بن على المذكور • قال : فحمدته الأمة وشكرته الرعية ، وقام منار العدل • قلت إنما بويع لذلك وطلب منه هذا ومثله وهو حقيق لأن يكون كذلك ، والأوجب عزله واقامة من يقوم بذلك عنه ، وقوى ساعد هذا الإمام وعلا صوته فى عمان ، وطال عمره فى الإمامة وهو الذى قتل القاضى نجاد بن موسى أحد الخارجين عليه فى سنة ٤٩٦ فى ذى القعدة لأحوال اقتضاها الحال ، والله أعلم بمن هو المحق ومن هو المبطل ، ولم نكلف علم ما غاب عنا ، وبحسب الظاهر أن الإمام راشد بن على لما قامت إمامته بعمان واشتدت صولته فى الأوطان ، وصفا له الجو من عمال بنى العباس الذين طالما آذوا أئمة عمان ، وطالما قادوا عمان بسلاسل الجور ، وقد عرفت ذلك مما مضى ، وهذا الإمام اذا سلم من أعداء عمان لا ينبغى أن يسلم من أهل عمان ليأخذ قسطا مما أخذ إخوانه الذين تولوا الأمور قبله ، وصارعتهم الليالى والأيام ، وقد عاش الإمام راشد بن على فى الإمامة عهدا واسعا فانه مات فى سنة ٥١٣ ثلاث عشرة وخمسمائة فيكون قد عاش قريبا من ثلاثين سنة تقريبا •

خروج الأعيان على الإمام راشد بن على

لمـا قام عمود إمامة الإمام راشـد بن على انبعث عرق الشقاق ، ونبض داعى الافتراق ، ونفخ الشيطان فى النـاس نفخته التى أثارت إحساس فريق منهم ، وما كانت لهم أفكار تردعهم عن شق العصا بينهم وإمامهم ، وأن ينضموا حول إمامته شادين عضده ومؤيدين دولته ، داعين الله للتوفيق على طاعته ، وأن يصرف عنهم معرة الجيوش الأجنبية ، بل قام هؤلاء الأعيان المنظور اليهم فى عمان ، وهم نجاد بن موسى بن ابراهيم والقاضى أبو بكر أحمد بن عمر بن أبى جابر المنحى ، ومن معهم من حزبهم وأهل طاعتهم ، خرجوا على الإمام راشـد بن على لعزله عن الإمامة .

قال الإمام : وخرجت على الإمام الفرقة الرستاقية يريدون عزله ، ورؤساؤهم يومئذ القاضى نجاد بن موسى والقاضى أبو بكر وهو أحمد بن عمر أبى جابر المنحى ، خرجوا الى الرستاق فى ذى القعدة سنة ٤٩٦ ست وتسعين وأربعمائة فلم نجـد ذكرا لمـا كان بينهم ، قال الإمام : غير أنى وجدت تاريخا قال : فيه خرج نجاد بن موسى مغلوبا مطرودا ليلة الاثنين من سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، ولم يذكر أين كان الاجتماع للنقاش والمناظرة ، ولعله كان فى الرستاق وخرج القاضى المذكور وهـو رئيس الجماعـة القائمين ، ورجـع الى نزوى وعلى أثر خروجهم من الرستاق الى نزوى لحق بهم الإمام راشد بن على ، ولعله لما خرج القاضى مغلوبا رأى لـه الإمام حركة فتنة عليـه ، فعاجله بالقتل فإن هـذا القاضى قتل فى هذه الأثناء ، قتله الإمام راشد بن على ، قال الإمام رحمه الله وقتل أى القاضى يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ٥١٣ ثلاث عشرة وخمسمائة ، فكان بين خروجهم على الإمام وبين قتل القاضى المذكور سبعة عشر عاما ، وسبعـة أشهر وبعض الأيام ، وهـذا يدل على أن الأحوال بين الإمام راشد بن على وبين هذا الحزب الخارج توترت ومازالت تزداد توترا حتى آلت على وقوع القتل بينهم ،

وكان الإمام أمر على القاضى من يقتله فقتله أنصار المذكور ، كما يشير الى هــذه الأحوال كلامهم عنها ، وهــذا الذى نحن نلوم عليــه فان الاحتمال فى الممكن الذى يكون لــه محتمل فى الدين ، ويسع المسلمين السكوت بل فى السـكوت عنه إطفاء لثائرته وإخماد لحرارة النفوس من جهته :

وما مضى قبلك لــو بســـاعه
دعــه فليس البحث عنــه طاعه

وكان قتل القاضى الإمام فى نزوى ، فخرج الإمام من نزوى على قتل القاضى فى تلك السنة ليلة الجمعة لأربع ليال بقين من شهر شوال ، وتوفى الإمام راشد بن على بعد ذلك بيسير فى هذه السنة ، وهى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، والى الله المصير والأمر اليه ، وهــو العالم بأحــوال عباده .

قالوا إن موسى بن نجاد عاش ستا وخمسين سنة ، وما مات حتى قتل ممن قتل أباه ثمانية عشر رجلا ممن يدعى السيادة ، وكان الإمام راشــد بن على من بنى خروص ، فان هــذا الوقت وقت سيادة أئمــة بنى خروص ، فانه منذ الوارث بن كعب الى هذا الوقت لم يكن إمام بعمان إلا منهم ، إلا ما كان من إقامة عبد الملك بن حميد ، وإمامة سعيد ابن عبد الله الرحيلى رحمهم الله ، فلذلك يدعى لهم السيادة ، فان الدولة اذا حلت فى قوم رأوا أنهم هم السادة للأمة ، وكان القاضى المذكور له أتباع من نسبه ذكر منهم الإمام ولده موسى بن نجاد الذى قام بعد أبيه يأخذ ثأره ممن قتله ، ومنهم ولده كهلان بن موسى ، ومنهم ولده معمر ابن كهلان ، وكان لهم أتباع وأنصار يؤيدونهم ويقومون معهم ، وبذلك استطاع موسى بن نجاد قتل القوم الذين اشتركوا فى قتل أبيه حتى قتل منهم ثمانية عشر رجلا ، وهذه عاقبة الشقاق والافتراق ، ونعوذ بالله منه ونسأله عز وجل جمع الشمل تحت راية العدل .

وهذه رسالة بعث بها الشيخ القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى السرى رحمه الله ، الى الإمام راشــد بن على ينصحه بها ، ويشترط عليه فيها ، ويدلى بما عنده من الصراحة للإمام فيما يجب الدخــول فيه من أمــور المسلمين ، وما لا ينبغى نوردها ليؤخذ منها المغزى الذى عليه الإمام المذكور وأصحابه ، وما يجب لهم وعليهم ، قال فيها :

أما بعد : فاذا طلبتم منى الاجتماع والألفة ، وبذلتم من أنفسكم قبول النصيحة فانى راغب فى مقاربتكم وموافقتكم ، وكاره لمباعدتكم ومفارقتكم ، غير أنه لا يصلح اجتماع على غير طاعة الله ، وطاعة رسوله عليــه الصلاة والسلام ، فانه جعل فى طاعته المحبة والاجتماع والألفة ، وجعل فى معصيته العداوة والبغضاء والفرقة ، فان أردتم منى اجتماعا فى الظاهر ، فانى لا يمكننى من ذلك غير ما أنا فاعل ، وإن أردتم اتفاقاً فى الظاهر والباطن ، فحتى أرى منكم غير ما أنتم عليه والله لا يستحى من الحق .

وكأن هــذا الشيخ ينكر على الإمام ومن معه الأحوال التى هم عليها كما يدل كلامه على ذلك . قال : ولا دهان فى الدين ، ونحن غدا مسئول بعضنا عن بعض ، وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى إن تعدلوا أو تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) ، وقد أنزل الله كتابه وأرسل رسوله وأوضح دينه ، ولا جهل ولا تجاهل فى الاسلام ، وقد تقدم من المسلمين خلفاء وقضاة وأئمة وولاة ، أخبارهم شاهرة وسيرتهم معروفة ظاهرة ، فمن اتبع سبيلهم اهتدى ، ومن خالفهم ضل وغوى ، وقد قيل اتبعوا ولا تبتدعوا ، وقيل شر الأمــور محدثاتها ، وقيل كل شىء اذا ذهب منه شىء ذهب كله . قلت : هذا مبنى على أصل المذهب الصحيح أن الدين لا يتجزأ ، بل اذا ذهب بعضه ذهب كله ، ويدل عليه الحديث :

لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن • الحديث بخلاف بقية الأشياء التى لها أجزاء أو تجـوز تجزئتها ، فما بقى منها له حكمـه قطعا • قال : والمسىء مخذول والله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون •

فأول ما اشترطه عليكم أن تنصحون وتعرفون عيوبى : وأن تقبلوا نصائح المسلمين ولا تردوا الحق على من جاءكم به بعيداً كان أو قريبا ، بغيضا كان أو حبيبا ، وأن تتوبوا الى الله من جميع ذنوبكم ، وتتقوه عز وجل فى سركم وجهركم من العمل بطاعته ، وأداء لفرائضه واجتنابا لجميع محارمه ، واقتداء بالسلف الصالح من المسلمين مع الورع الصادق ، والوقوف عن كل شبهة وألا تعملوا عملا إلا بحجة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والانتهاء عنه والموالاة لله والمعاداة فيه ، ومشـورة المسلمين أهل العلم والورع فيما يعود عليكم من الأمور ، وقد قال الله تعالى : (وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله) ولا تقتدوا برأيكم ولا تعجلوا فى أموركم ، ثم حسن الرأفة بالرعية عامة ، وبأهل الصلاح خاصة والرفق بهم والعدل فيهم ، وأن يتفقد الإمام أمر رعيته وقضاته وعماله ، وإن اطلع على جور من عامل لـه أو غيره أنكر عليه ، وقام فى ذلك بما يلزمه ولا تطلبوا العلو والرفعة فى الدنيا ، ولا تستنكفوا ولا ترفعوا أنفسكم عن أدنى منازل الدين ، ولا يكون القاضى إما أن يعطى الأمر كله وإلا غضب وجذب يده ووقف عما يلزمه ، فإن من كانت هذه صفته لم يجز تفويض أمـور المسلمين اليـه ، إذ ليس ذلك من صفات المسلمين ، فإن ولى الإمام واليا على بلد بمشورة غيره من المسلمين لا يغضب ، وإن كان القاضى وال على بلد فعزله الإمام بغير رأيه لم يغضب ، ولم يقف عما يلزمه ولم يترك ما يجب عليه ، وكذلك غير هـذا من جميع الأمـور ، وأن تقتدوا بمن سبقكم من أئمـة المسلمين وقضاتهم وولاتهم ، وأن تتبعوا سبيلهم وأن تهتدوا بهداهم ، فقد قال الله تعالى : (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) ، وألا يخلف القاضى الناس لنفسه بما يحلف به الإمام ، فإن هـذا لا يعلم

أن أحــدا سبق اليه من ولاة المسلمين وقضاتهم وأن تردوا الخيل التى أخذت من الرعية •

هنا يتجلى بعض ما فى نفس هــذا الشيخ من الأمور التى ينتقدها ، فكأن هناك أشياء شـــاع معهم أمرها ، ولا ريب فإن الناس لا يخلون من الأحــوال يخالف ظاهرها باطنها وربما شاعت عليهم على غــير وجهها اللازم لها ، وربما كان لها فى الحق مخرج ، وربما كان للإمام فيها عذر ، ولكل مقام مقال • قال : ومع ردها عليهم أى الخليل لا يجبرهم القاضى على الخروج معه لغزو ولا غيره ، إلا أن يتفق للإمام الخروج بنفســه من أمر يجب عليهم الخروج معه ، ولا يكون لهم عــذر فى ذلك ، وأن تنصفوا الناس فى معاملاتكم ومداينلتكم ، فإن كان لأحــد عليكم حق فلا تمطلوه ليرضى بدون حقه تقية أو ضرورة ، أو تلجئوه الى أخــذ شىء من العروض ، حتى يأخذها بأكثر من قيمتها فى البلد ، ولا تبيعوا ولا تشتروا لأنفسكم إلا أن توكلوا فى ذلك غيركم من الرعية ، ممن هــو غير داخل فى حرمه وأمره ، ولا يعلم أن المشترى لكم ، ولا تقبلوا من الرعية الهدايا والعطايا ، وأن تمنعوا خــدمكم وأصحابكم من ذلك ، ولا تقبلوا من الناس أموالهم على وجه ، ولا ترسلوا اليهم فى ذلك إلا أن يتبرعوا هم من تلقاء أنفسهم ، أو يشير بعضهم الى بعض من غير رسالة منكم ، ولا تتحملوا الديون إلا من ضرورة فى نفقة أو كسوة أو تقووا أمر المسلمين ، ولا تبذروا أموال المسلمين ، حين يحتاجوا الى أمــوال الرعية ، وتأخذوا منهم على وجه القرض أو المداينة أو المعونة ، وتحتجوا أنكم فعلتم ذلك ضرورة أو حاجة ، فليس هــذا مما يوجد لكم عذرا فى أخــذ أموال الرعية ، وأن ترفعوا الطمع فيما لا يجب لكم على الرعية ، وأن تسووا فى الحق بين البعيد والقريب والبغيض والحبيب ، ولا تصفحوا عن أحــد وتأمنوه ثم تأخذوه وتعاقبوه بعد الصفح والأمان ، ولا تخرجوا الى النواحى والبلدان بعســكر لا تضبطونهم ولاتشدونهم عن الظلم والفساد ، ولا تلزموا الناس ما لا يلزمهم من الخروج ، بل تعذروا من

له عذر من مرض أو غيره ، ولا تفوضوا أمرا يحرج الناس الى العرفاء والجهال فيبعدوا ، وتأخذوا الرشاء منهم ، ولا تجبروا الناس على الخروج بلا زاد اتكالا على الضيافة من عند الناس ، ولا يجبروهم على الرباط بلا نفقة ، ولا تستفتحوا بلدا من بلدان أهل القبلة ، وأنتم لا تقدرون أن تتولوا عليها وتحموها وتأخذوهـا من ظالم وتسلموها الى ظالم ، وأن تبذلوا الإنصاف لأهـل السر والسنينة من حرق منازلهم وخراب أموالهم .

وهذه أيضا مما نفس الشيخ تنتقده عليهم وتتحرج منه صرح به الآن ، وكأن هناك أحداثا واقعة منهم لم نقف على تاريخها إلا ما نفهمه من كلام شيخنا هذا رحمه الله ، ولا نعلم عذر المسلمين فيها ولا مقالهم عنها ، فالله أعلم بها .

قال : وتعرفونهم عنها وأنكم أيضا تعرفون جميع النواحى التى تجرى فيها الأحداث من عسكركم وأصحابكم ، وتظهروا اليهم الإنصاف حتى يعلموا أن الحق مبذول عندكم لمن طلبه ، والباطل مردود على من فعله ، ولا تخرجوا اليهم بعسكر تفعلوا عنـده مثل ما فعل عسكركم الأول ، واذا شكت الرعية عاملا من عمالكم ، وطلبت عزلـه عنهم أن تعزلوه عنهم ولا تكلفوهم عليـه البينة ، وأن تردوا مكاتباتكم الى ما كان عليـه مكاتبات من سبقكم من المسلمين ، وأن تفوا بعهدكم ووعدكم ، وقد قال الله تعالى : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) ولا تكتبوا لأحـد رقاعا خالية فارغة ، فإن ذلك يخرج مخرج السخرية والهزل ، وقد قال تعالى : (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) ، ولا تفوضوا الى أحـد الحكم بين الناس ، ولو كان لكم وليا حتى يكون ممن يبصر الحق ، ويعرف وجه الحكم ، ولا تولوا واليا على بلد ولا على حرب ولو كان لكم وليا حتى يكون عالمـا بعدل ما تولونه عليه ، ولا تأخذوا الزكاة من الناس بالقيد والحبس على التهم ، ولا تقولوا لمن تتهمونه

بكتمان الزكاة إنـا لا نقبل منك إلا بكذا وكذا ، وهـذا كأنه حـكم ، ولا يجوز الحكم مع المسلمين بالتهمة ، وألا تبعثوا فى طلب الزكاة من الناس غير الثقاة لتوكلوهم فى تسليمها اليكم ، فإنه قيل إن هذا لا يجوز ، وألا تزيدوا على خدمكم فيما تعطونهم من أجرة خدمتهم خلاف سـعر البلد ، ولا تأخذوا اعطياتكم بغير حساب ، فإن هـذا لا يفعله صاحب دين ولا دنيا إلا ما شـاء الله ، وألا تكتبوا الى ولاتكم وأمنائكم رقاعا لا يجـوز لهم أن يعملوا بها وألا تنفوا المسلمين ولا تعاقبوهم بالتهم والظنون ، فإن العدول لا تهمه عليهم ، وإن عاقبتم أحـدا من المسلمين فعرفوه الخطأ الذى أوجب عقوبته عندكم ، وإن بلغكم عن أحـد من أهل الصلاح ما تكرهونه فلا تعجلوا فى عقوبته حتى تظهر الحجة عليه عند المسلمين ، وألا تعرضوا لأحـد فى فعل منكر تأويلا منكم أنكم لم تأمروا تصريحا لم يلزمكم فى التعريض ، بل قد قيل إن التعريض يقوم مقام الأمر الصريح ، وألا تعملوا بالآحاد من الأخبار التى لا عمل عليها عند المسلمين ، وأن تقربوا أهل الصلاح وتدنوهم من أنفسكم ، وتبعدوا أهل الجهل والسفل ، وتنزلوا كلا واحد منهم حيث أنزل نفسه ، وأن تعتذروا الى من لحقه منكم جفاء من المسلمين ، وأن ترجعوا فى العبدة التى اشتريت من عند أبى الفرج والبيت الذى اشترى من عند موسى الفرقانى الى قول المسلمين ، وما يوجب الحق فى ذلك .

وهذه النقطة الثالثة التى يعرب انتقاد الشيخ أبى عبد الله لها ، قال : وأن ترجعوا فى حكم المـال الذى يمنح الى قـول المسلمين ، ولا يستبد القاضى فيه برأيه دون المسلمين ، وألا تعرضوا من عند أبى العرب بن أبى جابر شيئا من ماله بقرض ولا معونة ولا عارية ، ولا تمنعوا ورثة ابراهيم بن عبد الله من مالهم بغير حجة ولا حكم ، فانا لا نعلم أن فى ذلك جوازا ، واذا سألكم أحـد حاجة فإما : نعم منجزة وإمـا لا مريحة — أى إما وعد صادق وإما نفى كذلك ، فإن خلف الوعد نفاق

ومطل الوعد تنغيص • قال : فإن المماطلة عند الوعد تنغيص وتنكيد ، والمماطلة مع الحرمان تخلية وهزل ، وكلا الحالين مذموم عند ذوى الدين ، وإنما يفعل ذلك من هانت عليه نفسه ودينه وعرضه ، والمعنى أن ذلك من الأخلاق المسترلة التى نهى الشارع عنها ، فلا يرضى بها إلا أهل الدنايا ، ولا يرضى بها المسلمون •

فإن قلتم : إن ذلك من خـدمكم وأصحابكم ، فلو علمـوا منكم الكراهية لم يتجرءوا على ما تكرهونه إلا ما شاء الله ، فأما اذا كانوا لا يتقربون بذلك اليكم فإن عاره وإثمه راجعان اليكم ، ولا تحرموا الفقراء والمساكين هـذا المـال ، فإن لهم فيه سهما ، ولا تقفوا فى شىء يلزمكم وتزيلوا عن أنفسكم إثم العذر فى التخلف فى العهد والوعد والتهمة بذلك ، وأن تؤمنوا من خوفتم من المسلمين ، وتردوهم الى منازلهم ، فإن قلتم قد بذلتم لهم الأمان ، فلم يثقوا بأمانكم فلا أرى هـذا يسقط به حجة عنكم ، ولا يوجب به عند المسلمين عذركم ، إذ كانوا قد عرفوا منكم الرجوع فى عهدكم ووعدكم ، بعد بذل الإمام خطة لهم بالأمان ، وخافوه أن يفعلوا منهم من بعد كما فعلتم من قبل ، وأن تبدوا الإنصاف لأهل السر فى تلك الأحداث الشاهرة ، وتفعلوا كما يوجد عن محمد بن محبوب رحمه الله أنه كتب به الى بعض الأئمـة ، وعليك اظهار الانكار فى ذلك والطلب لمن فعله حتى يعلم الناس أن من فعل ذلك فإن الحق معروف ، وأنك مؤثره على ما سواه وتظهر الدعاء الى الإنصاف حتى تبسط لطالب الحق بلسانه ، وأنا أشير عليكم فى الأحداث التى جرت فى السر وغيرها من النواحى والبلدان ، وجميع الأحـداث التى تجـرى من عساكركم وأصحابكم ورعيتكم حتى يظهر عند النـاس أنكم أنكرتم الباطل ولم ترضوا به ولم تواطئوا عليه ، ولم تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتزيلوا عن أنفسكم الأوهام الفاسدة ، فأما اذا كنتم تنادون بتخويفهم وتظهرون الغضب على من تتهمـون أنه أراد أن يكتب الى الإمام ، ويعلمه بما يجرى من الأحداث فكيف يتجاسر الضعيف والمظلوم

أن يرفعوا اليكم وينتصفوا ممن ظلمهم ، وإياكم والتقحم على الأمـــور بغير حجة ولا برهان ، وإياكم وسوء التأويل فإنه روى عن النبى صلى الله عليـــه وسلم أنه قال : أخوف ما أخافه على أمتى ثلاثا : ذلة العلماء ، وحيل الحكماء ، وســوء التــأويل • فانظروا لانفسكم وســلوا المسلمين عما يجب عليكم ويلزمكم اتباع كتاب ربكم وسنة نبيكم ، وآثار الصالحين قبلكم ، ولا تميلوا بالناس يمينا وشمالا ، واحذروا يوما حذركم الله إياه فقال فى محكم كتابه : (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) •

وأنا استغفر الله مما خالفت فيه الحق والصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما •

والإمام أراه ضعيف المعرفة قليل العلم والبصيرة ، ولا أرى له أن يولى واليا ولا ينصب قاضيا ولا ينفق من مال المسلمين الى أحــد من الناس ، ولا يفعل شيئا من هذه الأمور الا بمشورة المسلمين أهل العلم والورع ، ممن يكون له حجة فى ذلك ، وليس كل المسلمين يكون حجة فى هذا ، وإنما الحجة هو الفقيه ، وهو الذى يجتمع له حالان : العلم والورع ، فإن فعل شيئا من هذه الأمــور ببصر نفسه أو بمشــورة من لا يكون حجــة له فى ذلك ، فإنى أخاف ألا يجوز له ولا يسعه ولا يجوز لمن دخل معه فى ذلك ولا يسعه ، وإن كان الإمام ضعيف المعرفــة قليل العلم والبصيرة لا يعرف المشورة ، ولا يهتدى لها ولا يعقلها فأخاف ألا يثبت له عقد ولا يجــوز للمسلمين أن يجعلوه إماما ، ولو كان لهم وليا وسلوا المسلمين عن ذلك ، ولا تأخذوا منه إلا ما وافق الحق الصواب ، وأنا أستغفر الله من كل خطأ كان منى فى هــذا الكتاب وغيره ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا •

انتهى كلام الشيخ أبى عبد الله محمد بن عيسى رحمه الله ، ويستفاد

من كتابه وقوع أحداث من الإمام وجيشه وأعوانه ، كما نص عليها الشيخ وكأنها واقعة لا محالة ، وما وقع من الجيش فهو من جملة ما يعد على إمامه إلا ما خرج منه بحجة صحيحة ، وكان الإمام كما يقول الشيخ السرى أنه قليل العلم ضعيف المعرفة ، ولعلهم لم يروا غيره أصلح منه إذ ذاك ولكل زمان رجال ، ولكل إمام أعمال ، ولعله له عذرا وأنت تلومه ، فهذا الكلام ظاهره مسوق الى الإمام من هـذا الشيخ احتجاجا عليه ، ولم نعرف عذر الإمام فيه ولا عذر أصحابه الموجه اليهم فيه الخطاب ، ولابد لهم من جواب ، ولابد إما أن يكون حقا أو صوابا لهم فيه العذر أولا ، ولعل توبة الإمام الآتى ذكرها كانت لأجل هـذه الأحداث التى ذكرها هذا الشيخ الزاهد الرضى رحمه الله وجزاه عن الاسلام خيراً ، وهو الواضح فانهم حرورها على رأى الشيخ أبى على الحسن بن أحمد ابن نصر الهجارى ، قرر فيها ما يجب على الإمام أن يتوب منه وأن ينشر توبته منه للاطلاع عليها من أهل العلم الذين فى نفوسهم اشمئزاز من وقوع ما وقع ، وأرادوا بذلك إظهار الإمام بالدينونة فيما يلزمه أن يدين لله فيه عند المسلمين ، فإنه ابتلى بأمور المسلمين ، ولما ابتلى بقى فى حيرة من الأمر الذى دخل فيه بغير علم ، والإمامة أمرها عظيم وخطبها جسيم ، وللمسلمين أن يقدوا المفضول اذا تحققت المصلحة فى تقديمه ، كتقديمهم للإمام عزان بن قيس رحمه الله ، مع أن المقدمين له كلهم أعلم منه ، إلا أن أحوالا أخرى أهلته للتقديم ، وأجلته للمقام الكريم ، وكذلك تقديمهم للإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصى فى عصرنا ، فإن فى الجماعة من هـو أعلم منه ، ولكن لكل مقال ، ولكل زمان رجال ، وكل يصلح لشىء لا يصح له غيره ، والمسلمون مكلفون بالقيام بأمور الدين ابتلاء من الله الذى يعلم المفسد من المصلح والله ولى التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم : توبة الإمام راشد بن على ، عمل القاضى أبى على الحسن بن أحمد بن نصر الهجارى ، أى رتبها لـه على هـذا الوضع لينشرها بين المسلمين ، معترفا بما جاء فيها من اعتراف ، وإذعان

وخضوع وانقياد للمسلمين بحسب ما جاء فيها من الأقوال ، والرجوع المطلوب من الإمام على أثر تلك القضايا التى وقعت ، وعدت على الإمام ، والحقيقة ليست التوبة عمـلا صناعيا ولا قولا مسطورا ، بل هى رجوع قلبى وخضوع إذنى ، واعتراف نفسى يتجلى على لسـان التائب نطقا ، وعلى هيئته صفة وعلى جميع جوارحه خضوعا وانقيادا لله وللمسلمين ، الى ما يعدونه عليـه مخالفا للحق ، ومباينا لمذهب المسلمين ، وهذه التوبة التى يصنعها هـذا الشيخ أبو على الحسن بن أحمد لإمامه راشد بن على ليقبل المسلمون منه ، وأن يرفضوا الحرج عليـه ويكون عندهم بالمنزلة المرضية المقبولة فى دين المسلمين ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب لـه ، والمعترف بما عليه تنصلا لا يطالب بضده فى الحكم ولكل حالة حكمها ولكل قضية مقامها .

وهذا نص التوبة المشـار اليها يقول فيها بعد البسملة والحمد له :

أنا أستغفر الله وتائب اليه من جميع ذنوبى كلها قليلها وكثيرها ، صغيرها وكبيرها ، ظاهرها وباطنها ، ما علمت منها وما لم أعلم ، كان ذلك منى على العـلم أو الجهـل أو الخطأ أو النسيان ، أو التدين أو الاستحلال ، أو التحريم ، كنت متأولا فيه أو دائنا به بلسانى ، أو اعتقدته بقلبى ، وتائب الى الله تعالى من السيرة التى سرتها بغير العدل مخالفة للحق ، ومن كل خطأ منى فى إلزام أهل النواحى الخروج منها ، ومن ترك النكير على نجاد بن موسى بعد علمى بسيرته ، ونجاد هـذا هو الذى قتله هـذا الإمام ، وكأنه وقع منه أمـر أنكره المسلمون ، استوجب به القتل فقتل كما سبق ذكره ، وكأنه أى القاضى المذكور سار سيرة غير مرضية ، ولكن لم يبين الإمام حقيقتها ، وكان يتولاه فندم على ولايته ، وتاب منها ، وكان ولاه الأمور وهو يرى أحداثه ، وهذا الشيخ الذى عمل هذه التوبة للإمام معه على أحداث نجاد بن موسى ، وهذه الأمـور هى التى أنكرها الشيخ محمد بن عيسى السرى فى كتابه

المتقدم ، قال الإمام فى توبته : ومن ترك النكير على نجاد بن موسى بعد علمى بالسيرة التى سارها مخالفة للحق والعدل ، ومن ولايتى له على ذلك وتوليتى إياه بعد علمى بأحداثه وفعله ، ومن الجبايات التى أمرت بهـا وجبيت بغير حق ، وأنفقت فى غير أهلها ومستحقيها ومن العقوبات التى عاقبت بها بغير الحق ، وتعديت فيها غير الواجب ، أو أمرت بذلك من فعله ومن إخلافى لكل وعـد ولم أوف به ، ورجعت عنه ، ومن كل عهد عاهدته ثم نقضته ، ومن تقصيرى عن القيام بما يلزمنى من الحق والعدل ، ودائن لله تعالى بما لزمنى فى الأحداث التى أحدثت فى القرى على أهل القبلة من الخراب والحرق ، وأخـذ الأموال وعقر الدواب والأحداث فى تخريبها وما جرى من العساكر التى أخرجتها ومن كل حرب حاربتها ، وسفكت الدماء فيها بأمرى وملزم نفسى بذلك ، ومـا لزمنى من حق وضمان ودية وأرش وغير ذلك ، فأنا دائن لله بالخروج منه ، وقابل قول المسلمين ، وراجع الى قولهم ، وقابل نصيحتهم ، نادم على ما سلف منى فى نفى أحد من المسلمين ، أو عقوبته بغيره يلزمه ، ومعتقد أنى لا أرجع الى ذنب ، وإن علمت بذنب بعد هذه التوبة فهو داخل فى هذه التوبة ، وهذه التوبة لازمة لى الى الممات ومن كل تولية وال وليته ، ولم يكن أن أوليه ، شهد الله وكفى به شهيدا ومن حضر من المسلمين .

وكانت هذه التوبة من الإمام راشد بن على بحضرة القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى السرى رحمه الله ، والقاضى أبى على الحسن بن أحمـد بن نصر الهجارى ، والشيخ أبى بكر بن عمر بن أبى جابر ، وأخيه أبى جابر محمد بن عمرو بن أبى جابر ، وعلى بن داود ، وعبد الله ابن اسحاق المنقالى وغيرهم من المسلمين ، وكانت هذه الشهادة يوم الاثنين لإحدى عشر ليلة خلت من شهر ربيـع الآخر سنة ٤٧٢ اثنتين وسبعين وأربعمائة .

هذا تمام هذه التوبة المحررة باسم الإمام راشد بن على المنشورة

بين أهل العلم من أهل زمانه ، وهى ثمرة ذلك الكتاب الذى حررة ذلك الشيخ السرى رحمه الله وهى جامعة لكل ما يتعلق بأمور الدنيا والدين ، وعسى أن يكون مقتضاها من الإمام المدعو لها من صميم القلب وخالص الإيمـــان ، والله يتولى من عباده الصالحين ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب لـــه .

ولم نجد للإمام اعترافا بذنب خاص وتوبته تتناول كل ما يلزم ، والله الموفق للخير وحده ، وقد عرفت ما نحد به الشيخ السرى محمد بن عيسى على الإمام ، الله فى خلقه ضنائن والحمـــد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

ولمـــا بلغت هذه التوبة الى الشيخ المذكور ، وعرف مقتضاها ، أجاب الإمام بقوله فيها إذ سأله الإمام عن ذلك قال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى رحمه الله ، الى الإمام راشد بن على ، فيما سأله عنه من هذه التوبة ، وما رد عليه فيها ، سألت عن التوبة التى دعاك الجماعة اليها والى الكتاب الذى كتبوه لك فيها ، فاعلم أنى نظرت فى ذلك على قدر ضعفى وقلة بصيرتى ، فرأيت الكتاب يشتمل على معان كثيرة يطول شرحها ، غير أنى أذكر لك من ذلك ما يسر الله ، والله أسأله التوفيق لذلك ، أما توبتك من السيرة التى سرتها بغير العدل مخالفة للحق ، فإن كان ذلك قد جرى منك على الاستحلال والتصويب لنفسك ، فـــلا أرى هـــذه التوبة تكفيـــك ولا تصح لك ، ولا يقبلها المسلمون منك حتى تفسر ذلك تفسيرا غـــير هـــذا ، وتتوب منه بعينه على التفســـير ، وإن كان منك على التحريم والتعمد لمخالفة الحق عنـــد فعلك فما كان فيها من تلف نفس أو مال ، فعليك الضمان والخلاص من حقوق العباد فى الأموال مع التوبة ، إن كان ذلك منك جهلا بحرمته ، وظنا منك أنه واسع لك من غير تعمد للحرام ،

ولا قصدا منك لمخالفة الحق والاستحلال لذلك بديانة وتأويل ، فقد يوجد مثل هذا يخرج مخرج التحريم ، وقد تقدم القول فى المحرم ، وما يلزمه فى الأموال والأنفس والخلاص من ذلك ، وأما توبتك من الجبايات التى أمرت بها وجبيت بغير الحق ، وأنفقت على غير أهلها ومستحقيها ، فالأمر فيه على نحــو ما تقدم من الكلام فى المحرم والمستحل ، فإن كان ذلك على وجــه الاستحلال لمـــا حرم الله فلا أراك تكتفى بهذه التوبة ، ولا يصح ذلك حتى تفسر تفسيرا غير هذا ، وتتوب منه بعينه على التفسير ، وإن كان منك على وجــه التحريم ، فقد تقدم الكلام فى المحرم ، وعليك الخلاص من جميع ما أتلفته من الأموال والأنفس ، وإن كان ذلك على وجــه العمى والظن أنه واسع لك ، فقد تقدم القول فى ذلك أنه يخرج مخرج التحريم ، وأما توبتك من العقوبات التى عاقبت بها بغير الحق ، فانها تجرى مجرى ما تقدم من القول به والجــواب واحــد ، وأمـــا توبتك من كل حرب حاربتها ، وسفكت الدماء فيها بأمرك فإن كنت حاربت حربا بعد حرب منها ما هــو بالحق وما هــو بالباطل ، فتبت من جميع ذلك فلا يجــوز لك أن تتوب من الحق ، وعليك التوبة من توبتك من الحق ، وعليك التوبة أيضا من الحرب التى حاربتها بالباطل ، وإن كان على الاستحلال فقد تقدم الكلام فى المستحل ، وإن كان على التحريم فقد تقدم الكلام أيضا فى المحرم وما يلزم فى ذلك من الضمان فى الأموال والأنفس ، وإن كنت مخطئا فى جميع محاربتك من أول الأمر الى آخره فقد أصبت فى التوبة منها ، وأما الضمان فهو على ما تقدم فيـــه الكلام من المستحل والمحرم وأما توبتك من ولايتك لصاحبك ، فإن كنت علمت منه حالا تحرم به ولايته عليك أو توليته على أول وجــه لا يجــوز لك أن تتولاه عليه ، فقد أصبت من توبتك فى ولايته ، وإن كنت توليته من أول وجــه يجــوز لك ولايته عليه ولم تعلم عنه حدثا مكفرا ، فقــد

أخطأت فى توبتك من ولايته بغير حجة ، وعليك أن تتوب من توبتك من ولايته ، وإن كان قد صح عندك عليه حدث مكفر بشهرة لا دافع لها أو شهادة عدلين مع تفسير الحدث ، أو شهادة عالمين بالحدث بتفسير أو بغير تفسير ، أو شاهدت أنت منه حدثا مكفرا ، أو أقر عندك بذلك وتوليته من بعد ، فقد أصبت فى توبتك من ولايته على هذا الوجه ، ولكن استتبه من ذلك فإن تاب وكان مستحلا ، فقد قيل إنه يرجع الى حالته الأولى من الولاية ولا نعلم فى ذلك اختلافا ، وإن كان محرما ففى أكثر القول أن يرجع الى ولايته الأولى ، وقيل فيه قول آخر ولا أرى لك أن تهمل أمره ، ولا أن تترك استتابته ، ولا الإنكار عليه اذا قدرت على ذلك ، فإن لم تفعل ولم تستتبه فأخاف أن تكون أتيت خلاف ما عليه أهل الحق والعدل من المسلمين ، وأما توبتك من تولتك إياه بعد علمك فى أحداثه وفعله ، فإن كنت علمت منه حدثا مكفرا ووليته على ذلك الرعية فجار عليهم فى أنفسهم وأموالهم ، وأنت محرم لذلك فأخاف عليك ضمان ذلك فى أحداثه ، إن أتلف شيئا من أموال الناس وأنفسهم ، وإن كنت مستحلا لذلك فقد تقدم من الكلام فى المستحل والمحرم والجاهل ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى ، وأما قولك وملزم نفسك مالزم للعباد من حق وضمان ودية وأرش ، وأنك دائن بالخلاص منه فهذا هو الصواب ، اذا صدقته بفعل وقيل لخلاص نفسك لحقوق الله وحقوق العباد ، وأما القول وحده بلا فعل ولا قيام ولا اجتهاد فى خلاص النفس ، فما النفع فى ذلك فقد قيل لا ينفع التكلم بالحق إلا بإنفاذه ، وقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولون مالا تفعلون) وإن كنت محقا فى هذه الفصول كلها والمعانى التى دعاك الجماعة الى التوبة منها ، ولم يكن منك خطأ فى الظاهر ، ولا فى الباطن فتبت من الحق ليرضوا عنك ، فلم يكن لهم أن يدعوك الى التوبة من

الحق ، ولا كل أن تجيبهم الى أن تتوب من الحق ، فاذا فعلتم ذلك جميعا كان ذلك عليك وعليهم التوبة ، ولو أن الجماعة عند استتابتهم لك سلكوا بك مسلكا غير هـذا الذى حملوك وحملوا أنفسهم عليه ، ربما كان أسلم لك ولهم وأخف وأسهل عليك وعليهم ، ولا مخافتى لا يسعنى السكوت ولا التغافل عن جوابك ، فيما سألتنى عنه لم أذكر لك شيئا من هـذا ، ولكنك سألتنى عما يلزمك فى تلك التوبة ، فاستصعبت الإمساك عن رد جوابك ، فقد ذكرت لك ما قد ذكرته على قدر ضعفى وقلة بصيرتى ، فإن كان حقا فهو من الله فخـذ به ، وإن كان فيه مخالفة للحق فـلا تأخـذ به ، وأنا أستغفر الله من كل من خالفت فيـه الحق والصواب ، وصلى الله على رسوله محمد النبى وآله وسلم تسليما .

انتهى كلام القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى السرى رحمه الله تعالى ولم نجد جوابا لكلامه ، وما ندرى ماذا كان بعد هـذه النصائح البليغة الصادرة عن الصدق الإخلاص ، غير أنى وجدت أنه قتل رحمه الله فى نزوى فى موضع على طريق مساجد العباد ، غربى المقبرة الكبيرة تمر على حضيرة غلافقة ، ولم يسموا قاتله ولم يؤرخ وقت ذلك ، وهذا دأب الأمة هذا داع للحق صادع به وهذا مضاد له معاد لأهله ، لا يبالى بما يلاقى . وإن قتل العلماء عند الله عز وجل عظيم ، يهدم كيان الدين ولكن الحظوظ الإلهية لا تفوت أهلها مهما كانوا وأفضل موته بموتها العبد الصالح القتل فى طاعة الله عز وجل ، فإن للشهيد منزلة يغبطه عليها حتى النبيون عليهم الصلاة والسلام ، نسأل الله الفوز بأعلى المنازل عند الله والتوفيق لمـا يحبه الله ويرضاه .

إمامة الإمام عامر بن راشد بن الوليد الخروصى رحمه الله

كان هذا الإمام عامر بن راشـــد من أفاضل الأئمة ومن أخيار الأمة لكن لضياع التاريخ العمانى الذى طال ما تكلمنا عنه فى هــذا التاريخ ، وطال ما ضاعت منه حقائق يأسف عليها العاقل ، ويرثى اللبيب لهـــا ، ضاعت عنا مهام هــذا التاريخ ، فإن التاريخ كما قلنا عنه حافظ أعمال الأمة صالحها ، وطالحها ، وديوان جامع لمـــا مضت به الأجيال ، وما وقعت فيها من أعمال •

قال الإمام : عقدت له الإمامة سنة ٧٤٦ ست وسبعين وأربعمائة • قلت : هذا الوقت هو وقت إمامة راشد بن على المتقدم ، وقــد توفى سنة ٥١٣ ، اللهم إلا أن يكون الغلط فى تاريخ بيعة الإمام راشد بن على أو بيعة الإمام حفص بن راشد ، فإن والده راشد بن سعيد رحمه الله توفى سنة ٤٤٥ ، وبويع ولده حفص بن راشد بعده ، وعند بعض أهل التاريخ أن حفص بن راشد لم يطل عهد إمامته ، بل هو عند بعضهم عاش فى الإمامة فقط سنة واحدة ، لكنه لم يظهر له تحقيق •

قال الإمام نقلا عن المؤرخ لهذا الإمام : كان رجلا عالمـــا زاهدا ذا ذكاء وفطنة محسنا فى الرعية ، قال : وكان إماما شاريا ، قال : وهـــو آخر الأئمة الشراة من بنى خروص ، قال : فاستقام على الحق حتى توفاه الله رحمة الله عليـــه •

قال الامام رحمه الله : وأنت تدرى أن هذا الوقت الذى ذكر فيه بيعته هو وقت إمامة راشد بن على بعينه ، فإن صح ما ذكر فكأنه إنما بويع فى وقت إمامة راشد ، فإن الناس قد اختلفوا على راشد على حسب

ما تقدم ، وفى هـذا التاريخ اضطراب ، ولعل هذا الإمام من أئمة الطائفة الرستاقية ، فان كان كذلك فربما صح التاريخ والله أعلم .

ولما كان النباهنة ظهروا على ملك عمان فى أول القرن السادس للهجرة ، وكان الإمام الخليل بن عبد الله قام والنبهانية قائمة السيطرة وقاتلها وقاتلته ، وتولى بعض ملك عمان كنزوى ونخل والرستاق والباطنة ، وما بقى من ملك عمان ، بقى فى أيدى النباهنة ، دل ذلك على أن هؤلاء الأئمة الثلاثة قاموا فى أول قيام دولة النباهنة ، وإن قيل إن الإمام محمد بن غسان كان أكثر حربه الحسا ، وأرض نجد ، فلعل النباهنة كانوا يستجيشون أهل الحسا ، وأهل نجد ، وكانوا يتحيزون اليها عندما يجدون صراعا عنيفا وغلبة من الإمامة ، لا سيما أن ذلك فى بادىء الأمر ، فالذى ينبغى أن يعول عليه أن عامر بن راشد بن الوليد ، ومحمد ابن غسان بن عبد الله ، والخليل بن عبد الله ثلاثتهم ناموا فى صدر الدولة النبهانية فى أول القرن السادس ، فان النباهنة برزت سيطرتهم فى عمان بعد مضى النصف الأول من نفس القرن المذكور .

وسيأتى إن شاء الله تحقيق ذلك قريبا عند الكلام على تلك الدولة التى عبرنا عنها فى العنوان بالدولة الرابعة من دول عمان ، وذكرنا ما قيل فى أول نشأتها على سبيل الإجمال ، وكان الإمام عامر بن راشد آخر من بويع بالشرى فى عمان .

إمامة الإمام محمد بن غسان بن عبد الله الخروصى

من أفاضل المسلمين هذا الإمام الرضى محمد بن غسان بن عبد الله ، ولعله من ذرية الإمام غسان بن عبد الله ، الذى قام عقب الإمام الوارث ابن كعب رحمهم الله تعالى ، وانها ذرية طيبة ، وكان هذا الإمام أيضا من الأئمة المجهولة تواريخهم ، ووقت إمامتهم ، فان كانوا من أئمة الطائفة الرستاقية فالله أعلم بأحوالهم ، فانهم لم يذكروا من بايعه من المشايخ ، ولا وقت بيعته ولا مكان إقامته ، ولا يمكن مثل هذا أن يختفى إلا أن الدهر الذى مر على العمانيين فى ذلك العهد كله اضطراب •

وسبب ذلك الاضطراب موسى بن موسى ومن معه ومن شايعهم ومن الغلاة فيهم ، ومن الدعاة ضدهم ، وكان ذلك داعية تفرق للكلمة بين المسلمين ، ووضع شقاق فى الدين ، وأهل العلم اذا لم يقصدوا بالأمر لله وحده سرعان ما يكون فيه اضطراب ، وخبط الأمور على غير هدى من الله •

قال الإمام رحمه الله : كان إمام دفاع فأرادوه أن يكون شاريا ، فخاف ألا يطبق الشرى خوفا من خلفاء بنى العباس أو قال خوفا من خلفاء بغداد ، لأنهم طالما جهزوا الجيوش على عمان ، وطالما هاجمها جنودهم فيستمر الصراع عهدا ، فتارة يغلبون على العمانيين فيقبضون على دولتهم ، وتارة يستغلبون فينهزمون الى بغدادهم ، كما عرفت ذلك مما مر عليك فى تاريخنا هذا ، والحرب لاتزال سجالا طيلة الدهر الخئون ، وأهل عمان ، إمامتهم رحمه للأمة ، لكن رحمة الله لا تدوم إلا ريثما تمر على الأمة لإقامة الحجة عليهم ، وهذا الإمام محمد بن غسان من خيرة الرجال فى عمان ، لكن كأنه لم يمتد له عهد فى الإمامة ، أو لم تكن له حروب يسجلها التاريخ فى الأمة •

قال الإمام رحمه الله : وكان رجلا عالما بليغا زاهدا ذا حلم ورأفه للرعية ، غيورا على الممالك ، قال : وكان أكثر حربه الحسا وأرض نجد .

قلت : لعل نهدا وعقيلا عادوا على ما كانوا عليه أيام الإمامين السابقين للذين عاصرهما الإمام الحضرمى ، أو أن بغاة نجد وأجلافهم كما عهد منهم النهب والعيث فى الأرض فسادا ، والحسا هى دار بغى فى السابق ، فكان فيها القرامطة من شر البرية ، وفيها الخوارج الذين لا يبالون بالواجبات فى الدين .

قال : وكان فى إمامته عادلا لم يعب عليه شىء ولا عابه أحد فى زمانه ، ولا طعن عليه فى شىء من أحكامه حتى توفى رحمة الله عليه . قال : وكانت إمامته تسع سنين إلا خمسة أشهر .

قلت : إن تسع سنين لها شأن وقدر ، ولها تأثير فى الإمامة ، وإن كانت أيام السرور قصارا ، فان إمامة تستمر هذا العهد لابد أن يكون لها ذكر جلى فى العالم العمانى على الأقل .

قال الإمام : ومن خصاله أى من خصال الإمام محمد بن غسان الحميدة وأفعاله الغريبة ، أن كل أحد أراده بسوء وعزم على حربه مخاصمته ، ووصل هذا الإمام فى ساحته ، يسلم المخاصم له الأمر من غير قتال . وكان ذلك كرامة له رحمه الله ، ولعله لإخلاصه لله فى حله وترحاله ، ومن كان مع الله كان الله معه ، وسهل الله له كل صعب ، وييسر له كل عسير ، وليتنا وجدنا تحقيق تاريخ هذا الإمام الميمون وأعماله ورجال دولته ، حتى تفيد الأمة عنه ، فلله در التاريخ ولله در رجاله الأجلاء الحافظين لمآثر الأئمة المخلصين ، والملوك العادلين ، والمتغطرسين الذين لا يعتبرون الأمة إلا قطعان غنم أو عبيدا مماليك ، يتصرفون فيهم كما يشاءون .

ومن مزايا التاريخ إن تركنا نأسف على ضياع كثير من المآثر الاسلامية السامية ، ونعض عليها أصابع الندم ، ونبذل فى إدراكها ما عز علينا ، فان وجدناها طابت أنفسنا وانشرحت لها صدورنا ، وإلا تولى الأسف علينا ، والأمر لله من قبل ومن بعد ، لقد أجمع العلماء على فضل التاريخ وأشار إليه من قال :

تلك آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا الى الآثار

فالتاريخ جماع الآثار كلها ، وسجل الحوادث فى الأمة ، واليه ينظر الناظر فى الآثار ، وبه يكون الاعتبار بعد انتهاء أدوار أمته وانقراض دولهم ، والله حض الى الاعتبار بماضى الدهر وحوادثه ذوى الأبصار ، وأساطين الأفكار من الرجال فى عموم الأدوار .

إمامة الإمام الخليل بن عبد الله بن عمر الخليلى

وهـــذا نســـبه

الخليل بن عبد الله بن عمر بن محمد بن الخليل بن شاذان بن الصلت ابن مالك بن أبى العرب ، لا يخفى على المطلع أن أشرف بيت فى آل اليحمد بن حمى بيت آل الخليل بن شاذان بن الصلت ، إذ توالى الفضل فيه الى وقتنا هــذا ، وكان هذا الإمام الجليل من ذرية الإمام الخليل ابن شاذان بن الصلت ، كما صح نسبه ، كان ثالث الأئمــة المجهولة تواريخهم وبيعتهم وأمكنتهم وحروبهم ، وأكثر أعمالهم ، وذلك لإهمال التاريخ ، وكان هــذا الإمام من أئمة الطائفة النزوانية ، وقد بويع فى أول وقت بدأت فيه روح الدولة النبهانية فى عمان ، تجسس جسمها وترمز اسمها ، وتعلن عهدها الذى تتوقع ظهورها فيه فى هــذا القرن الذى أراح الله فيـــه عمان من حروب بغداد .

وكانت بيعته فى نزوى ، ولم نعرف من بايعه ولا من شايعه ، وإنما وجدنا أنه قاتل النباهنة فى نزوى ، واستولى عليها وقهر الرستاق ، ونخل وجميع أقطار الباطنة ، وكأنه قامت له قوة خافها بنو نبهان أنتقضى عليهم ، فاستجاشوا الجبور وبنى هلال ، قال : ولم يزل يقاتلهم فى كل أرض ، فكأن القتال استمر بينه وإياهم ، والظاهر أن شرق عمان ووادى سمائل كان مع النباهنة ، والرستاق والباطنة مع الإمام ، وكأن الأيام مازالت بينهم فى تداول لقوله ، ولم يزل يقاتلهم فى كل أرض .

قال ولم يعب عليه فى إمامته أحد حتى توفى رحمه الله عليه مستقيما على طريق الحق ولا يخفى أن جيوش بغداد لم تكن لها فى هــذا العهد عمل فى عمان ، ذلك لأن الدولة العباسية قد انهارت صروحها منذ أول القرن الخامس ، ولكن بقى لها اسم فقط ، ثم انتهى أمرها اسما ومعنى ،

وقوضت بتمام القرن السادس وبالنصف الأول من القرن السابع ، انمحت آثارها تماما فلذلك لا ترى لها أثرا فى عمان ، ولكل شىء غاية ينتهى اليها ، وكل شىء مرتهن بوقته والأمر لله فلذلك لا ترى لها هنا بعد ذلك ذكرا بعد ما كانت تعانى عمان منها النصب ، وترى منها البلاء الماحق والوبال الساحق ، بطرا وعدوانا بغير حق ، كما عرفته مما تقدم ، والأمر لله •

ولكن قام هنا دوربنى نبهان وهم إذ ذاك ملوك عمان والملك لله يؤتيه من يشاء وسبيل بنى نبهان كغيرهم من الملوك ، وبدأ أمر القوم فى عهد هــذا الإمام الخليل ، ولكن لم يتم لهم أمر الملك حتى منتصف القرن السادس ، واستمروا إذ ذاك حتى قامت دولة اليعاربة فى أول القرن الحادى عشر ، وهم فرع من النباهنة المشار اليهم ، كما سوف تقف على ذلك أيها القارىء فانه ستأتى بعد هذا الإمام أربعة أئمــة ، ثم انتقلت الدولة الى بنى نبهان كليا ، ذلك لأن أهل عمان هنا تحزبوا فصاروا حزبين : رستاقية ونزوانية ، وظلت كل فرقة تنصب أئمتها لقتال الأخرى ، وجعلوا بأسهم بينهم ، فسلط الله عليهم النباهنة عقوبة لهم على ذلك ولله فى خلقه أسرار •

إمامة محمد بن أبى غســان

وهو من أئمة الطائفة الرستاقيه كما أشرنا الى هــذا والأشبه أن يكون خروصيا ، وأن يكون ابن الإمام راشد بن سعيد الذى كناه الإمام أبو اسحاق الحضرمي بأبى غسان فى شعره كمــا عرفت ذلك ، وكانت إمامته وقت إمامة راشد بن على الذى سبق ذكره ، وقد عرف التنافس إذ ذاك بين الطائفتين وهو الذى سبب ضعف أمور المسلمين وقيام الجبابرة عليهم ، واغتصابهم للأمر رغم أهل الحق منهم فان الباطل يجــد أنصارا والحق قد لا يجدهم إلا فى أوقات خاصة تمر على الناس مرور الشمس على العالم ، ثم يعود الظلام أدراجه .

وكان إذ ذاك بالباطنة أخيار أيدوا محمد بن أبى غسان تأييدا شاهرا على أضداده ، وكان هذا الإمام كاتبهم وراسلهم واستعان بهم وفى جوابهم له ما يدل على ما نقول ، وقد روى الإمام السالمى كتابه لهم وجوابهم له فى تحفة الأعيان ، وأنه كان كتابا حافلا نثرا ونظما ، اكتفى الإمام المذكور بذكر النظم عن النثر ، ولمــا فيه من العذوبة ولطف الذوق الحسى ، وما له من فصاحة رائعة نعرض نحن عن الكل إذ كان ذلك قــد عرف ودرس ، وأخذه أهل الأدب ، وقد مدحه أهل الباطنة مدحا رائقا وأثنوا عليه ثناء فائقا ، واليك جملة واحدة من ذلك تستدل بها على ما هناك .

يقولون فيه : الــذى خلص عند النقــد والتمييز خلوص الذهب الإبريز ، ثم استرسلوا فيه الى حد بعيد حتى ألحقوه بخيرة الأئمة ، وعبروا عن خالص رضاهم عنه وكان وزيره وسيف دولته الهمام أبو المعالى نجاد بن موسى بن نجاد . وكان من أركان دولته الشيخ أحمد بن عبد الله ابن موسى المعروف .

الإمام محمد بن أبى غسان يشن حربا على أهل عقر نزوى

لقد نفر عنه أهل نزوى وخصوصا أهل العقر ، إذ هم فى ذلك المهد حجة أهل نزوى ، وخالفوه لأنهم يقدحون فى إمامته بسبب الافتراق الذى أشرنا اليه ، فلم تزل الحرب قائمة بينه وإياهم ، حتى أمر بقطع نخيلهم وكسر أنهارهم ، ودمر كل ما قدر عليه من أملاكهم ، وقامت معرة الجيش تعيث فى الأرض ، وذلك هو شأن الجيوش فى كل أمة غالبا إلا ما شاء الله •

وكان أهل العقر ينتقدون أعمال هذا الإمام قبل الحرب ، ولعلها هى التى أهاجته على حربهم ، وحملته على خضد شوكتهم ، فكانت الحرب أضر على القوم مما كانوا ينتقدون ، ولكن أمر الله عز وجل سابق فى أزله ، وهناك حوار ونقاش فى إمامة المذكور بين من يرى صحة إمامته ، وبين من يعاكس الوضع ، وهذا كله من مكائد الشيطان بين أهل الإيمان فى بلد واحد ، وعلى مذهب واحد ، والأمر لله من قبل ومن بعد •

وقد تركنا ما قيل فى مدح هذا الإمام والثناء عليه ، إذ حفظ ذلك كله أثر المسلمين ، وكان محمد بن غسان المذكور انتصر على أهل نزوى ، ولم أجـد تحقيقا لوقت بيعته بالذات أو وقت وفاته ، وهل قتل أم مات حتف أنفه ، ولكنه على الإجمال هو من أئمة القرن السادس •

الملك محمد بن مالك

من المفهوم من استقراء التاريخ أن محمد بن مالك ، قام على ملك عمان بعد محمد بن أبى غسان ، وتولى ملك عمان ، ومن المحتمل أن هذا الملك كان من الأزد إلا أنه لا يعرف من أى بطون الأزد لعدم التواريخ التى يمكن الاعتماد عليها ، إلا أن الأحوال ظاهرة على أنه أزدى ، لأن أعوانه غالبا من الأزد ، وكان ملكا عادلا حسن الأخلاق ، عاقلا ذا أناة وتؤدة وعقل واعى وبصيرة تتصل بالأعلاق النائية ، وتمتد الى الأعماق البعيدة ، وكان الملك المذكور قائما بواجبات الشريعة ولا يلزم فى الإمامة نفس العقد ، اذا قام الأمـير بحقوق الله وأجرى الشرع فى مجاريه ، وحمل الناس على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأدى ما لزم من حق الله عز وجل ، وحمى البلاد وحفظ بيضة المسلمين ، ولم يتعد حقوق المسلمين ، ولا ترك أوامر الدين ، فان المطلوب من الإمام هو هذا لا غير .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يعقد عليه الإمامة ولا قام بالبيعة له أحدا أبدا ، إنما عهد اليه بالخلافة أبو بكر رضى الله عنه ، ورضى به المسلمون خليفة ، ومحمد بن مالك لـما قام بالعدل ، كان من الواجب تأييده فان المعتمـد على الأعمال لا على الألقاب ، فان لقب الإمام أو الخليفة أو السلطان ونحو ذلك لا معول عليه فى جانب الحق ، إنمـا المعول على الأعمال الصالحة ، ولكن اذا أراد الله امرأ أنفذه وإن رغم أنف الدهر ، وحب الذات والاستبداد هما اللذان يوقعان الفرقة والشتات ، ويفرقان الجماعات ، وإلا فكيف يرفض رجل قام بحق ، ودعا الى حق ، ليس هـذا من الدين فى شىء ، وهل الإمام إلا ملك وإلا سلطان ، وهل السلطان إلا إمام من حيث المعنى .

وعلى أثر قيام هذا الملك واستيلائه على الملك قام المنافسون لـــه فبايعوا موسى بن أبى المعالى بن نجاد بن موسى ، ولم يعرف نسبه من أى القبائل إلا أن الأشبه أنه حفيد القاضى نجاد بن موسى الذى كان قاضيا للإمام محمد بن أبى غسان ، وها نحن نفرد له بابا خاصا للكلام على أحوال إمامته .

إمامة موسى بن أبى المعالى بن نجاد بن موسى

بويع بالإمامة سنة ٥٤٩ وهذا الوقت اشترك فيه ثلاثة أئمة مع الملك محمد بن مالك ، وكل ذلك لاختلاف الأمـــور وتسلط الأهـــواء ، وحب الرئاسة لا غـــير .

ولن تقوم قناة قوم والحال هكذا ، ولكن كل الأمور بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء ، وإلا فما الداعى الى هذه الأحوال التى تقع بين أهل مذهب واحد فى قطر واحد ، وما الداعى الى الافتراق فتصير الأمة الى فرق شتى وفى هذه الأثناء افترقوا الى رستاقية ونزوانية ، فكثرت الأئمة وضعفت الأمة ، وحل الخذلان والشتات فى إخوان مجتمعين والله المستعان .

الصراع بين الملك محمد بن مالك والإمام موسى بن أبى المعالى

لمـا تولى الملك الملك محمد بن مالك ، قام أكثرية أهل عمان ضدة ، فبايعوا موسى بن أبى المعالى ، ولمـا علم الملك بالواقع أهمه جدا وأقلقه : وكانت الأكثرية معهم والسواد الأعظم عليه •

ويقول الإمام رحمه الله : خرج عليه أهل عمان وكان يومئذ إمامهم موسى بن أبى المعالى بن موسى بن نجاد « فى عسكر لا يحصى ولا يعد » ، قال : وخرج الملك فى جملة اليحمد ، إلا أن الأقل منهم أى أن غالب اليحمد هم الذين كانوا أنصار الملك محمد بن مالك ، وكان الملك كما يظهر من حاله عادلا قائما بواجبات الملك ، مراعيا لأحوال الأمـة بالعدل ، مصلحا للأحوال التى يستدعيها الوقت الذى هم فيه ، وكانت له نصائح الى هؤلاء القائمين عليه خوفا من شـق العيـا ، وابتعادا من إثارة الفرقة بينهم •

ولكن لم يكن ذلك مجديا ، بل أصر أنصار الإمام على القيام عليه ، أو يتخلى عن الملك ، ولم يرض هو أيضا أن يتخلى عما تولى ، وبذلك انشقت العصا بينهم ، فظل هو يجمع الجمـوع ، وهم كذلك لكن كان السواد الأعظم مع الإمام ، وأهاج الشيطان الفتنة ، واحتج الملك على القائمين عليـه ، بحجج لم يقبلوها ولم يسلموا لهـا ، وكأنهم لم يلتفتوا الى أقواله •

وذكر فى كتابه الأخير لهم تحقيق الصدد الذى هم فيه غائبا عليهم بقوله : « إنى قد كتبت قبل كتابى هذا كتابا أطلب فيه إيضاح الحق ، وإظهار برهان الصدق ، ولم يرجعوا الى جوابا يقطع ولا أتوا بايضاح ينفع » الى آخر ما جاء فى كتابه من العتاب ، وما ورد فيه من الخطاب ، وقد اعتذر إليهم بأعذار غير خارجة عن الحق ، ولم يذكروا جوابا لها

ولا اعتذارا فى قيامهم ، ولا عدوا عليه ما يوجب القيام عليه ، ولعله كونه تولى الأمر على غير صحة من رضى المسلمين به •

والظاهر هو هذا ، وكان كتاب الملك عبارة عن تاريخ حافل بالنقاش مشحون بالاحتجاج ، مملوء بالأدلة من القرآن ومن السنة ، أورده الإمام كله للاعتبار ، باعتبار من النصائح والاستعطافات ، وجميل المخالقة والتنصل ، ولكن لابد من أمر أراده الله ، يقول فى آخر كتابه ، وكأنى أقرع حجرا أصم أو أكلم أخرس أو أصم ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، ومنه : وإن طعن على طاعن فيما أنا فيه ، فأنا مقر بالتقصير ، ومعترف بالخطأ ، ودائن لله تعالى بالواجبات ، والتخلص من التبعات ، وإن وجدت قوما لله كنت منهم ولهم ، ولله أمر هو بالغه ، وحكم هو نافذه الخ •

إن هذا الرجل هو الإمام الصحيح الإمامة ، الرجيح فى الاستقامة ، الذى تجب مناصرته لا الخروج عليه ، ولا يصح قتال رجل لا تعد عليه جريمة فى شىء ما ولم تقم عليه حجة شرعية مع إذعانه بالواجبات ، وامتثاله للطاعات ، وانقياده للحق ، وقد دل كتابه هذا على استقامته • وبرهن به عن الحال التى يرونها ، وقام لله بواجب يرى أن الله ألزمه اياه[1]

ولم يجد من القوم إلا الإصرار على قتاله ، وكان قد وقع بينه وإياهم أمر كبير فى ناحية كدم ، وأسر منهم جملة ولم يعاقبهم ، بل أطلق سراحهم ولم يثنهم ذلك عن قتاله ، وهنا تتم الملحمة التى ينتهى بها الأمر بينهم ، فكان اللقاء بينهم فى حوزة الطو ، واستمر الجيش من عقبة بوه الى الطو ، وكانت الدائرة على القائمين عليه وقتل منهم الكثير •

---

(١) الا انه تولى الأمر على غير اجتماع عليه من المسلمين وعلى غير بيعة منهم له وبهذا احتجوا عليه .

أعيان المقتولين فى هذه الوقعة

قتل فى هذه الوقعة رئيس الجيش وأخوه أبو المعالى بن عبد الله ، وعبد الله بن خنبش بن أزهر ، وأحمد بن محمد المعروف بالصيلحى ، وجماعة من أهل سمد ، ومن سائر القوم عدد لا يحصى .

قال الإمام رحمه الله فى تحفة الأعيان : فانهزمت أهل عمان ولم يعقب أحد ، فقتل الرئيس وأخوه وقتل من الناس خلق كثير ما لا يحصى ، وكذلك الموت بالعطش ، أى هلك كثير بالعطش ، ولعل القضية كانت فى وقت الحر .

قال الإمام : ولم ينج إلا ذو عمر طويل ، قال : وأتت اليحمد والبدو على جميع التجافيف والدرول والسلاح ، قال : وكانت القضية بالطو ، وليست هى بالطو ، بل فى طريق الطو ، فى عقبة بوه وهناك أحاطت اليحمد وأنصارها بجيش ابن أبى المعالى ، وذلك المكان مضيق جبال . والقوم أكثرهم غرب لا يعرفون المسالك ، وقيل : إن الرئيس أبا المعالى ومن ذكر معه هؤلاء كلهم أسرهم جيش الملك ، وأخذوا منهم السلاح ، وباء أهل عمان بهزيمة منكرة ، أكثر المؤرخون ذكر هذه الوقعة فهى أشبه بوقعة تنوف ، ووقعة القاع من ظهر عوتب وكأن الملك انتصر على الإمامة وأركانها إلا أنه لم يعد له خبر بعد هذا ، وهذا من إهمال التاريخ أو ذكره ولكن لم نطلع عليه .

وإنما جاء بعد هذا ذكر إمامة خنبش بن هشام ، وقرائن الأحوال تدل أن هذا الوقت وقت ضيق بين أهل عمان أنفسهم ، فان الرستاقية تحاول الاستيلاء على الأمور ، وتروم السيطرة على عمان والنزوانية ضدها ، والصراع لا يزال فى هذه الآونة ، فانهم ذكروا إمامة خنبش ، وإمامة ولده بعده ، وإمامة أبى المعالى فى وقت واحد ، اللهم إلا اذا كان

العهد غير طويل للإمامة الأولى ، فيقوم الإمام الثانى أثر السابق ، ويسرع الموت عليهم بالقتل ، فان هذا الوقت اختلط تاريخه بهؤلاء الرجال ، الذين لعبوا فيه دورا هاما ، وفعلوا فيه ما فعلوا فان إمامة ابن أبى المعالى فى تاريخ سنة ٥٤٩ وانهم قالوا : إن خنبش بن محمد بن هشام المذكور ، مات فى جمادى الأولى سنة ٥١٠ ، هو بعد ابن أبى المعالى ، وهــذا لا يصح إلا أن يكون غلطا كما قلنا أو سهوا من الكتاب ، وإن ولده محمد بن خنبش بويع فى تلك السنة ، فان صح ذلك فيلزم أن يكون ابن أبى المعالى بعدهما فى التاريخ ، وإن وضعــه قبلهما خطأ من المؤلفين ، وقد قالوا : إن محمد بن خنبش مات سنة ٧٥٥ سبع وخمسين وخمسمائة •

وجعل بعضهم أن محمد بن خنبش هو محمد بن أبى غسان مما يدل على اضطراب التاريخ ، مع أنهم قالوا أيضا إن هذا الوقت وقت إقامة راشد ، فاضطرب التاريخ اضطرابا كثيرا • واختلط حابله بنابله ، فعسر توضيحه غاية العسر ، وكذلك لم يبينوا خنبش وولده ممن من القبائل ، وعلى الأقل من أى البلاد ، وكذلك راشد بن على ، وقــد عرفت أيضا مثل هــذا فى شأن الملك محمد بن مالك ، وليتهم بينوا وليتهم وضحوا توضيحا يحسن السكوت عليه •

ومن يعتبر فى كتاب الملك يجده عظيما يحتوى على قواعد هامة ، ومعارف عامة ، وقد أورده الإمام فى التحفة ، وإنه ليعبر عن عقل صحيح ورأى رجيح ، ولم نورده لأنه يطول به علينا المقام ، ونكتفى بالإشارة اليه ، لأنه ميســور التناول ، وإنه ليفيض ببيان صحيح ، ولسان المرء دليل عقله ، والله يؤتى ملكه من يشــاء ، والحمد لله ، وكان يسمى ذلك الكتاب فى الأثر العمانى كتاب الملحمة أى المقتلة •

إمامة خنبش بن محمد بن هشـــام

لم أدرك نسب هذا الإمام كما أشرت إليه آنفا • قال الإمام رحمه الله : وأظنه من أئمـــة الطائفة الرستاقية ، وهو ظن لا يحقق ، غير أن العاقد لمحمد بن خنبش أى ولده ، فإنه بويع بعده كما سوف تراه • وكون العاقد له صاحب المصنف وهو من الطائفة الرستاقية ، قال : وكأن إمامتهما أى إمامة محمد بن خنبش ، وإمامة أبيـــه خنبش بن محمد بن هشام ، كانت فى وقت واحـــد ، وهو وقت من ذكرنا إمامتهم •

قال الإمام : وهو المقدم فى نقلنا عنه خصوصا فى المختلف أيا كان لتحريه الحق ، واعتماده على الصدق بحسب الإمكان ، قال : فأما خنبش ابن محمد فلم أجـــد لسيرته ذكرا فى شىء من الكتب إلا ما قالوه فى تاريخ موته ، إنه توفى يوم السبت من جمادى الأولى سنة ٥١٠ •

قالوا جرى على الناس بموته مصيبة عظيمة ، فكأنه كان محبوبا ، ويفهم من ذلك صلاحه فيهم واستقامته فى الدين • ولا شك أن الصالح مفقود ، وأن المحق مأسوف عليه ، وأن الدين والإيمان هما عروة وثيقة لها مقامها عند الله ، ولها تأثيرها فى النفوس • والله يؤتى فضله من يشاء •

إمامة محمد بن خنبش بن محمد بن هشام

عقد على محمد بن خنبش فى اليوم الذى مات فيه أبوه ، وإن متولى العقد عليــه العلامة نجاد بن موسى ، وكان المذكور قاضيه ووزيره ، وسيف دولته ، وكذلك الشيخ أبو بكر أحمد بن محمد ، وهذا الوقت كما قلنا آنفا إنه آخر إمامة راشد بن على ، وعاش هــذا الإمام فى إمامته الى سنة ٥٥٧ سبع وخمسين وخمسمائة .

وكان العقد على هذا الإمام « بسونى » التى هى العوابى الآن ، فى علاية الرستاق ، وهذا الإمام من حملة الأئمة الذين ذكرنا انبهــام تواريخ إمامتهم ، فإن هذه الآونة هى وقت إمامة محمد بن أبى غسان ، وإمامة موسى بن أبى المعالى ، وإمامة راشـــد بن على . وإمامة خنبش ابن محمد ، وإمامة ولده محمد المذكور ، والاحتمال يوجب كون المذكورين فى نفس تواريخهم ، لأن عمان فى هذا الأوان قسمان ، وبها إمامتان ، فهما دولتان والله المستعان .

ومات الإمــام خنبش وولده المذكورين بنزوى ، وكان محمد بن خنبش إماما عادلا ، وأميرا فاضلا ، بكت عمان عليــه من صميم قلبها ، لعدله وحسن سيرته مع طول مدته ، وعلى كل إن للعدل ثمنا غاليا وقدرا عاليا ، وشرفا ساميا والحمد لله .

انسحب ذلك القرن فسحب بقية العلماء الذين زاولوا الإمامة فى تلك الأيام ، وأقاموا دعائم الحق ، وإن كانوا اختلفوا فيما بينهم ، فإنما هــو خلاف فى أمر القيام بالعدل بين المسلمين ، ولكل واحد اجتهاده ، فإنا لا نقدر أن نلوم أحدا منهم ، وإن تأسفنا على الواقع فالأمــور الاجتهادية كل يرى أنه المصيب فيما أتى ، والمحق فيما فعل ، ورحمة الله واسعة ، وليس لعلمائنا أهواء تخالف الشرع حاشاهم ، وإنمــا جل اجتهادهم بل كل أعمالهم هى فى صالح الأمة ، وبصالح الدين والوطن ، والله ولى كل شىء وإليه المرجع وعليه الاتكال ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الملوك النباهنة ودورهم

لقد لعب بنو نبهان بعمان دورا كبيرا ، وابتنوا لهم قواعد ، رفعوا لهم معالم ، وركبوا فى أيامهم كل صعب وذلول ، ولا شك أن الملوك لهم مذاهب معروفة ، ومعالم موصوفة ، ومقامات لها شأنها ، (إن الملوك اذا دلخوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) ، أى ذلك شأنها إلا ما شاء الله ، ممن وفقه الله لسلوك سبيل الحق ، والعمل بواجبات الشرع ، وسنة الله فى عباده ألا تبقى الدنيا على حال (وتلك الأيام نداولها بين الناس) وتلك هى سنة الله فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهو الحكم فى كل ما يأتى وما يذر ، وإنما العباد آلات تحركها اليد الإلهية التى لها الحلول والطول فى الكائنات.

والنباهنة قوم من العتيك معروفو النسب ، صار الملك إليهم بعد الأئمة السابقين ، وذلك لأمر أراده الله تعالى فى عباده ، فإنهم لما افترقوا فرقتين ، وصاروا طائفتين متعاديتين ، نزع الله دولتهم من أيديهم ، وسلط عليهم العقوبة من أبناء جلدتهم ، وأهل ملتهم ، وجعلهم رعايا بعد ما كانوا رعاة ، وضحايا بعد ما كانوا هداة ، وأسارى فى أياد لا تعرف لهم حقا .

ولا شك أن الله يظهر العدل فى الكون على يد من ارتضاه من عباده ، لتقوم حجته عز وجل على الناس ، وينفذ سلطانه فيهم بما اكتسبوا ، فإن الافتراق شئوم ، وإن الاتفاق قوة ، وإن الاختلاف داء . (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) والله ولى التوفيق .

كان بنو نبهان أسرة بارزة فى محيطها لها قدرها وشأنها الأزدى ، فإن عمان من أول أمرها أزدية باتفاق .

تسلط النبـاهنة

كان العلماء يعالجون إقامــة الإمامة فى آنها ، ويصارعون الباطل بالحق ويدافعون الجــور والظلم بالعدل والإنصاف ، ولم تزل فى عمان تلك الأيام ، والأيدى تحمل أعلام السلطنة وبنود الإمامة ، ولم تزل المصاولات فى حل وترحال ، ولكل عمله ، فالملوك فى بلدان والإمامة فى أوطان ، والسلطان فى مكان والإمام فى آخر ، وربما غلبت الإمامة فى بعض الأحيان ، ويرجع الأمر بعد ذلك الى السلطان .

وهكذا استمر الحال عهدا ، وقد أشرنا الى وميض من الحركــة النبهانية وهنا علا لهبها وعظم حطبها وكثر موقدوها ، ملك بنو نبهان عمان مرتين ، كان بينهما فاصل غير قوى ، إلا أن الله الحكيم فى صنعه ، العليم بخلقه ، يرى عباده مطالع قدرته ، ما يستدل به العاقل على الأحوال التى تنبغى ، وقد ضاع تاريخهم التفصيلى ، وكان ينبغى حفظه ليكون لسانا معبرا عن الأحوال التى أحاطت الأمر إليهم ، ثم أحالته الى غيرهم ، والظاهر أن أولهم الذى ترشد إليه المعارف الأدبية بالاشتراك .

أول ملوك بنى نبهان

أبو عبد الله محمد بن عمر بن نبهان ، وأخوه أبو الحسين أحمد بن عمر بن نبهان ، وأخوه الثالث أبو محمد نبهان بن عمر بن نبهان ، هؤلاء الثلاثه لا يعرف هل هم تتابعوا على الملك ، أم كانوا اقتسموه فى آن واحـد ؟ ومشـوا فيه مشية ازدهاء ، ولا يعرف تسلطهم على الأمـة بأى طريق كان ، ثم بعدهم أبو القاسم على بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان ، وأبو الحسن ذهل بن عمر ، ثم أبو العرب يعرب بن عمر ، وهو الذى تفرع عنه اليعاربة الميامين .

وأبو اسحاق ابراهيم بن أبى المعمر عمر بن محمد بن عمر بن نبهان ، ثم توالت الأيام بأبنائهم وذراريهم ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمر وأبو المعالى كهلان بن محمد ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر ، وأبو محمد نبهان بن ذهل .

توالى هؤلاء على الملك ، وسيطروا على الأمة قهرا ، وفعلوا شنائع تشمئز منها النفوس ، وذهب تاريخهم ضياعا ، حيث إن العلماء كانوا يبغضونهم ولا يعتنون بأخبارهم ، وهؤلاء العشرة تتابعوا أول بنى نبهان ، فهؤلاء المذكورون لم يعرف تاريخهم ، وكان فى الصبا وصل الى جدول جامع لهم فيه تواريخ مواليدهم ، ووفياتهم وأسمائهم ، وعاصمة كل واحد منهم ، وإذ ذاك أنا فى سن الصبا لم أدر أين ضاع ذلك الجدول منى ، مع أنى فى ذلك العهد لم تكن لى أهمية ناشطة لهذا الصدد ، بل كنت أقرأ أو أسمع كلمات لبنى نبهان ، تدل على التأنيب لهم ، وأنهم جبابرة ظلمـة .

ولمـا حاج الحال الى العلم عنهم ، والتعرف على أحوالهم تاريخيا ، ضاع ذلك المذكور ، كما ضاع منى تاريخ الإمـام سلطان بن سيف

صاحب الحزم ، وهو القصيدة الميمية التى ذكرها الإمام وشرحها ، وكنت استطعت أن أنسخ نظمها ، ثم ضاعت منى أيضا وكذلك أيضا ضاع منى « سراج المسترشد فى تاريخ الإمام ناصر بن مرشد » رحمه الله .

ومن كلماته فيهم يقول : إن بنى نبهان كانوا ملوكا عظماء بعمان ، ولهم فيها من الملاحم والمكارم شأن أى شأن ، فمن أين يكون بعمان ملوك عظماء بالأخص اذا لم يكن بيدهم إلا عمان ؟ نعم اذا كان يعنى ملوكا عظاما فى ظلم الناس ، فنعم لقد ظلموا العباد ، وجاروا فى البلاد ، فأخذوا أموال الناس ، وجعلوها أموالهم ، وشردوا العباد عنها مستأثرين بها دونهم ، فملوك عمان بهذه المثابة لا ينبغى أن يطلق عليهم إلا أمراء فقط ، وكل ملوك عمان الماضين ، اللهم إلا ما كان فى عصرنا الحالى ، حيث أصبح سلطان الان ويده مملوءة بالمال ، بسبب ما أخرج الله لعمان من البترول .

فإن الملك يعتبر فيه الغنى ، ألا تسمعون ما يقول الله فى كتابه حكاية عن طالوت يقول الله فيه على لسان القوم : (إن الله بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) الآية . فإن الشرط فى الملك الغنى والأمة والبلاد ، وبقدر ذلك يكون الملك . وأشهر ملوك بنى نبهان فلاح بن محسن .

قال الإمام رحمه الله : فاذا استقربت التواريخ ، أخبرك الحال أن بنى نبهان ملكوا مرتين ، فملوكهم الأوائل هم الذين كان يمدحهم أبو بكر أحمد بن سعيد الستالى ، وهو شاعر مشهور خروصى المحتد ، وله فيهم قصائد غراء ، ذكر الإمام منها طرفا ، قال : وحيث كانت دولة هؤلاء مبنية على الاستبداد بلأمر ، وقهر الناس بالجبرية لم نجد لدولتهم تاريخا ، ولا لملوكهم ذكرا إلا من ذكر الستالى فى ديوانه ، ولشاعر الشباب

السيد هلال بن بدر بن سيف بن سليمان البوسعيدى يقول فى همزيته التاريخية :

وملوك من آل نبهـــان صـــالوا
وبنـــوا ملـــكهم عـــلى الـــكبرياء
ومضوا لا الزمان عنهم براض

الى آخر ما قال . والذى يدل عليه الحال أن بنى نبهان قاموا فى القرن السادس الهجرى ، أى بدأ نشـــأة دولتهم حين كانت الإمامـــة المستضعفة ، فعضوا على الملك بالنواجذ ، حتى رسخ فيهم عهدا وأصبح من مألوف الناس ، فطالت أعناقهم وكبرت نفوسهم ، ولم يروا من يقوم لردهم عما هم فيـــه .

وعلى هذا كانت نشأة القوم حتى اجتاحوا ملك عمان ، وتسلطوا على أهلها بالظلم والعدوان ، فحاول أهل العلم إزالة ظلمهم ، ولم ينجحوا كما ينبغى ، فإنهم بايعوا بالإمامة لأناس كما سوف تقف عليه أيهـــا القارىء .

فكان الصراع بين الإمامة والملكية مستمرا ، وما برح الخلاف والشقاق يتوالى بينهم ، والملك لله وحده كلما رأى العلماء فرصة للقيام بالعدل والعمل بكتاب الله ، بايعوا إماما فيظل الصراع مستمرا ، وفى الغالب أن الناس أعنى أكثرهم لا يحبون الإمامة ، لأنها تأخذ على أيديهم ، وتعترض على أهويتهم ، لأن أهل الجهل هم السواد الأعظم ، وأهل الحق هم الأقلون حتى عهد النبوات ، ولذلك أدلة من الكتاب والسنة ، وبنـــو نبهان شهروا بالفساد فى البلاد ، وبظلم العباد والاستبداد .

قال شكيب أرسلان فى التطيق على حاضر العالم الإسلامى : استولى على الملك بنو نبهان ، وتلقبوا بالملوك ، واستمر ملكهم مائتين وستين سنة ، واستمر فى ذكرهم الى أن قال : ثم أخـــذ بنو نبهان يظلمون ويعسفون ، فلم يطق الأهالى حكمهم ، وانتخبوا إماما من قبيلة الأزد ، ويشير بذلك الى الإمام عمر بن الخطاب الخروصى ، إذ هـــو الذى خضد شـــوكة النباهنة ، وكسر أجنحتهم ، فكانت له بذلك شهرة فى عالم التاريخ ، وإلا فقد بايع العمانيون عهد بنى نبهان أئمة عديدين •

قال شكيب : وانتهى ملك بنى نبهان فى نحو سنة ٨٣٩ •

قلت : أما تحديد مدة ملكهم فأهل عمان أعرف لأنها على كواهلهم ، أما شكيب وأمثاله تأتيهم الأخبار من بعيد لا تحقيق فيها ، وإنما يأخذون ما يسمعون • قال : وكان بنو نبهان قد ضبطوا أملاكا كثيرة ، فاستردها عمر بن الخطاب من سلالة شاذان بن الصلت ، وما لم يوجد له أصحاب كأن يكون هؤلاء انقرضوا أو غابوا غيبة منقطعة ، رده الى بيت المـــال •

قلت : هذا من جملة ما لم يعرف شكيب مصدره ، وسوف تقف إن شاء الله على تحقيق هذه الأملاك التى يذكرها شكيب ، وفى معالم الجزيرة العربية ، عين ما قاله شكيب ، وأما دليل الخليج ، فلم يكن لديه معلومات عن تاريخ النباهنة ، لأنه كان حديث عهد بالخليج ، فكتب أكثر ما كتبه فى عهد وجود بريطانيا ، وإنما أشار الى النباهنة إشارة خاطفة ، وذكر عهد اليعاربة ، وكتب عنهم بعض الأحوال •

والواضح أن غموض تاريخهم بسبب جورهم وظلمهم فكرهتهم الأمة والظلم لا تبنى عليه دار ، ولا يقوم له منار ، وإنما هو البوار ، فلا يغتر به إلا جاهل خليع •

كهلان بن نبهان وأخوه عمر بن نبهان

لقد استمر النبهانيون طيلة القرن السابع الهجرى ، وفى سنة ٦٦٠ ستمائه وستين ، كان السلطان منهم أبو المعالى كهلان بن نبهان ، خرج عليه أمير من هرموز يسمى محمود بن أحمـــد الكرستى ، والمصـــادر عنـــه فى حديثها متحدة ، ففى كشف الغمة لسعيد بن سرحان الأزكوى ، وابن رزيق وأخذه عنهما الإمام السالمى فى تحفة الأعيان ، أن محمـــود المشـــار اليـــه وصل الى قلهات ، وذلك لأنها إذ ذاك إحـــدى عواصم عمان ، وهى على ساحل البحر فى جبال منيعة ، إلا أن الظلم يكسر تلك المنعة ، ويمهد الطريق للغازى كما هو المعروف فى الطباع البشرية ، فإن المظلوم لا يزال يطلب الغوائل للظالم لينتقم منه ولو بعدوه ·

ولمـــا وصل محمود قلهات ، كان أبو المعـــالى فى داخل عمـــان فدعاه فلبى دعوة محمود خوفا ، ولم يكن لديه ما يدفعه به من قـــوة ، فلما حضره طلب منه المنافع ، وبعبارة أوضح ، طلب إتاوة من عمان ، وخراج أهلها ، فاعتذر أبو المعالى اليه وقال : إنى لا أملك من عمان إلا بلدة واحـــدة · فقال له محمود : خـــذ من عسكرى ما شئت واقصد به من خالفك من أهل عمان ، وانظركم كان عسكر محمود ، اذ بلغوا مبلغا كبيرا خمسة آلاف رجل ، وعمان تحتوى على مئات الآلاف من الرجال ، فينزل عليها محمود ويهدد ملكها فى عاصمته ، إلا أن الجند الغالب هنا هو الجـــور والظلم ·

قال أبو المعالى : إن أهل عمان ضعفاء ، لا يقدرون على تسليم الخراج ، فحقد عليه محمود وأضمر له المكيدة ، واستدعى محمود أمراء البدو من عمان ، فكساهم وأعطاهم ، فوعدوه بالنصر على أهل عمان والخروج معه ، وانظر أيضا هنا طلب محمود لبدو عمان ، وإجابتهم لـــه على ما طلب ، لولا ظلم الحاكم لمـــا لبوه ، وانظر اليه هو لم يقدر على

منعهم من إجابة عدوه ، ومن قبولهم عداياه وهو يرى ويسمع ، ولكن الله عز وجل زحزحـــه عن أن تتم البلية على أهل عمان ، فلو دخل عمان لاستباحها ، وحمل نساءها وذراريها ، واستعبد أهلها •

ولكنه واعد البدر على العودة ، وتوجـــه الى ظفار على أن تكون عودته إليهم من جهتهم ، فيدخل عمان من ناحيتهم ، ولو تم له ذلك لكانت بلية على أهل عمان ، من أعظم بلايا بنى نبهان ، ألا ترى بإنه لمـــا وصل ظفار ، قتل أكثر أهلها ونهب أموالهم ، ورجع قاصدا عمان لتنفيذ مخططه •

قال الإمام : وأخذ طريق البر أى ليمر على بدو عمان من عفار وحسريت ووهيبة وجنبة ونحوهم ، وكان قد حمل أثقال على سفنه ، ولمـــا تمكن فى الصحـــارى الظفاريـــة العمانيـــة ، نقص عليهم الزاد لأنهم لا يعرفون قدر المسافة ، فيأخذون لها ما يلزم ، فأصابهم جوع وعطش شديد لقلة المـــاء فى الطريق ، فمات من عسكره قدر خمسة آلاف رجل ، وقتل أكثرهم •

والمفهوم أن الأكثر ماتوا جوعا وعطشا لا سيما أن المـــوارد فى الطريق قليلة ، ولا يهتدون لها ، ومن هناك لم يحدث التاريخ عنه هل هلك أم لا ، إلا أن أخباره اختفت ، ولعله قنع من الغنيمة بالإياب ، وأراح الله منه البلاد والعباد ، وانتقم الله منه (والله عزيز ذو انتقام) •

وكذلك أيضا اختفت أخبار أبى المعالى ولعله مات وتولى بعده أخوه عمر بن نبهان •

عمر بن نبهان وأهل شيراز فى عمان

لمـــا تولى عمر بن نبهان سلطنة عمان بعد أخيه ، خرج عليه أيضا أهل شيراز بقيادة فخر الدين أحمد بن الداية [1] ، وخيه شهاب الدين وهم أربعة آلاف وخمسمائة فارس تبعا لخروج محمــود الكوستى ، والنصير لهؤلاء فى خروجهم ظلم ولى الأمر فى عمان ، وإلا كيف يتسنى لمثل هؤلاء دخول عمان ، وهم أربعة آلاف وخمسمائة رجل ، وعسكر فى عمان فى أيام الإمام المهنا أربعون ألفا ، وفى بلاد عمان آلاف الرجال •

ولا شك أن ألف رجل فى بلد مواطنين فيها أقوى من عشرة آلاف رجل غزاة ، إلا أن الباطل ظهير لهم ، وانظر أفعالهم التى فعلوها فى عمان •

قال الإمام السالمى نقلا عن التاريخ العمانى ، قال : حل على عمان منهم « أذى كثير لا غاية له » قال : وأخرجوا أهل العقر من نزوى من بيوتهم ، وأقاموا على ذلك أربعة أشهر فى عمان ، قال : وحاصروا بهلى •

فانظر الى خمسة آلاف رجل يتغلغلون الى داخلية عمان ، ويقتلون وينهبون ويخرجون الناس من بيوتهم ، ويحتلونها ويقيمون فيها أربعة أشهر بين ظهرانى أهلها ، إنها لمن الدواهى التى لا يرضاها حر ، ولا يقف معها من فى وجهه حياء •

وهكذا شأن الغازى اذا تسلط فى أمة ، ولا شك أن الأنصار لهذا الغازى هم أهل عمان الذين أوغلوا فى عتوهم وجورهم ، يرسل عليهم من يريهم الـــذل والهوان ، واذا جاءت الفتنة عمت — والعياذ بالله — لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة •

كهلان بن عمر وآل الريس فى عمان

وبعد حصار ابن الداية لبهلى ليحتلها فحماها الله منه لأنه لم يقدر عليها حيث اجتمع أهلها وتعاقدوا باخلاص وفى أثناء ذلك مات ابن الداية وكسر الله شوكة قومه ، وانحل أمرهم وذهب عمر بن نبهان ، وتولى الأمر كهلان ابن عمر بن نبهان ، ورأى أهل شيراز أن الطريق معبد للخروج الى عمان لاستغلالها .

ففى شــوال من سنة ٦٧٥ خمس وسبعين وستمائة خرج أولاد الريس على كهلان ليلعبوا دورهم بعمان ، فخرج لهم كهلان المذكور بمن معه من جنوده وعســاكره ليلقاهم بالصحراء ، وخرج معه أهل العقر من نزوى ، فتخالفوا فى الطريق فدخل آل الريس العقر ، وأحرقوا سوقها وأخذوا جميع ما فيها من أموال ، وسبوا النســاء ، وهم كمــا علمت شرذمــة قليلة بالنسبة الى نزوى فضــلا عن بقية أهل عمان ، وأحرقوا الكتب التى فى مخازن الجامع وفعلوا تلك الأفعال فى نصف يوم واحــد .

ثم التقى بهم كهلان بالسراة فى أول يوم من ذى القعدة من السنة المذكورة ، وكان مع آل الريس آل الحدان بن شمس ، ولعل هناك ضغائن للقوم وألفت بينهم فزحف آل الريس ، ومعهم من آل الحدان ، وكانوا قدر سبعة آلاف رجل .

ودارت رحى الحرب بينهم فقتل من الفريقين خلق كثير ، ويقال إن جملة قتلى آل الريس والحدان ثلاثمائة قتيل . ودارت الدائرة عليهم فولوا منهزمين ، ثم لم يعــد لهم ذكر فى التاريخ ، فلعلهم كفتهم تلك الوقعة ، والحرب نار تلتهم كل ما تصل اليه ولا خير فيها .

خردلة بن سماعة بن محسن فى سمائل

كان خردلة بن سماعة بن محسن بن سليمان بن نبهان على سمائل وتوابعها ، جبارا فى منتهى حدود الجبروت ، وكان الله عز وجل ابتلى به أهل ذلك الطرف ، فأذلهم واستعبدهم الى حد بعيد ، بحيث أصبح لا يقدر أحـــد أن يزوج وليته إلا بإذنه ، وشرط على الولى أن يكون له نصف الصـــداق العاجل ، واذا طلقت أو مات زوجها كان الآجل كله لـــه ، وكان يكلف الناس من الأعمـــال مالا يطيقون ولا يبالى ، كان يأخـــذ من النخل باسم الزكاة السبع أى من السبع النخلات نخلة ، ويسقى أمـــواله بماء النـــاس ، ويتولى أموال المســاجد والمدارس ونحوها ، ويكلف الناس حمل الخراج الذى يفرضه عليهم الى الحصن بعنف ، ويكلف أهل قيقا وبدبد ومـــا اليهما يحملون متاعهم من تمر وثمر ونحوه على ظهورهم وظهور دوابهم ، ويأخـــذ نصف حق المدعى ولا يحلف المنكر ، بل يريه من العـــذاب ما يحمله على الإقرار ، حتى يحصل المطلوب ، وعليه ما على الانسان إلا أن يدعى وهـــو المنفـــذ للمدعى ، وإن رغم أنف المدعى عليـــه .

فابتلى به العباد ، وساءت بـــه حاله البلاد ، وتكدر الصفو وظل النـــاس يرتحلون من تلك النواحى ، من ســـوء تلك الأفعال ، وأتم القضية بقتل الشيخ أحمد بن النضر على غير شىء ، ويقال إنه أرســـل الى جماعته وأقاربه فقتلوا فى بيوتهم ، وأحرق كتب الشيخ ، ونهب كل ما فى بيته ، فكانت الضحية الى الملكوت الأعلى .

وبالجملة أفعال تشمئز منه النفوس ، وتنفطر له الأكباد ، وخرجت منازل بنى النضر ، واشتطت الوطأة عليهم ، وها هى قبورهم فى بساتينهم الى الآن والله المستعان .

إمامة الحوارى بن مالك فى العهد النبهانى

بويع الحوارى بن مالك فى العهد النبهانى فى سنة ٨٠٩ تسع وثمانمائة أى فى العقد الأول من القرن التاسع ، فقام بواجب الشرع ، وبذل النفس والنفيس ، وبقى فى إمامته ثلاثا وعشرين سنة ، أدى فيها واجب الحق ، وأقام أعمدة العدالة حـد المستطاع ولم أجد شقاقا بينه وبين بنى نبهان ، ولا ذكروا له حروبا ، وهـذا الوقت وقتهم ، ولعلهم تهادنوا هم وإياه ، فإن الأئمة فى غالب عهد بنى نبهان يكونون فى بلد ، والسلطان النبهانى فى آخر ، اذ كان العمانيون وحدهم ، فيكون الصراع بين الإمامة ، والسلطنة ويقوم الخصام والنزاع هكذا .

فتارة ترتفع راية الإمامة ، وتارة تقـوم الملكية ، ولها كبكبة ، وهكذا كان الحال ، والحوارى بن مالك يعيش ثلاثا وعشرين سنة ، بين أولئك العتاة ، ولعل الله كف شرهم عنه ، وتوفى الإمام الحوارى المذكور فى سنة ٨٣٢ اثنتين وثلاثين وثمانمائة ، وبايعوا ولده مالك بن الحوارى .

إمامة مالك بن الحوارى فى العهد النبهانى

لـمـا توفى الحوارى بن مالك الإمام ، رأى أهل الفضل ابنه أهلا لأن يكون إماما بعد أبيه ، فاجتمع عليه أهل العلم ، فبايعوه بالإمامة بعد أبيـه حالا ، وكان عقد الإمامة له بنزوى ، ومنها تولى جبل بنى ريام ، ولعله أراد أن يجعله عاصمة لإمامته ، وإنه لخليق بذلك ، فإن جبل بنى ريام من أعظم عواصم عمان ، ثم هبط بعسكره الى الرستاق ، ووقعت بينه وبين من بها من الجنود مناوشات ، وقتل من عسكره ناس ولكن لم يصرح التاريخ السبب الموجب لذلك .

وقيل إن الإمام المذكور أمر عبد الله الملقب بالهول أن يغزو الرستاق ، وأمر بحرق سور القلعة ، ولعله أراد بذلك أن يخرج الذين تحصنوا بها ، فيقاتلهم إذ لا يستطاع احتلالها مصادمة ، إذ لا طائرات إذ ذاك ولا دبابات ، ولا مدافع تعمل شيئا له أثر ، وكان عمر هـذا الإمام قصيرا ، فإنه ما عاش فى الإمامة إلا سنة واحدة ، ثم توفى فأراحه الله من عناء ما هو بصدده ، فإنه توفى فى سنة ٨٣٢ .

إمامة أبى الحسن بن خميس بن عامر فى العهد النبهانى

لم يعرف تحقيقا بعد موت مالك بن الحوارى ماذا صار حتى بويع للإمام أبى الحسن المذكور ، والمدة نحو ست سنين فإنه مات سنة ٨٣٣ ، وبويع أبو الحسن فى شهر رمضان سنة ٨٣٩ .

قال : وخاصمه بنو صلت . قلت : لم نعرف بنى صلت المخاصمين للإمام المذكور ، ولا فى أى بلد كان هذا الخصام ، وحاربوه فإن كان المراد بهم آل الصلت بن مالك ، فهم فى بهلى ولم نعرف الحقائق التى يشير إليها التاريخ ، وكان لهذا الإمام ولد يدعى عبد السلام ، روى عن أبيه المذكور أنه أمر بخشى نخل بنى ربيع خدم بنى صلت ، وهو يومئذ إمام عمان ، لأن بنى ربيع خاصموه عند بنى صلت .

وفى الأثر كان أمره يخشى نخلهم الشيخ العالم ورد بن مفرج ، شهد بذلك سليمان بن راشد بن صقر العدوى ، ودهمان بن راشد ، ذلك لأنهم حاربوه وأفتاه الشيخ المذكور بجواز خشى أموالهم عقوبة لهم ، وتجوز عقوبة الباغى بإتلاف أمواله التى يتقوى بها على بغية .

قال ابن رزيق : عقد لأبى الحسن بعد أحمد بن محمد الزنجى . قلت : لعله كانت إمامته فى تلك المدة التى لاحظناها بين مالك بن الحوارى وأبى الحسن ، وهى ست سنين . قال : وأقام فى الإمامة سنة واحدة ، فخرج عليه سليمان بن سليمان بن مظفر ، فمات أبو الحسن عند خروج سليمان عليه والله أعلم .

إمامة عمر بن الخطاب فى العهد النبهانى

لما توفى الإمام أبو الحسن بن خميس بن عامر فى سنة ٨٤٦ ، بقيت الأمور فى يد بنى نبهان يتلاعبون فيها كيف شاءوا ، ويفعلون فى الأمة كما تهوى أنفسهم ، ورأوا ذلك هو العز والشرف ، أغمار غلب عليهم الجهل واستمروا الباطل ، وكانت عقولهم مقصورة على كلمة السيد أو السلطان أو الملك ، ولم يرفعوا رءوسهم الى أعلى من ذلك المستوى ، فهوت المملكة العمانية وتحطمت أركانها ، وأصبحت تتناقص أطرافها ، ويتقلص ظلها ، وينضب معينها ، وهم فى تيهم عاكفون على الشهوات يتظالمون فيما بينهم ، ويظلمون الرعية ، ويمتصون الثروة أين وجدوها ، ويستصفون أموال العباد ولا يبالون •

وفى سنة ٨٨٥ ضاق المسلمون بهم ذرعا ، فاجتمعوا فيما بينهم وتشاوروا فى أمرهم ، فاعتمدوا على مبايعة عمر بن الخطاب ، فقام بالأمر ، وكان السلطان إذ ذاك سليمان بن سليمان صاحب الديوان الحماسى ، فثار المذكور بجيشه ، وخرج الإمام برجاله ، وكان الالتقاء ببلد حممت من وادى بنى رواحة ، وهى التى تعرف الآن بالجناة ، وكان أكثر أنصار السلطان فى هذه البادرة هم بنو رواحة ، وهم القوام بأمره ، فانهزم الإمام وعسكره ، ورأوا أنهم وقعوا فى كبيرة أمر ، فلزمهم أن يتوبوا ويتراجعوا ، ولعلهم كانوا استخفوا بالأمر ، فعوقبوا عليه ، فجددوا البيعة له مرة ثانية ، فصال على النباهنة صولة الأسد الباسل ، فهزمهم هزيمة أتت على سحق قوتهم ، وإبادة شملهم •

ولكن لم يذكر التاريخ أين وقعت الوقعة بينهم ، ولا ذكروا من قتل منهم ، فإنه لابد أن تكون وقعت عليهم وقعة أو وقعات ، أوجبت خضوعهم ، فإنهم لا يخضعون بالهوينا ، ولايكفى من المؤرخين مثل هذا

التعبير ، فإن الذكر الذى يعتمد عليه ينبغى أن يكون واضحا ، فإنهم قد أشادوا بذكر نصر الإمام وانتصاره عليهم إجمالا •

وهذا الإمام السالمى المؤرخ الكبير يقول :

وفى بنى اليحمد من أسد الشرى
إمام صدق كان يدعى عمرا

كذا أبوه يدعى بالخطاب
مسامياً لعمر الصحابى

وقد قضى على بنى نبهانا
خبابراً كانوا على عمانا

قضى بأن مالهم لمن ظلم
من العمانيين لكن ما علم

فجعلوا ذلك بيت مال
الخ

لكن المؤرخين العمانيين يجازفون الحقائق غالبا •

قال الإمام السالمى : صال على النباهنة صولة الأسد الصائل ، فأمكنه الله منهم ، وأرثه أرضهم ، وديارهم ، وحكم بتغريق أموالهم ، وهذا التعبير يرمز الى سلطة كبيرة كانت للإمام المذكور: وليتها كشفت حتى تعلم على أى الوجوه كانت ، فإنهم لم يبينوا من قتل ومن أسر ، وعلى أى صفة كانت هزيمتهم ، حتى صفا الجو للإمام ومن معه ، بحيث يتمكنون من حكم التغريق ، ويستطيع العلماء القيام بهذه المهمة الساحقة التى

تقضى أموال القوم ، حتى أقاموا للمظلومين وكيلا ، وللسلاطين وكيلا ، والوكيلان ينظران فى الأمور ، ويحققان القضايا ، ويستطيع العلماء أن يسجلوا الحكم ، ويصححوا عليه •

والحال يدل أن السلطنة النبهانية هنا وهت ، ولم تعد تستطيع القيام فى وجه الإمام لمعارضة حكمه القاضى بتغريق أموالهم ، وتمزيق شملهم ، وتمكن المسلمون من تنفيذ أحكام للشرع تمكنا تاما صحيحا لا هوادة فيه ، وخمدت الشرارة النبهانية ، إلا أنها بقيت وميضا تحت الرماد ، فإنه لم يطل العهد حتى طلع لها نجم كما سوف ترى •

صفة الحكم فى أموال بنى نبهان

اعلم أن المسلمين نظروا الى النباهنة نظرة الحنق ، لأن القوم انخرطوا فى سلك الجبروت والظلم الفاحش ، وبلغوا فيه مبلغا كبيرا وكثر المتظلمون منهم والشاكون جورهم ، وعند هذا الحال نظر الإمام عمر بن الخطاب المبتلى بأمر المسلمين بعمان ، وناظر العلماء وناظروه ، وآخر الأمر أقاموا للمظلومين وكيلا يشكو من النباهنة المظالم ، وأقاموا للملوك وكيلا يدافع عنهم ، وعشية لأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٨٨٧ سبع وثمانين وثمانمائة اجتمعوا لهذا الصدد ، وللتشاور واستخراج ما يبتنى عليه الحكم ، فإنهم مسئولون أمام الله عز وجل .

قرروا أن سعيد بن زياد بن أحمد بن راشد البهلوى للحكم فى أموال بنى نبهان ، وأقام أحمد بن عمر بن مفرج وكيلا للملوك المقدم ذكرهم وكان القاضى فى هذه القضية هو الشيخ العالم أحمد بن صالح بن محمد ابن عمر ، بجميع مال آل نبهان من أموال ، والمراد بها بساتين النخل . قال : من أموال وأرضين ، ونخيل وبيوت وأسلحة وآنية ، وغلال وتمر وسكر ، وجميع ما لهم كائنا ما كان من ماء وبيوت ودور ، وأطوى وأثاث وأمتعة ، قضاء واجباً تاماً ، وقبل محمد بن عمر بن محمد بن أحمد هذا القضاء للمظلومين من أهل عمان من غاب منهم ومن حضر ، وكبر وصغر ، الذكور منهم والإناث ، فصارت هذه الأموال بالقضاء الكائن الصحيح للمظلومين . والمظلومون قد جهلت معرفتهم ، فصار كل مال مجهول ربه جاز للإمام قبضه ، ويصرفه فى أعزار دولة المسلمين ، وكل من أصبح حقه وأثبته فهو له من أموالهم ، ويحاسب بالتجزئة لما يصح له بقسطه إن أدرك ذلك ، وإن لم يدرك التجزئة ولم يحط بها فذلك نصيب غير معلوم ، وهو مجهول للفقراء .

وللإمام أن يقبض الأموال المغيبة وأموال الفقراء ومن لا رب له ،

ويجعله فى عز دولة المسلمين ، فقد صح هـذا الحكم والقضاء فيه ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم كتبه الفقير لله تعالى على بن محمد بن على بن عبد الباقى ، وصلى الله على رسوله وآله وسلم ، شهد بجميع ذلك : أحمد بن صالح بن عمر بن أحمد بن مفرج وكتبه بيده .

وهذا تاريخ وقوع الحكم المشار إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وقع الحكم والقضاء للمسلمين المظلومين بأموال أولاد نبهان فى عشى الأربعاء لسبع ليال خلون من شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٣٧ﻫ هجرية نبوية محمدية ، على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام ، وعلى أثره كتب : أقام الشيخ القاضى المجاهد سيف الإسلام ، وقطب عمان ، أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج بن عمر بن أحمد بن مفرج ، وكيلا للملوك المقدم ذكرهم ، فقد صح عندنا ذلك ، فقضى أحمد بن صالح بن محمد بن عمر بجميع مال آل نبهان من أموال وأرضين ، ونخيل وبيوت وأسلحة وآنية ، وغلال وتمر وسكر وجميع ما لهم من ملك ، فقد صح ذلك لمن ظلم من المسلمين من أهل عمان الذين ظلمهم السادة الملوك من آل نبهان ، من لدن السلطان المظفر بن سليمان بن المظفر بن نبهان ، ألى آخر من ظلم من نسله وولده الملكين سليمان بن سليمان وحسـام بن سليمان ، هذا الحكم الذى هو فى البلدة ، وقد سجل هـذا الحكم جملة من أهل العلم ، وكل من عرض عليه هـذا الحكم أثبته وأمضه من جملة المسجلين إثباته . عبد بن مداد بن محمد .

وقال الشيخ محمد بن عبد الله بن مداد : صح عندى وثبت لدى أن جميع الأموال والأملاك التى خلفها السيد سليمان بن المظفر قد استهلكتها الديون التى على سليمان والضمانات ، وقد صارت جميع هـذه الأملاك

والأموال للإمام دون أولاد سليمان ، ينفذها فى عز دولة المسلمين ، وكذلك الزروع الحاضرة وغيرها ، صارت للإمام ، وأنفذ الإمام عمر بن الخطاب رحمه الله هذا الحكم ، واستحل تلك الأموال ، وأدخلها فى بيت المال ، فبيت المال الموجود بعمان هو أصله أموال ملوك بنى نبهان ، لأن عمان لم تكن بيت مال فى حال من الأحوال ، لأنها أسلمت طوعا كما علم ذلك الخاص والعام ، وقد صرح أهل العلم فى الأثر بذلك ، فكل الأموال التى كانت لبيت المال بعمان من سمائل ، وأزكى ، ونزوى ، وبهلى ، ووادى القريات ، ووادى السحتن ، الرستاق ، وأوديتها ، والعوابى ، ونخل كل هذه الأموال هى أموال المذكورين ، إلا بدبد فقد عرف أمرها ، وبعض أنهار أجراها أئمة اليعاربة ، وأفلاج فى عمان وهى يسيرة بالنسبة الى أموال بنى نبهان ، ولحق بها بعض الأموال كأموال بنى رواحة ، وأموال بعض آل بوسعيد ، التى غرقها الإمام عزان ، وأموال بعض عتاة أهل عمان .

وعمان أيام الإمام عمر بن الخطاب كانت غاصة بأهل العلم ، وكلهم وافقوا على ذلك التغريق ووأمضوه ، لما صح لديهم من أعمال بنى نبهان الذين استمرءوا الظلم وركنوا اليه ، والله يملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ، وسحق الله الظلم ومحا أرسمه فى قوم عاد وفرعون وقوم لوط وأصحاب الأيكة ، كل ذلك بسبب ظلمهم ، والظلم لا تبنى عليه دار والعياذ بالله .

وسأل الإمام محمد بن اسماعيل عن الأموال التى غرقها الإمام عمر بن الخطاب من أموال بنى نبهان ، ما وجه تغريقها ؟ وما هو العمل فيها ؟ وهذا معنى السؤال يتضمنه جواب الشيخ العالم أحمد بن صالح ابن عمر بن أحمد بن مفرج ، يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ليعلم الواقف على كتابى هذا من المسلمين ، أنه قد سألنى الإمام المعظم الهمام المكرم إمـام المسلمين محمد بن اسماعيل عن أموال بنى نبهان ، وحوز المسلمين لها ممن تقدمه الأئمـة مثل عمر بن الخطاب بن محمد ، وكيف سبب حوزهم ؟ وهل عندك حفظ ممن تقدم من المسلمين والأئمة المـاضين أنهم بماذا أحلوها لهم ؟ وبأى وجه دخلوا فيها ؟ أفأجبته بما حفظته ووجدته ونظرته فى ورقة فيها خطوط المسلمين ، وفى تلك الأيام علماء وفقهاء أخيار ، نظروا فى بنى نبهان أنهم أخذوا أموال المسلمين ، وسفكوا دماءهم ، وصار جميع ما أصابوه من الأموال والدماء والقتل ، وصاروا لم يعرفوا لكل ذى حق حقه ليعطوه إياه ، ولم يعرفوا لها أهلا .

وقد قال المسلمون : إن كل شىء لم يعرف له أهل فهو راجع الى الفقراء ، والإمام أولى بكل شىء مرجعـه الى الفقراء من الصـدقات والوصايا وغيرها ، فهو أولى بذلك ويجعله فى عز دوله المسلمين ، وبهذه الحجة أجازوها وأحلوها للإمام عمر بن الخطاب ، فجعلت تنتقل من إمام الى إمام الى يومنا هذا ، ولم يعب أحـد ذلك ، وكان فى ذلك الأوان جمة من العلماء الأتقياء ، البلغاء الفصحاء ، فهذا حفظى عنهم ، ونظرت خطوطهم فى الورقة المتقدم ذكرها ، والحق أحق أن يتبع ، وما بعد الحق إلا الضلال ، ولا توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ولا حـول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، كتبه العبد الفقير تعالى أحمد بن صالح ابن عمر بن أحمد بن مفرج بيده ، وصلى الله على رسوله محمد النبى صلى الله عليـه وسلم .

وقد أجزت للإمام المقدم الذكر أعزه الله ، حوز هذه الأموال المقدم ذكرها اقتفاء لمـا تقدم من الأحكام من العلماء الأبرار الأتقياء الأخيار ، ولا حجة لمحتج على الإمام فى حوزه لها ومنعه إياها ، إذ هو مقتف أثر

غيره من الأئمة المـــاضين ، وحكم العلماء المتقدمين ، ولا عليـــه مطعن لطاعن ، ولا حجة لمحتج ، والسلام على من اتبع الهدى . كتبه أحمد بن صالح بن عمر بن أحمد بيده ، وصلى الله على رسوله محمد وآله وسلم تسليما كثيرا ، وسجل عليه وصححه الشيخ أبو القاسم بن شائق بن عمر بيده ، وصححه الشيخ سالم بن راشد بن خاتم ، وصححه أيضا وثبته الشيخ سليمان بن أبى القاسم بن محمد ، وحكم بصحته أيضا الشيخ خالد بن سعيد بن عمر بن اسماعيل ، وحكم بصحته أيضا الشيخ عمر بن موسى ، والشيخ راشـــد بن غســـان .

واستمر العلماء الأبرار والقادة الأخيار كل من وصل إليه ذلك الحكم أثبته وأمضاه وأوجب العمل به واعتمده الجماعة على التوالى ، ذلك لأن جماعة بنى نبهان خلطوا المظالم كبيرها وصغيرها أرضها وماءها ، وغللها وحيواناتها ، وأصولها المنقولة وغير المنقولة ، والدماء بأنواعها ، والحل والمنازل ، وكل ما يطلق عليه اسم مال ، اذا أرادوه طردوا أهله عنه ، وناهيك بأعمال خردلة فى سمائل ، وقد مرت عليك الإشارة .

وهكذا كان الحال من القوم طيلة تلك المدة التى عاشها النبهانيون ، وهذا عملهم ، فلما رأى العلماء تراكم الضمانات ، وتزاحم الجنايات ، ورأوا أن انتزاع المظالم من الظالم ، وردها الى صاحبها المظلوم ، عسر عليهم معرفة أموال زيد من أموال عمرو ، واختلاف أنواع المظالم وتداخلها على بعضها بعضا جعلوها مجهولة الأرباب ، ومجهول الأرباب محل مخرجه الفقراء ، وما كان محل الفقراء من هذه الأنواع فهـــو راجع الى نظر الإمام فى زمن وجـــوده يفعل فيه ما يراه حقا ، ورأى الإمام إنفاذ تلك الأموال فى عز دولة المسلمين ، أعم منفعة وأعلى شأنا ، وأولى مخرجا حيث عز الدولة يشترك فيه العـــامة من المسلمين ، فصارت تلك الأموال بيت مال المسلمين منذ ذلك العهد ، حتى الســـاعة .

ولا يخفى أن المسلمين لم يكونوا مختصين بهذا العمل دون غيرهم ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أول من وضع حجر زاوية التغريق ، ومبنى ذلك على أعمدة التحقيق ، وحكم فى عهد خلافته والمسلمون متوافرون ، وأهل الحق من أجلة الصحابة حاضرون ، وله موالون ومؤازرون ، ولم ينكروا شيئا من هذا العمل ، بل رأوه حقا وصوابا ، وعلى ذلك بنى أئمة عمان الإباضيين المخلصين أحكام تغريق أموال الجبابرة الظلمة ، ومازال ذلك جاريا والعمل عليه ، وقد عمل به فى المتأخرين الإمام عزان بن قيس ، ثم تبعه الإمام سالم بن راشد ، وأقره العلماء ، وفيه ألف العلامة أبو مالك عامر بن خميس المالكى غاية التحقيق فى الانتصار والتغريق ، والله أعلم به •

وبعد هذا الإمام الخروصى أعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عمل به الإمام محمد اسماعيل كما سوف تقف عليه إن شاء الله •

وتوفى الإمام عمر بن الخطاب رحمه الله ورضى عنه فى نزوى •

إمامة الإمام محمد بن سليمان بن أحمد

لما انتهت الأمور النبهانية ، وتقرر حكم تغريق أموالهم ، وانطبق عليه المسلمون ، وتمت الحجة على ذلك ، اختار الله عز وجل لعبده ما عنده ، فتوفى الإمام عمر بن الخطاب ، وبقى فى نفوس أهل الباطل من السوء ما بقى كما عرفت ، بايع المسلمون محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج القاضى البهلوى ، ولم يطل عهده فإنه من المحتمل أنه رأى الأمور تنظر إليه شزرا بحيث سبق من آبائه تغريق أموال الملوك النباهنة ، والملوك مرهوبون من قبل سواد الأمة ، فاعتزل عن الإمامة أو أنهم عزلوه للأحوال التى يلاحظ وميض نارها وما كل مجتهد مصيب ، فإن من الناس من لا تواطئهم الأحوال ولا تثبت لهم بحال ، ولا سيما اذا اختلفت آراء الأنصار ، فإن الإمام بأنصاره ، أما وحده فلا يقدر على فعل تشترك فيه الأمة ، وهناك أحوال تتلاعب فيها الأهواء والأمر لله .

إمامة عمر الشريف

من الأمور التى يقف لها الانسان حائرا مثل إمامة محمد بن سليمان الآنف الذكر ، وإمامة عمر الشريف فإنهم لم يعرفوا بهذا الرجل ولا بلقبه المشـــار اليه ، ولا ممن هو من القبائل ، وعلى الأقل من أى البلاد هــو حتى يعلم عنه شىء يحسن السكوت عليه ، وأقام عمر الشريف فى إمامته سنة كاملة ، ثم لمــا خرج من نزوى الى بهلى ، بايع أهل نزوى إماما بعده ، وهــذا ليس من الحق فى شىء ، فإنه كان قصر أو رأوه عاجزا عليهم أن يقووه وإلا فعليهم أن يحتجوا عليه ، ويبينوا له وجه الأمــر الذى يعدوه ، فيقتنع ويكون لهم معذرة عند الله وعند العباد ، أما كون إمامهم خرج الى بلاد لإصلاح أحوالها ، فلا يعلم إلا وإمام آخر قام عنه •

فهذا الحال شبيه بلعب الصبيان لا يرضاه الدين ولا الإيمــان ، ومن العجائب أنهم لمــا تركوا الإمام محمد بن سليمان بن أحمد الذى اعتزل عن الإمامة ، رجعوا إليه فبايعوه مرة أخرى ثم لم يعرف ماذا صار عليه ، فلم يذكروا من أحواله شيئا ، ولعلهم ذكروا فضاع المذكور كما ضاع الكثير من التاريخ العمانى ، أما كون الأمور على هذا الشكل ، فمن القبائح التى ليتها لم تكن ، فإن هذا العهد تبص فيه نار النباهنة تحت الرماد •

إمامة أحمد بن عمر بن محمد الزنجى

لـــا انتقض بناء إمامة محمد بن سليمان المفرجى ، وإمامة عمر الشريف ، بويع بها أحمد بن عمر الزنجى البهلوى ، ولم يذكروا عنه شيئا إلا أنه مات ، ولم يذكروا فى أى تاريخ مات ، ولعله مات حتف أنفه قبل أن تكون له أحوال ، وقبره بنزوى ، هــذا الذى ذكروه عنه فقط والله أعلم بما هناك .

إمامة الإمام أبى الحسن بن عبد السلام

إن أبا الحسن كان من نزوى ، وكانت نزوى تضم كنوزا من أهل التقوى ، ورجال الدين والإيمان ، ومنهم ابن أبى الحسن بن عبد السلام ، ولآبائه ذكر فى أهل الفضل بنزوى ، ومضى لابن الحسن فى إمامته سنة واحدة ، فخرج عليه سليمان بن سليمان النبهانى •

قلت : هنا يتبين ما توخيناه من عزل الإمام محمد بن سليمان ، وعمر الشريف ومن بعدهما ، فإن الوميض النبهانى يلمع تحت الرماد بانتقاد ، ولـــه من أهل البغى أعضاد ، ومن الجهلة والعوام أنصار وأجناد ، ولم يبينوا عنه شيئا ، والذى يفهم من الأحوال أن السلطان عادت له قوة طرد بها ابن عبد السلام ، وتولى الأمر واستأسد ، ولم تقم لابن عبد السلام قائمة ، فإنهم ذكروا عن سليمان المذكور بعد هذا القيام الذى قامه على أبى الحسن بن عبد السلام ، هاجم امرأة من أهل نزوى خرجت لفلج الغنتق حيث اعتادت النساء يخرجن لحوائجهن فيه ، فما شعرت إلا وهذا الظالم وراءها ، فهربت من الفلج عارية تستجير وتستغيث ، ولا يقدر أحد أن ينجيها مما يدل على تسلط سليمان بن سليمان مرة أخرى •

ولم يعتبر بالحال الذى صار عليه ولم يتعظ بما وقع من الإمام عمر ابن الخطاب ، حتى تجرد له محمد بن اسماعيل كالمخاطر بنفسه ، فصرعه على الأرض حتى تفر المرأة المسكينة الضعيفة من هــذا الجبار الذى يتهجم عليها كالجمل الصائل بئس الفعل وبئس الرجل •

إمامة الإمام محمد بن اسماعيل الحاضرى

إن الإمام محمد بن اسماعيل بن عبد الله محمد بن اسماعيل الحاضرى ، وهو معروف النسب مذكور فى التاريخ العمانى ، فلا حاجة الى إيراد نسبه هنا فهو من قضاعة بن مالك بن حمير ، كان هذا الرجل بطلا ملأه الله إيمانا ، وشد قلبه وأيده بروح من عنده ، ومن ينصر الله حقا ينصره الله على أعدائه .

رأى محمد بن اسماعيل تلك الضعيفة التى لا مجير لها من هذا الجبار الذى هتك سترها وانطلق وراءها جهارا ، عند هذا فضل محمد بن اساعيل رحمه الله الموت على الحياة لأنه يعلم أن الرجل غير تاركه حيا ، ولكن من حسن الحظ أن أنعش الله أهل الإيمان ، فقاموا عند محمد بن اسماعيل قومة رجل واحد ، فتداركوا الأمر قبل استئصال الخطب ، ورأوا جرأة محمد بن اسماعيل يخوله الإمامة ، فإن الإمامة من شرطها الشجاعة ، فلا إمامة لجبان ، وكان محمد بن اسماعيل يسكن الحارة الغربية من سكة باب مرار ، لا كما يقول ابن رزيق كان من أهل أزكى ، وأن محمد بن اسماعيل لما صرع السلطان سليمان بن سليمان جرد له خنجره وذبحه .

وقال الإمام رحمه الله : وسبب اختيار المسلمين له أن سليمان بن سليمان هجم على امرأة تغتسل بفلج الغنتق ، فخرجت من الفلج هاربة عنه عريانة ، فجعل يعدو فى أثرها حتى وصل حارة الوادى ، فرآها محمد بن اسماعيل فخرج اليه وأمسكه عنها وصرعه على الأرض ، حتى مضت المرأة ودخلت العقر ، فخلى سبيله ، فعند ذلك فرح به المسلمون لما رأوا من قوته للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فنصبوه إماما ، وذلك فى سنة ست وتسعمائة .

وقام هذا الإمام بعمان قيام الأئمة الكرام والسادة الأعلام ، وآمنت

البلاد فى أيامه ، واستراحت الرعية طيلة أعوامه ، وذلك توفيق من الله عز وجل ، والله يؤتى فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

لمـا تمكن قدم إمامة محمد بن اسماعيل نظر فى أحوال الجبابرة وأعمالهم ، وكان قد عرف عمل الإمام عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، فحكم بتغريق أموال بنى رواحة الذين دخلوا فى أعمال سليمان المذكور ، وقادوه على الناس فى الفتن الآنفة الذكر التى كان يمارسها سليمان ، وولده سليمان فى أهل عمان ، وقادوا أيضا مظفر بن سليمان ، حكم الإمام محمد بن اسماعيل بتغريق أموالهم بسفك دماء المسلمين ، ونهب أموالهم ، وهتك أعراضهم ، وكان العلماء إذ ذاك متوافرين ومتناصرين ، يؤيدون الحق على الباطل ، ولا يبالون عندما يجدون سنوح الفرصة لهم .

صفة الحكم فى أمــوال بنى رواحة

اعلم أن الإمام عمر بن الخطاب ، نظر الى الجبابرة من نبهان ، وأن الجرائم التى إقترفوها تختص بهم ، إذ هم الفاعلون حيث لهم السلطان ، ولم ينظر الى من كانوا لهم أعوانا ، ولا شــك أن لهم أعوانا يقومون بأمورهم ويمتثلون لمــا يرومون فعله ، وما من دولة إلا ولها رجال هم يدها الباطشة ، وهم عينها الباصرة ، وهم لسانها الداعية ، ولكن لم يلتفت الإمام عمر بن الخطاب إلا الى الملوك المذكورين .

والتفت الإمام محمد بن اسماعيل الحاضرى الى الأعوان ، ومن بينهم بنور رواحــة الذين قادوا سليمان النبهانى ، ومظفر بن سليمان ، وكانوا لهم سهاما على عباد الله ، وكانت الواقعة الكبرى بينهم بحممت من وادى بنى رواحة ، وحممت هى التى تسمى الآن الجناة ، وهى الواقعة التى انهزم فيها الإمام ، ثم تلاوم المسلمون وتراجعوا فصالوا عــلى النباهنة ، ومكنهم الله من خضد شوكتهم ، وكسر أسنتهم ، وغل أيدى الضلال بذلك الحكم الذى حكم به علماء دولة ذلك الإمام ، فأمضــاه الإمام المذكور .

وهذا الإمام محمد بن اسماعيل يتمم العملية فيغرق أموال بنى رواحة ، وهى التى فى الجناة وهى أموال معروفة عند أهل عمان ، ولكن لطول العهد وتبدل الأحوال ، وتلاشى الأمور بانحلال السلاطين المذكورين ، رجعت أموال بنى رواحة إليهم ، ولعل بعض الأئمة رأى من الصلاح إرجاعها إليهم فى مقابلة استقامتهم له ، فإن لكل دولة رجالا ، وهــذا مالا يختلف فيه أهل العلم ، فإن الإمام اذا رأى من قوم استقامة لــه

أن يخصهم من بيت مال المسلمين لمـــا يراه من مصلحة المسلمين ، ولكل وقت سياسة ، وكم مال رد لأهله فى عمان بعدما صار عليه القهر من حاكم مصلح فى الأمة ، بل ومن جائر أيضا اذا رأى صلاحه فى تقريب قوم وإبعاد آخرين •

ولكن بقى الفرق بين نظر أهل الفضل وغيرهم ، فقبض الإمام محمد ابن اسماعيل أمـــوال بنى رواحة وأضافها الى بيت المـــال واستغلها طيلة إمامته ، وكذا الأئمة بعده • وحكم هذا الإمام فى إبطال بيع الخيار •

صفة الحكم فى بيع الخيار

لا يخفى أن أئمة عمان مازالوا ولا يزالون مع مقتضيات الشريعة يراعونها فى أدنى النقاط فضلا عن أكبرها ، ولا غرض يهمهم إلا إجراء أحكام الشريعة فى مجاريها مهما كانت ، ومن حيث إن بيع الخيار فيه علل لاتزال معروفـــة ، والعلماء فيه على طرفى نقيض منهم المثبت ومنهم المبطل ، ومنهم المتوقف ، ولذلك عقد الإمام محمد بن اسماعيل رحمه الله مؤتمرا للنظر فى هذا الأمر ، واجتمع معه العلماء ، فكتب كتابا بين فيـــه رأيه فى هـــذا البيع كما فى الأثر ، إنه لمـــا كثرت معهم المعاملات من الربا والفساد والحيل ، فصاروا يظهرون أنهم يتابعون بيع الخيار ، ويجعلونه تغطية على ما أسسوه وأرادوه ، ليكون لهم حلالا فى الحكم الظاهر ، وباطنهم الزيادة للدراهم ، وأخذ الثمرة على قدر ما يسلمون من الدراهم ، اذا قلت الدراهم أخذوا له قليلا ، واذا كثرت أخذوا له كثيراً ، والمراد بكثرة الدراهم وقتها أنه اذا كان البيع معقودا بمائة ريال أخذوا غلة من البائع ، بقدر المـــائة المذكورة ، واذا كان البيع مثلا بألف ريال أخذوا من البائع غلة بقدر الألف ، ولا يريدون مالا مهما كان ، وإنما المراد غلة الدراهم والمبيع حيلة بينهم فقط ، فلا يراعون كثرة المبيع وقلته ، وإنما الذى يراعونه نفس الغلة ، وليس القصد بذلك العقد الأصلى ، وإنما اذا رأوا المدة التى جعل الخيار فيها قد قاربت أن تنتهى زادوا مـــدة أخرى ، ويتظاهرون بذلك كحسن خلق ورأفة بصاحب المـــال ألا يفوته ماله فكأن المـــال باق له ولم يخرج عن ملكه ، وهم يمتصون دمـــه ، إذ يقوم هو بمصارف المـــال ، وما يحتاج إليه من مغارم على أنه ماله ، وهم يأخذون غلته سالمة لا شىء عليهم فيها .

والمراد بالمــال عند العمانيين فى مثل هــذا المقام الأصول ، سواء كانت نخلا وهى المراد عند الإطلاق ، أو مياها أو أرضا أو مبانى ونحوها ، فيبيعونها بالإقالة لــدة سنوات على هذه الشريطة المذكورة ، وربمــا عقد الشـــارى مع البائع الغلة أن تكون كذا وكذا عددا أو نوعا ، وهذا كله حرام محض ، إذ هو ربا فى نظر الشرع لأن المقصــود غلة دراهم معروفة ، وهى باقية فى مال البــائع ، والأقل منهم من يسلم الثمرة للشارى ، فيتناولها غلة له والمــال فى يد البائع ، وفشا هــذا الحال بين الجهال وأهل الباطل ، واستمرءوه ولا يبالون ، وقد صرح الأثر المنقول أن البيوع على ما عقــدت عليه فى الأحكام ، وعلى ما أسست عليه فى الحلال والحرام .

فلما رأى المسلمون والمراد بهم أهل الفضل الذين هم الحجة فى الأرض ، أهل هــذا الزمان همجا رعاء لا يتقون الحرام مع ما يحتاجون اليه من المكاتبة والإشهاد ، خافوا أن يحاط بهم ، وأن يقعوا جميعا فى المعصية إن لم ينهوهم عن ذلك ، ويكونوا كمن قال الله فيهم : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا ما يفعلون) .

العلماء يجتمعون لمراجعة آثار المسلمين فى هذا الصدد

لما كثر القيل والقال فى هذا الصدد ، اجتمع المسلمون الموجودون فى ذلك العهد لمراجعة اثار السلف الصالح ، وما قرره العلماء فى مثل هذا البيع المشار اليه ، وهم المشايخ الفقهاء الاجلاء ، ذين هم القدوة إذ ذاك ، وفى مقدمتهم مداد بن عبد الله بن مداد العقرى النزوى ، والفقيه عبد الله بن محمد بن سليمان عمر النزوى ، والقاضى أبو غسان بن ورد ابن أبى غسان البهوى ، وعمر بن زياد بن أحمد البهلوى ، ومحمد بن أبى الحسن بن صالح بن وضاح المنحى ، وجماعة آخرون ممن كان من أهل العلم عند الإمام العادل الكامل العاقل محمد بن اسماعيل — نصره الله — بقرية نزوى ، وطالعوا الاثار ، رأى الواردة عن أهل العلم السابقين والأئمة الماضين ، المسندة الى سيد المرسلين نبينا محمد ، صلى الله عليه وآله وسلم ، الوارد بها الوحى المبين عن رب العالمين ، فوجدوا فيها أن غلة بيع الخيار حرام ، فحكم الإمام رحمه الله ومن معه من العلماء المذكورين ، والفقهاء المشهورين بتحريم غلة بيع الخيار ، وبفساد البيع أيضا ، وأن ذلك أقرب للتقوى وأصح فى التقوى ، وأسلم عند الله من البلوى لقوله عليه الصلاة واسلام : « من أجبا نقد أربا » .

وهكذا ما كتبه الإمام محمد بن اسماعيل رحمه الله فى ذلك ، بعد ما صح معه الدليل ، واتضح لديه السبيل ، قال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لما كان فى نهار الأربعاء لست ليال خلون من شهر جمادى الآخرة أحد شهور سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، قد صح الحكم الصحيح الثابت الصريح من الإمام العادل ، إمام المسلمين محمد بن اسماعيل ومن حضره من المسلمين ، وما أجمعوا عليه ، بأن غلة بيع الخيار لا تجوز ، وأنها حرام وأن المراد بها الثمرة ، وأنها ربا ، ووافق ما نهى عنه النبى صلى الله عليه وآله وسلم « من أجبا فقد

أربا » ، وقد جاء الأثر عن عمرو بن على فى قول المسلمين فى بيع الخيار ، أنه غير ثابت وهــذا قول من لا يراه ثابتا ، فإن الأصل عنده فيه أن هذا بيع وقع على الثمرة لا على الأصل ، ومثل هذا لا يصح فى حكم المسلمين ، لعلل عديدة تتناول هذا البيع بالفساد ، وليس محل بسطها ، وقد ألفت فيه رسالة خاصة سميتها « توضيح المنار فى إبطال بيع الخيار » ، وذلك فى أيام الصبا ، أوردت فيها أقوال العلماء والأحاديث المروية فى هــذا المقام ، مــع شرح لمعانيها وبيان محل الاستدلال بها ، فكانت رســالة جامعة ، وأصبحت الآن لا أعلم عنها أين صارت ، والله حسبى ونعم الوكيل ، أحتسب عنده أجرها ، فإن العناء والتعب الذى ألاقيه حــال التاليف كبير ، إذ لا مساعد ولا فراغ ، وإنما هو صراع للحياة ، والله ولى التوفيق .

وإنما بيع الخيار حيلة على تحليل الغلة ، بل لا أقول على تحليلها إنما هى حرام ، وما كان حراما فى نظر المسلمين لا يزال حراما الى يوم الدين ، وكذلك يقول العلماء الذين يقولون بتحريم هــذا البيع وتحريم غلته ، قالوا : لمــا صح عندنا أن بيع الخيار المراد به الثمرة حينئذ قلنا بفساد ذلك البيع ، وكان هذاالمقال موافقا لنهى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله : « من أجبا فقد أربا » ، والدليل على هذا ما صح عندنا من قوله : إنهم جعلوا هذا البيع طريقا يتوصلون بها الى تحليل الثمرة على الجملة من قولهم ، وأظهروا هذا البيع على تغطية مالا يجوز ، أى تستروا بذلك فى الظاهرة عن إشاعة ركوب المحرم ، فكان قولهم هــذا موافقا للرجل الذى تزوج امرأة فى السريرة تحليلا لمطلقها ، أو كالرجل الذى كان فى نيته فى بيع باعه مكوكا بمكوكين ، أو تمرا بحب ، أو حبا بتمر ، ثم أظهر ذلك عند عقدة البيع أنه بدارهم ، أو كالذى يخطب امرأة فى السريرة ، فأظهر أنه قد عقد عليها نكاحا وأنه قد تزوجها ، وما يجىء بحق هذا وهذا كله ، فقد قيل : إن النيات هن المهلكات وهن المنجيات ، وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنما الأعمال بالنيــات

ولكل امرىء ما نوى » وقال عليه الصلاة والسلام : « نية المؤمن خير من عمله ونية الفاجر شر من عمله » •

لما صح عندنا أن المراد بالبيع الخيار الثمرة ، وإنما جعلوا هذا طريقا فيما عزموا للتغطية على تحريمها ، والدليل على فساد هذا : أن كل هذا البيع وقع لنخلة فكانت الثمرة لربها ، وإن كان البيع المراد به الثمرة فقد وافق هذا البيع قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « من أجبا فقد أربا » فهذا أحد وجوه الفساد فى ذلك •

والوجه الثانى : مثله ، كمثل رجل تزوج امرأة ثم طلقها ثلاثا فتزوجها لاستحلالها لزوجها الأول ، أى ليحللها لزوجها الأول ، فهذا مما قال بفساده المسلمون على الزوج الأول والزوج الثانى •

والوجه الثالث : رجل وافق رجلا على شراء حب أو تمر من عنده المكوك بمكوكين ، أو تمرا بحب ، أو حبا بتمر ، ثم أشهد على نفسه بدراهم فهذا أيضا حرام لما كان فى السريرة من الفساد ، قال : فهذا قولنا فى بيع الخيار والله أعلم •

هكذا جاء الأثر كتبته كما وجدته منها ، وهذا تقرير الإمام لهذا المكتوب ، يقول رحمه الله : نعم ما كتب على فهو من إملائى ، والحق أحق أن يتبع وما بعد الحق إلا الضلال ، وكتبه لله سبحانه الإمام محمد ابن اسماعيل بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل الحاضرى بيده حامدا لله وحده ، ومصليا مسلما مستغفرا •

وهذا تأييد العلماء إذ ذاك لهذا الحكم ، يقول الشيخ مداد بن عبد الله بن مداد بن محمد : صحيح ما حكم به الإمام من تحريم غلة بيع

الخيار ، فهو الحق والصواب موافقا لآثار المسلمين من السلف ، وبذلك جاء الأثر وعليه العمل ، كتبه العبد الفقير مداد الخ .

وبمثل ذلك أيضا قال الشيخ محمد بن أبى الحسن بن صالح بن وضاح نصا بعينه ، وكذلك أيضا الشيخ العلامة عبد الله بن محمد بن سليمان ، وكذلك عن الشيخ العالم أبى غسان بن غسان بن أبى غسان ، ويمثل ذلك النص أيضا كتب الشيخ العلامة عبد الله بن عمر بن زياد بن أحمد ، ، وكذلك أيضا كتب الشيخ العالم أحمد بن مداد بن عبد الله بن مداد ، وكلهم على عبارة واحدة ، وكلهم بنص فى عبارته بعدل الإمــام محمد بن اسماعيل .

واذا كان هؤلاء العلماء الأجلاء يشهدون لهــذا الإمام بالعدل ، فما وجه ما يقوله بعضهم من أن الإمام محمد بن اسماعيل له أحداث استوجب بها البراءة ، وأحمد بن مداد بنفسه يصف الإمام محمد بن اسماعيل بالإمام العدل ، ثم يعود يقول إن لمحمد بن اسماعيل أحــداث استوجب بها البراءة عنده ، من ذلك أن جبى الزكاة من رعيته بالجبر من غير حماية منه لهم ، وغير منع من الجور والظلم .

قلت : إن صح ذلك فمن لمحمد بن اسماعيل أن يقوم به على ردع أهل الجور والظلم ، وقوته يستمدها من أنصاره الذين هم حجته على عدوه ، وكيف تتسنى لمحمد بن اسماعيل الحماية ولا مال بيده إلا الزكاة ، والزكاة لا ينالها إلا بالجبر من أهل الأموال ، ولا مال له بنفســه ، ولو كان له مال أيلزمه أن ينفقه فى تقويم دولتهم ؟ وهل المسئولية عليه أكبر من المسئولية على أنصاره ؟ أما علموا ما قام به محمد بن اسماعيل فى

اعتراضه لذلك الظالم الذى يطارد المرأة فى الشارع ، وهى كما فى بعض القول عارية ، ولا يقدر أحد أن يجيرها منه ، فتجرد هذا البطل لذلك الجبار ، ولابد أن يكون متوقعا للخطر منه ، وقد عرفت أعمالهم فى أهل العلم والفضل ، وعرف ظلمهم وجورهم ، ومتى يمنع محمد بن اسماعيل الناس عن الظلم والجور ، وهذا حال أنصاره ، واليك سرد الأحـداث المشـار اليها والتعليق عليها .

الأحداث المعدودة على الإمام محمد بن اسماعيل

لقد عرفت ما قيل آنفا إن الإمام محمد بن اسماعيل جبى الزكاة من رعيته بالجبر من غير حلية منه لهم ، وغير منع من الجـور والظلم ومنها جبر رعيته على شراء الزكاة من ثمرة النخل بما تقومه عماله من الدنانير ، وأخذ تلك القيمة بالجبر منهم ، ومنها أنه جبى المعاشير غـير الزكاة دنانير بقيمة ثمرة النخل من أموال رعيته بما تقومه أعوانه وعماله من الدنانير ، بالجبر من رعيته اليتامى والبالغين والأرامل وغـيرهم ، لنفسه وعماله وأعوانه وأضيافه وعياله هدرا وقرضا بالنية •

ومنها أنه جبى الخراج وأخذ الكسرة وهى المغرم المقدر للجبابرة من أموال رعيته بالجبر على الخوف ، وخشية الظلمة على دولته ونفسه ورعيته وأموال رعيته أ هـ •

هذا ما عده عليه المنتقد لأعماله ، ولا شك أنه ليس الجبر كالمعاينة ، فإن أولئك الرجال هم المبتلون بما هنالك ، أما شراء الزكاة من النخل بما تقومه العمال ، فإن كان هؤلاء العمال أمناء ، واتفقوا على تثمين الزكاة فهذا وجه يجـوز بحسب ظاهر الحال ، وقد أجازه العلامة الخيلى للإمام عزان بن قيس رحمهما الله ، وعمل به فى عهدنا الإمام محمد بن عبد الله الخليلى رحمه الله ، ولم ينكر عليه أهل العلم الذين هم فى منزلته العلمية ، وهم كثيرون ، يضيق المقام بذكرهم فردا فردا •

واذا اتفق العمال وأهل الأموال على ذلك ، جاز إجبارهم فى تسليم ما اتفقوا عليه حقا لله عز وجل ، لا سيما لتقويم دولة المسلمين ، واذا لم يجبرهم بعد الاتفاق ، وأصروا على عدم التسليم ، فماذا يصنع بهم ؟ ولا يتصور الاجبار إلا بعد الإصرار ، والعمل ما داموا أمناء الإمام فهم أمناء المسلمين ، لأن من تحت راية العدل فحكمه العدالة ، ويجب أن يحسن به الظن ، والمعاشـير التى يذكرونها إن كانت هى المعروفة

بالعشور التى تؤخذ من المبيعات بالأسواق فهى حق المسلمين ، تكون كأجرة على استعمال أرض المسلمين ، أى أرض بيت المال ، وهذا أمر جار لا سيما فى مواضع الخراج •

ولا شك أن ما وجب فى الأموال عم الكل ، فاليتامى والأرامل والغياب ونحوهم كلهم فى ذلك سواء ، وقولهم : وجبى الخراج فإن ما حل لغيره من الأئمة فله أيضا حلال لا فرق بينه وبين غيره ، هذا اذا احتاج ، أما اذا أغناه الله فالزكاة لا حق له فيها ، وإنما شرعها الله لأصناف مخصوصين ما لم يكن الإمام أحد الأصناف المذكورين ، واذا احتاج الإمام الى الزكاة كانت حاجته مقدمة على حاجات الفقراء والمساكين ومن إليهم نزل الإمام منزلة المسلمين كلهم لينظر فى المصلحة العامة للأمة ، أما أخذ الكسرة التى تجعل للجبابرة دفاعا لشرهم ، فالإمام حاشاه أن يرضى بأخذها ، اللهم إلا إن كانت مما احتمل الحق والباطل ، ولم يترجح أحدهما على الآخر ، واضطر لأخذها جاز له أخذها للضرورة ، ولاحتمال أن تكون حقا ، وليس كسرة يتولاها الجبابرة تكون حراما ، فلعلها كسرة كانت لوجه بر ، فتولاها جبار جائزا لها عن أهلها الذين وضعت لهم ، فاذا جاء الإمام المحق حق له أخذ ما وضع لوجه بر ليصلح به شئون المسلمين •

ولا شك أن بقاء دولة المسلمين أولى من ذهابها ، ولا شك أن الدول تحتاج الى المال ، فما كان لفقراء المسلمين وما أخرج لوجه ، وحتى الكفارات التى يوصى بها المكفرون اذا رأى الإمام الحاجة إليها فهو أولى بها من غيره لصيانة دولة المسلمين ، ومن ذا الذى يبيع ماله لينفقه على إمام المسلمين ودولته • بل الأمة بطبيعتها تطالب الإمام لينفق عليها وهذا هو المعروف غالبا من أحوال الأمة • وهذا الإمام الحضرمى رحمه الله يقول :

كل من طالبت منهم قــال لى
كم لى وكم لابنى وكم لامرأتى
حتى اذا مــا قلت أبشر بالعطــا
انهض وشــمر قال قبــــلاهاتى

هذا هو غالب حال الأمة إلا ما شاء الله •

قال الإمام رحمه الله وهو يذكر أحمد بن مداد الذى يعد على الإمام الأحداث : « وقد أطال فى الاستدلال على أبطال هذه الأشياء بأمــور مسلمة عند الفريقين » أى هى بحسب ظاهرها لا تبعد عن منهج الحق ، ولكن لابد أن للإمام فيها وجها هــو أحق ، لأنهم وصفوه بالعدل ، فهم مجمعون على عدالته ، ومتفقون على صحة إمامته ، وأى إمام سلم معهم من الانتقاد منذ الجلندى بن مسعود رحمه الله •

قال الإمام : وما أدرى ما يقول المنتصر له فى بعض هــذه الأمور ، فإنها لا تخرج على شىء من أقــوال المسلمين ، قال : ولعلهم ينكرون وقوع ذلك منه ، وكان هذا الإمام السالمى رحمه الله ، أشار الى ذلك أول الكلام حيث قال : وكان أحمد بن مداد يذكر لمحمد بن اسماعيل أحداثا استوجب بها البراءة عنده ، وكان غيره من بعض معاصريهم يعتذر لمحمد بن اسماعيل فى ذلك ويحتج له بحجج لا يسلمها أحمد بن مداد ، ويقول هنا أيضا : ولعلهم ينكرون وقوع ذلك منه ، ويحتجون للبواقى بالترخص ببعض الرأى المــأثور عن المسلمين ، لأجل الضرورة اليه • قال : أما الجباية والخراج فلا يجتمعان أصلا ، ليس للإمام أن يجبى أرضا يأخذ الجبار خراجها إلا اذا حماها ومنع الجبار من خراجها ، ورفع اليد عن مظالمها ، وأنصف بعضها من بعض ، فها هنا تطيب له الجباية بالقهر ، لأنه قد حماها وأقام فيها العدل ، وكذلك أخذ العشور من الأموال التى لا زكاة فيها ، فإن ذلك لا يجــوز ولا يقبل الرأى ، فإن صح هــذا أن أحــدا فعله واستتب فلم يتب ، فإنه يكون خليعا أى اذا كان إماما

وقارف ما منعه منه الشرع ، واستتيب من ذلك الذى فعله ولم يتب ، فقــد ركب محجورا تسقط به إمامته لأنه يصــير عاصيا محتاجا لأن ينتصف منه •

قال الإمام : لكن لا يكون ذلك بالدعوى خصوصا على الأئمــة ، فإنهم أعظم حرمة • قال : وأما القرض فقد احتج له من احتج ، ورخص له من رخص ، لأجل الخوف على الدولة ، ولا يرى ذلك الفقيه أحمد بن مداد ، وأنه كان يبرأ من العامل والمرخص •

قلت : ليس له أن يبرأ ممن عمل بما رآه المسلمون واسعا فى الرأى فيمــا يصح فيــه الرأى ، قال : وأما الخرص للثمار ، فإنه وإن كان الأصحاب على غيره فلا يخرج عن دائرة الرأى ، لكن جبر الرعية على تسليم الدنانير عن الزكاة المخروصة فى رؤوس النخل شىء لا يجوز •

هذا تحرير المقام فى هذه القضايا التى ابتلى بها الأئمة فى معاناة أمــور الأمة ، إن أقدموا على شىء تدعو اليه الأحوال الضرورية نوقشوا من جهة من ابتلاهم بالأمر ، أو من أمثالهم ، وإن سكتوا أصيب الدين والدنيا بجبار لا يردعه دين ولا ضمير ، ولا يتجنب أى مركب يجده ، فتذهب بذلك دولة المسلمين ، وينهار صرح الدين ، والأمر لله •

وقد عاش الإمام محمــد بن اسماعيل الى سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة ، فكانت إمامته ستا وثلاثين سنة ، وبعد موته حالا بايعوا ولده بركات •

الإمام بركات بن محمد بن اسماعيل

لمـــا قضى الله على الإمام محمد بن اسماعيل فى التاريخ المذكور بنزوى ، وكان فى مقدمة العلماء اذ ذاك العلامة عبد الله بن عمر بن زياد الشقصى النزوى ، ومحمد بن أحمد بن يفسان ، فقام ضده الفقيه أحمد ابن مداد ، لأنه لم يرض إمامته ، وطعن فى إمامته ، وعلى كل حال إن الطعن فى إمامته طعن فى العاقدين عليه ، وتبرأ ابن مداد من هذا الإمام ، وممن نصبه لأنه ليس بولى عنده ولا بأهل للإمامة ، وذلك لولايته لأبيه على أحداثه التى ذكرها عنه وأنه عمل بأحداث أبيه من بعده ، وقلده فى ذلك .

هذا هو جرم بركات عند هذا الفقيه ، وهنا سوف تتكشف المصائب التى يقع فيها الناس ، ويتلاشى بها الدين الحنيف ، وتعود الأمور الى شر ما عاد ، وهذا الذى نشير اليه ، ولكن لا راد لأمر الله عز وجل .

بقى بركات فى إمامته عند المرتضين له حتى سنة ٩٦٤ أربع وستين وتسعمائة ، وفى هذه الآونة عادت السلطة النبهانية تعود سيرتها الأولى ، فإنه سيأتى أن سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان ، تولى نزوى فى هذا التاريخ ، وذلك لاختلاف الكلمة والأمر لله عز وجل .

فكانت إمامة بركات يقرب عهدها من إمامة أبيه ، إلا أن أباه كان إمام عمان كلها ، وكانت شوكة الجبابرة منكسرة ، ودعوتهم خامدة ، ولكن نتيجة للخلافات التى أتت هنا مكنت النبهانية العودة الى معاهدها .

إمامة عمر بن القاسم الفضيلى

عندما سخط الشيخ الفقيه أحمد بن مداد على بركات ، ورأوا أن الأمــور الآن ميسورة ، ومتناولها قريب ، وإقامة إمام يرتضى ضــد إمام غير مرتضى كذلك ، بايع هــذا الفريق الساخط على بركات عمر بن القاسم المذكور ، فقام هــذا الإمام فى عهد بركات ، وبقى الناس بين إمامين متضادين متخالفين متخاصمين ، وأحزابهما معهما ، وكل يرى صاحبه البطل والآخر المحق .

وقال الإمام ، وغيره من أهل العلم : إن أحمد بن مداد يثنى على الإمام الفضيلى ويحمد سيرته ويتولاه ، قال الإمام : وذكر غيره أى ابن مداد أن المسلمين رضوا إمامته ، قال : ولم يؤرخوا وقت بيعته ولا وقت وفاته .

قلت ، ولا ذكروا شيئا من أعماله وأين بويع وأين حل ؟ وماذا فعل ؟ فإن هذا الوقت رقصت فيه أيضا إمامة أخرى ليتم ما قضى الله فى غيبه ، فإنهم بايعوا فى هذا الأثناء عبد الله بن محمد القرن ، وكأنه واسطة بين الفضيلى وبركات والله المستعان .

إمامة عبد الله بن محمد القرن

قام فريق يرى له فى النظر ما ليس لغيره فقدموا عبد الله بن محمد القرن من العنصر الهنائى ، ولم يذكروا ماذا فعل الإمامان القائمان قبله ، ولا ما آل اليه أمرهما ، وهذا من البلاهة • بمكان يعرفه كل انسـان ، وهنا ترى ثلاثة أئمة فى بلد واحد ، وفى مذهب واحد ، وحوزة واحدة ، والأثر يقول :

وباطل سـيرة فيهـا الإمامة فى
اثنين لو بلغا فى المجـد ما كملا

وأنت تدرى هنا ثلاثة أئمة فى عهد واحد ، إنها لمصيبة تقضى على الدين كما أشار الى ذلك القرآن حيث يقول : (ولا تنازعوا فتفشلوا) وأى تنازع أكبر من هـذا ، وأى فشل مما وقعوا فيه بعد ذلك ، إذ أديل الجبابرة مرة أخرى وضعوا أيديهم على ما شاءوا ، وكانت البيعـة لعبد الله بن محمد القرن فى منح يوم الجمعة لخمسة عشر يوما من رجب سنة ٩٦٧ سبع وستين وتسعمائة ، وكأنه خرج من منح الى بهلى ، فدخلها لليلتين بقيتا من هذه السنة ، أى بعد مضى خمسة أشهر وثلاثة عشر يوما منذ وقعت له البيعة ، فأخذ بهلى من آل عمير ، وكان آل عمير قد اشتروا حصنها بثلاثمائة لك من محمد بن جيفر بن على بن هلال الجبرى ، وكان محمد بن جيفر المذكور قد أخذ هـذا الحصن بالغلبة من عامل بركات ، وهذا يدل أن محمد بن جيفر عارض بركات حين رأى الأمـور تسير على ورائها ، واذا هبت الرياح العواصف قام كل أحـد يلتقط نصيبه ، فمن العامل بركات أن يكون معه وبركات نفسـه •

ولا شك أنه عندما يتبعثر الأساس ينهار البناء طبعا ، قال الإمام : وكان دخول آل عمير حصن بهلى يوم الثلاثاء لتسع ليال بقين من جمادى

الآخرة سنة ٩٦٧ سبع وستين وتسعمائة ، فما لبث آل عمير فى بهلى إلا يسيرا حتى أخذه منهم عبد الله بن محمد القرن ، وفى ليلة الأربعاء لثلاث بقين من رمضان سنة ٩٦٨ دخل الإمام بركات بن اسماعيل حصن بهلى ، وأخرجوا منه عبد الله بن محمد القرن ، وبنصب الأئمة فى وقت واحــد تشتت الكلمة ، وتفرقت الجماعات وضعفت دولة المسلمين ووهت قوتهم وطمع فيهم من كان لا يطمع .

تفرق ملك عمان الى رؤساء متعددين

لا يخفى أن التنازع فى الأمــر داع للفشــل ، ومسبب للوهن ، ومازالت علة المسلمين فى دينهم تفرقهم ، واختلافهم فى الأمور واجتذابهم لأمراس الشقاق ، وأخذهم يمينا وشمالا ، وقد قرأت فى هذا التاريخ أحوالا من ذلك ، وعلمت ما صار اليه أمر المفترقين ، وما انتهى إليــه الحال ، وقــد التأم حالهم حين اجتمعوا مع الإمام عمر بن الخطاب ، فنصرهم الله عز وجل حتى سحقوا دولة السلاطين النباهنة ، وتمكنوا من خضد شــوكة البغى ، وقطع شأفة الفساد ، ثم تراهم سرعان ما اختلفوا فى أمرهم ، وراحوا ينصبون الأئمة ويتجاذبون الأمــور ، ويتخاذلون فيما بينهم ، وكل فرقة ترى الحق لها ، وترى أنها أولى بالأمر من غيرها . وبهذا الحال أصبحوا فى انحلال ، فتراهم يبايعون إماما ثم لم يشعر إلا وإمام آخر يقوم خلفه ، وبذلك تفككت القوى ، ووهنت الأمور ، وأصبح العدو يطمع فى القهر على أهل الحق ، فكانت العاقبة غير محمودة ، والله يقول لنا فى كتابه العزيز : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أى قوتكم ، وحكمة الله بالغة ، ودعوته نافذة ، ولو أغضى المسلمون لشر رأوه مخافة الوقوع فيما هو أضر ، لكان أولى بهم وأبقى لدولتهم ألا ترى أنهم لمــا غاضبوا عمر بن عبد العزيز وخرجوا عنه على الحال الذى رأوه لامهم إخوانهم ، وما زالوا يلومونهم الى الآن ، وكذلك الحال فى قضية خازم ابن خزيمة مع الإمام الجلندى رحمه الله ، وإن كانوا رأوا أمرا يوجبه الشرع ويقتضيه الدين ، فالشرع والدين يدعــوان الى ارتكاب أخف الضررين وقول الحكيم :

إن الــكريم اذا ألم بجسمــــه
مرضان مختلفان داوى الأخطــرا

فالتغاضى والاحتمال لأمر فى مصلحة أعلى منه وأنفع وأولى ، وهذا شىء قرره القرآن والسنة والمعقول ، ولكن اذا حل القدر عمى السمع

والبصر ، وصغار العقول هم الأكثر واليهم يرجع السواد الأعظم ، فيرى الأقلون أنهم مغلوبون فيخضعون لما يرون ، وبهذا ينزل الضعف على الجسم الإيمانى وتسرى ناره فيه والأمر لله ..

وفى هذه الآونة ثارت الروح النبهانية الى العرش العمانى مستغلة ذلك الافتراق ، وما خرج عنها قام له آل هلال رهط الجبور وآل عمير ، وللهديفى نصيبه ونصيب آخر لرجال آخرين من هناءة بن مالك ، والداهية هى البرتغال إذ ذاك ، جاءت تسحب قواتها وتجر جحفلها لتأخذ نصيبها من المملكة العمانية ، فإنها دخلت وآن حصادها ، فهـذا لاقط وهـذا شارى ، وهـذا بائع ولكل درجات مما عملوا ، فكان الإمام بركات بن محمد بن اسماعيل فى الوجود ، واسم الإمامة مرقوم على صحيفة إمامته والقوم يقتسمون المملكة ، فكان فى هذا الأوان لسلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان ملك نزوى وتوابعها ، وكان لفلاح بن محسن ملك ينقل وما يتبعها ، ولعرار بن فلاح ملك بهلى وتوابعها ، وكان لمهنا بن محمد الهديفى ملك صحار وما إليها ، وكان لعرار بن فلاح ملك الظاهرة ، وكان ينوب عن سليمان بن مظفر فى بهلى ، وكان لعمير بن حمير ملك سمائل وتوابعها ، وكان لمالك بن أبى العرب وهو جد الإمام ناصر بن مرشد ، وهو من العنصر النبهانى ملك الرستاق ، وكان لنبهان بن فلاح ملك القنيات .

وتولت البرتغال الساحل ، هذا مآل ملك عمان فى هذه الآونة التى أعقبت خلافات أهل عمان فيما بينهم ، وتلاعبوا بنصب الأئمة كما بيناه آنفا والله عز شأنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

بقى هؤلاء الأمراء والرؤساء يتزعمون الملك ، وكل واحد منهم يرى أنه الأحق بالملك والأولى بالسلطان ، واختلفت الأهواء ووقع الذل المرير على أهل الفضل فى عمان ، وكاد سلطان المسلمين لا يبقى له أثر ولا تقوم له قائمـة فى هـذا العهد ، ولله أمر هو بالغه وإن رغم أنف الدهر .

ذكر ملوك النباهنة المتأخرين

اعلم أن النباهنة المتأخرين هم أحفاد النباهنة الأولين ، بقيت فى نفوسهم دعوى الملك وأحقيته دون غيرهم ، لأنهم أبناء السلاطين المتقدمين ، وقــد اقتسموا الملك كما بيناه ، ولكن مازال بينهم تنافس ، ومازالوا يلتمسون الغفلة من بعضهم البعض فاذا أمكنتهم الفرصة اغتنموها وإن لم تمكنهم نكصوا على أعقابهم ورجعوا الى مراكزهم ، وأول هؤلاء الملوك بحسب المعروف سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان •

الأمير سلطان بن محسن بن سليمان وأولاده الثلاثة

خرج هذا السلطان على الإمام بركات بن محمد بن اسماعيل بمن معه من الناس الذين تسوءهم وطاة الإمامه ، ويرون السلطنة أولى بالأمر ، لأنه لا ينال معها ما لا يناله مع غيرها ، فتملك نزوى سنة ٩٦٤ وبقى عاضا عليها بالنواجذ ، وعاش فى ملكه تسع سنين ونزوى هى كرسى عمان الداخلية كما سبق الكلام عليها ، وكان هذا السلطان حجر أساس النبهانية الثانية ، وبعد موته كان له أولاد كان المقدم فيهم مظفر بن سلطان ، وهــو الذى تولى الأمر بعد موت أبيه ، وكان الحصاة الثانية فى بناء هــذه الزعامه النبهانية ، فكانت نزوى فى يده إرثا له من أبيــه ونصيبا من ملك عمان ، وما تبعها فى ذلك الوقت منوطا بمالكها ، وكان ثانى أولاده طهماس ، وثالثهم سلطان بن سلطان ، وكلهم يحاولون أخذ الأنصباء ، لأنهم هم الخيرة فى الأمة ليس لأحد حق فى السلطنة غيرهم •

وهــذا طبيعى فى الناس والذين لهم عناصر • مسلطة لا يزالون يحلمون بالسلطة ، ويحاولونها بمــا عز وهان ، ويرتكبون من أجلهــا المخاطر ويبذلون عليها النفس النفيس ، حبا للعاجلة وترفعا على الغير ، وإن لهم فى ذلك شنشنة لا تبرح من نفوسهم ، ولايزال أحدهم يراهــا لــه ويقاتل عليها أباه وأخاه ، وقد أعماهم الجهل عن الواجب الأخروى والملك الأبدى الذى ينبغى التنافس فيه •

فلاح بن محسن بن سليمان

بعد موت سلطان بن محسن تولى الأمر مظفر بن سلطان ، ولم يترك لأخوته رأيا فى الأمر إلا أنا لم تطل أيامه فمات وخلف ولدا صغيرا اسمه سليمان لا يصلح للقيام بأمر الملك ، وكان فلاح بن محسن عم أبيه مالكا لحصن مقنيات ، وقيل إنه هو بناه وشيد أركانه •

قال ابن رزيق حميد . وهو يذكر فلاح بن محسن : هـو الأكثر منهم جودا وسياسة ، وكان مسكنه مقنيات من أرض السر والصواب من أرض الحجر بحسب عرف أهل عمان ، قال : وهو الذى بنى حصنها السامك فسماه الأســود : وهو حصن عال على مرتفع منيع ، وكان لفلاح هـذا نوع اهتمام بالغراس والزراعة ، وهو الذى جلب شجر المـانغا لعمان ، وهى الشجرة التى تسميها أهل عمان الأمبا ، ويسميها أهل شمال الباطنة الهمبا بقلب الهمزة هاء غرسها فى مقنيات ، فتسامع بها أهل عمان فتهافتوا على جلبها ، حتى فشت بعمان كلها إلا ما شاء الله •

وكان فلاح محبا للأدب العربى خصوصا الشعر ، وكان موسى بن حسين بن شوان شاعرهم الخاص ، كان كثيرا ما يمدح فلاح بن محسن وبنيه وبنى عمه ، وكان له فيهم ديوان شائع عند أهل عمان يتداولونه ويعرف بالكيذاوى عرفا عاما أو بالكيذا تشبيها بالكاذى الشجر العطرى المعروف للطافته ورقته ، ومدحهم الكثير من أهل عمان من أهل هـذا الفن فأجازوهم وأعطوهم وكانوا لا يحتجبون عن وارد ولا عن صادر ، بل يدخل عليهم من شاء متى شاء ، ودخل عليه فى وقت جلوسه رجل من أهل الأحسا ، فاندهش ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لكل داخلى دهشة • فأراد أن يسأل طعاما لفرسه ، وبدهشته تلك قال

أريد خيلا لقتى ، والقت هو البرسيم وهو الفصفصة أو القصفصة القت اليابس ، ثم انتبه فأعاد قائلا أريد قتا لخيلى ، فقال فلاح أعطوه قتا وأعطوه خيلا ، وأعطوه مالا وكســوة كما هى عادات الملوك فى إكرام الوافد ، وخالفه أهل وادى بنى خالد من شرق عمان ، واعتزموا بالجبال الشاهقة المنيعة ، وأصروا على خلافهم فجهز لهم جيشا خضما سحبه من ظاهرة عمان الى شرقيتها ، فدخل الوادى ولم تمنعه الجبال من الدخول ، وقد ذكر القضية الشاعر المذكور كما هى فى قصيدته النونية التى يقول فى مطلعها :

عرّج فهذى رسوم الأثل والبان

ومنها :

واســأل معالمها اللاتى خلت وعفت
عمن بهــا كان من حى وجيران

منازل قاضها حكم الزمان من الـــ
بيض الحســان بآرام وصــيران

كم قد سحبت بها ذيل الشباب وكم
فى ســوحها صــدت من عين وغزلان

الى أن قال :

شــعر يردد معنى البديهــة فى
عليا فــلاح يحاكى لفظ سحبان

ثم سار فيه يمدحه الى أن عاد الى وصف الجيش :

وأقبلت من نواحى الأرض مقبلة
تأتى اليك السرايا يا ابن نبهــان

حتى نهضت بجيش والملوك به
موفون من آل قحطان وعدنان [١]

وسرت بالجيش من بهلى الى سمد
الى سياق الى صور فجعلان [٢]

جيش به مالك الرستاق مالك مشهور الثنا فى بنى نضر بن زهران [٣]

وناصر وعدى والفتى سند
بنو شماس سليل القرم سرحان

والمرعفان القنا فى كل معركة
بنو ربيعة والندب بن شيخان

وآل عمرو مع الحدان قاطبة
فى آل دهمش فى جند ابن جيلان

وآل وحشى جميعا فى عطارفة
من آل يشكر ومن آل غيلان

وآل صلت وهم أهل العناد وهم
فيه وفيه بنو ذهل بن شيبان

وفيه آل عمير يقدمون على
صواهل ضمر تهوى بفرسان

وفيه آل عزيز مع بنى عمر
مع آل حمير مع عبس وذبيان

---

(١) اشار به الى الامراء الذين فى الجيش .
(٢) واراد بسياق سيق من هذه الناحية .
(٣) وكان سلطان الرستاق معه وهو مالك بن ابى العرب .

وغافر وشـكيل الصـوارخ هم
في الروع أثبت من أركان ثهـلان

وآل عـبرة في ابنـا عدى وبنو
هناة هم خـير أنصـار وأعوان

وآل محرز أرباب العـلا وبنـو
يطاش أهل النهى والأمر ، والشـان

وفيـه آل شـهيم جملة وبنـو
حبس هم في التلاقى أسـد خفان

وهكذا مر يصف ذلك الجيش الى أن قال :

جيش يعبعب مثـل البحر متلط
سم التيار بالمـوج في بيـد وغيطان

حتى فتحت به شم المجـادل من
وادى بنى خالد من بعد عصيان

وكانت هذه القضية ألبست هـذا السلطان تاج الشرف وأخضعت أكثر أهل عمان وأبدت هـذا المليك على خصومه حيث هى أكبر حادثة في تاريخـه .

ولمـا مات سلطان بن محسن سنة ٩٧٣ وكان ولده المظفر أكبر إخوته تولى الملك بعد أبيه ، وفي ابن رزيق أن الذى تولى الملك بعد فلاح ابن محسن ولده عرار بن فلاح حتى توفي بتاريخ عشر خلون من شهر الحج سنة ٩٩ ولعله بعد تسع مائة وتسع وتسعين وأنه لم يمكث في الملك إلا مـدة شهرين وفي قول آخر : أن مظفر بن سليمان هو الذى تولى الملك بعد فلاح بن محسن ، وهو الذى بقى في الملك شهرين فقط ، وفي تحفة الأعيان : توفي سلطان بن محسن ليلة الاثنين لاثنتى عشرة ليلة

بقيت من ربيع الآخر سنة ٩٧٣ ، وترك ثلاثة أولاد وهم طهماس وسلطان ومظفر •

وكان المظفر هو المتقدم عليهم فى الملك الى أن مات وترك ولـده سليمان صغيرا لا يقدر على القيام بأعباء الملك ، وكان عم أبيـه فلاح بن محسن مالكا حصن مقنيات ، فلما علم بموت مظفر جاء الى بهلى وأقام مكانه •

قال الإمام : ويقال إنه عدل فى ملكه وكانت مـدة ملكه عشر سنين ثم مات وملك بعده سليمان بن مظفر الذى سبق الكلام عليه ، وهو ابن اثنتى عشرة سنة واستولى على الأمر فى عمان ونواحيها ، وأخذ خراج أهلها من الطائع والعاصى والدانى والقاضى • قال : وحاربه أهل نزوى وكان معهم جبرى يقال له محمد بن جيفر ، وعنده جيش عظيم فتآمر عليه النبهانيون واتفقوا عليه من جميع النواحى فقضوا عليه •

عرار بن فلاح

بعد موت فلاح تولى الملك ولده عرار بن فلاح بن محسن ، وكان على وتيرة أبيه فلاح فى الاخلاق والاعمال والكرم العربى وخصال الملوك ، ولم تكن فى أيامه حروب بعمان مما يذكره التاريخ ، وكان ممدوحا من ألسنة الشعراء على اختلاف أحوالهم ، وكان عرار ملكا له فى الملك صوت عال فى الافق العمانى ، ولموسى بن حسين شاعرهم فيـــه مدائح طويله عريضة تدل إن دلت على شيء فعلى الكرم وحب الثناء ومن اراد أن يعرف مقامه فليلتمسه من شــــعر شاعره •

قال ابن رزيق : مضى على طريقة أبيه فى الكرم وحسن الخلق ، وكان عرار المذكور أحــد أركان الحرب عندما دخل محمــد بن جيفر الجبرى نزوى ، فقام عليه سليمان بن مظفر ، وعرار بن فلاح ، وناصر ابن قطن حتى قتل محمد بن جيفر فى الواقعة ، وعقب محمد بن جيفر ولدا اسمه محمد بن محمد وأمه بنت عمير بن عامر ، فتزوجها سليمان ابن مظفر وشغف بها ، فكان يركن اليها ببادية الشمال شتاء ويتولى أمر بهلى عرار بن فلاح ، ويقال هو الذى بنى الركن الشرقى من حصن بهلى وزخرفه ونظمـــه ، وكان يعرف بحصن عرار بن فـــلاح ، وكان ملك الظاهرة ولمخزوم ملك ينقل ، وكل واحــد من هؤلاء يروم الاستبداد دون أبيـــه وأخيه أن لو ساعدته الأقدار ، فهم أبنـــاء عم أقارب ، وهم من ناحية الملك أباعد وأجانب ، إذ كل واحــد يرى أنه الأحق بالملك من غيره كما قالت بنو اسرائيل ، لمـــا قيل لهم : (إن الله بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون لـــه الملك علينا ونحن أحق بالملك منه) فهذه الأحقية لاتزال ضاربة أطنابها وواضعة دعائمها فى أدمغة الانسانية ، وأين هم من نفس تحبيها خير لك من إمارة لا تحصيها •

العجم يهاجمون صحار

فى هذه الأثناء كانت صحار بيد مهنا بن محمد الهديفى ، والعجم بجلفار فتحركت العجم لاحتلال صحار من مهنا بن محمد المذكور ، فلما علم مهنا بن محمد عما يرومه العجم ، استجاش سليمان بن مظفر ، فلباه سليمان بجيش جرار وعسكر ضخم ، ونزل معه صحار فوصلت العجم بعدها وعديدها على طريق البحر ، فنشبت الحرب بين الفريقين ، وكانت حربا حامية أثارها العــداء الخالد بين الطرفين ، ودارت الدائرة على العجم فانهزمــوا شر هزيمـــة أرجعتهم الى ورائهم ، وتبين منهم فى الحال عــدم الحراك ، فرجع سليمان بن مظفر الى بهلى وهى عاصمة المذكور ، ومعه بنو عمه وهم عشرة ، وإخوته اثنان وهما نبهان ومخزوم ، وأولاد فلاح كان المقدم عليهم كما سبق عرار •

وباستقلال مخزوم بملك ينقل بقى عند سليمان بن مظفر من بنى عمه حمير بن حافظ وأولاده الأربعة : وهم حافظ وسلطان وكهلان وهود ، ومن بنى عمه مهنا بن محمد بن حافظ ، وعلى بن دهل بن محمد بن حافظ ، وكان لسليمان المذكور همم غــير هينة ولــه صولة جبروتيـــة ممزوجة بالدم النبهانى •

سليمان بن مظفر وأعماله الغاشمة

كان سليمان كما قدمنا عنه جبارا زاد فى جبروته وعتوه انتصاره فى الحركات التى رت ، وكان له وزراء فى القرية وفى أزكى وفى سـمد الشـان ، يديرون أعماله ويقومون بأوامره ولا يبالون بما يدخلون فيه من أعماله ، نظرا الى دولته وكانت سمد الشان للجهاضم من آل مالك بن فهم ، وهم سكانها ، وكان سليمان جائرا عليهم ضاغطا عليهم يعاملهم بالإهانة التى أوجبت خروجهم من بلادهم وتفرقهم فى نواحى بلاد عمان ثلاثين سنة ، وهم على هـذا الحال لا يقدرون على الرجوع الى وطنهم ، وعلى ذلك يلتمسون المخرج من بليته ، ويرومون القيام عليه وأخراجه منها ، وعلى الأقل على القرار فى بلدهم ، وكان بنو هناءة من أنصـار سليمان هم المقدمون معه ، وهم يده اليمنى التى يتناول بها وبقية الناس يده اليسرى .

وكان يقود بنى هناءة خلف بن أبى سعيد ، وسيف بن محمد بن أبى سعيد ، وكانا عنده قدوة أهل زمانهما فافترقوا فيما بينهما ، بسبب شقاق وقع بين بنى معن وبنى النير ، وكلاهما من آل مالك بن فهم ، وسبب الافتراق امرأتان تخاصمتا على شىء يسير على الحشيش من مال بنى النير ، فتضاربتا ثم كانتا سبب الفتنة والافتراق ، فانحاز بنـو النير الى بنى هناءة ، ورجع بنو شكيل وبنو معن الى سليمان بن مظفر ، فعند ذلك سار خلف ابن أبى سعيد الى داره دار سيت ومعه بنو عمه وكان سليمان بن مظفر فى هذا العهد بالبادية الشمالية .

ولـما علم سليمان بن مظفر أرسل الى وزيره الذى فى القرية ، وهو محمد بن خنجر ، أن قل لخلف يترك شأن القوم ، أى لا يتدخل فى الأمر ، فأبى وأظهر أنه يريد الإصلاح بين بنى معن وبنى النير ، ولعله يريد أن يجمع شملهم ليكونوا عونا له ، لأنهم من العنصر الهنائى ، فأرسل محمد

ابن خنجر الى سيده سليمان بن مظفر أن خلفا لم يقبل ما أمرت به ولم يكف عن التدخل فيما بين القوم ، فأرسل سليمان الى وزيره المذكور أن افعل فى أموال بنى هناءة من القرية من كدم ، وكانت أمــوال للشيخ خلف بن أبى سعيد ، فوقعت العداوة والبغضاء بين الشيخ خلف هــذا وسليمان بن مظفر ، وتعكر الصفو واغبر الأفق ، فاشتد الشيخ خلف على تدمير أمواله ، وأمر بنى عمه على غزو بهلى ، فغزوها فقتلوا منها ناسا ، فكتب الوزير بذلك الى السلطان سليمان بن مظفر وأعلمه عن الواقع ببهلى •

فلما بلغ سليمان ذلك انتقل من الشمال الى بهلى ، وأراد الصلح بينهم وبين بنى هناءة فلم يقع فإن العداوة قد ضربت أطنابها بين الفريقين ، وضرب الشيطان مخيمه ، فيهما كل فريق همته لحرب الآخر ، فجمع سليمان الجموع وهيأ جنده وعساكره لقتال بنى هناءة ، فلما تحقق الشيخ خلف الأمر أرسل الى عمير بن حمير ملك سمائل وتوابعها يستنصره على سليمان بن مظفر ، فسار عمير بن حمير ناصرا للشيخ الهنائى حتى وصل غبرة بهلى ، فالتقاه سليمان فوقعت الحرب ساعة واحدة بين الزعيمين ، وبعدها رجع كل الى عاصمته [1] وكان الأمير عمير بن حمير ترك للشيخ خلف من قومه حامية فى دار سيت خوف الهجوم من سليمان بن مظفر ، وكان هــذا الأمير موصوفا بأخلاق حميدة ، وبحب الخير أكثر من حبه للشر •

وفى هذه الآونة رأى الفرصة لإرجاع بنى جهضم المتفرقين فى بلدان عمان ، المشتتين فى النواحى ظلما وعدوانا بغير حق ، فأرسل اليهم فجاءوه ، وأرسل الى سلطان الرستاق وهو مالك بن أبى العرب جد الإمام ناصر بن

---

(١) الذى يظهر من السياق أن الأمير عمير اخضع سليمان وتأخر عن استمرار الحرب ، ولذلك ترك حامية عند الشيخ خلف خــوف أن يتحرك سليمان على الشيخ خلف بعد خروج لأمير عمير بن حمير فلينظر فى ذلك .

مرشـــد ، وكان ذا مكانة بين أمراء الوقت ، ولعله لأجل الرستاق ، فجاءه وبصحبته أبو الحسن على بن قطن ، ولمـــا وصل سلطان للرستاق المذكور تفاهم هـــو والأمير عمير بن حمير فى شأن الجهاضم ، وما هم عليه من الذل والهوان الذى ألقاه عليهم سليمان بن مظفر ، وبعد ذلك خرجوا بهم الى سمد الشـــان فأقروهم فى بلادهم وأيدوهم وناصروهم وأمدوهم بالمـــال والرجال ، وبنوا لهم مبانى تحفظ كرامتهم من الامتهان وحلول الهوان .

وكان إذ ذاك العمانيون وحدهم فى داخليتهم ، وترك معهم الأمير عمير بن حمير بعض رجاله وما يحتاجون اليه من الطعام وآلة الحرب التى فى وقتهم ، ورجع الأمير الى سمائل والسلطان الى الرستاق .

الصراع بين عمير بن حمير النبهانى أمير سمائل والسلطان سليمان بن مظفر

لما رأى سليمان بن مظفر أن مالك بن أبى العرب قام عونا لعمير ابن حمير فى إرجاع الجهاضم ، الذين شرد بهم سليمان وأجلاهم عن أماكنهم ، أضمر العداوة لمالك وللأمير عمير ، واستمرت الحرب بين بنى هناءة وسليمان بن مظفر ، فقام الأمير والسلطان وتوجها الى نزوى ، ولعلهما يظهران إرادة الصلح بين الطرفين ، فنزلا نزوى وسليمان بن مظفر فى بهلى ، ولما فرا فى بهلى قام أهل محلة عينى من الرستاق ، فأخرجوا وزير السلطان من عينى وأرغموه على الخروج منها ، فأرسل الى سليمان بن مظفر يطلب النصرة منه ، فأعانه ببعض قومه ، وقد سر سليمان بذلك ، فأرسل عرار بن فلاح قائدا لجيشه ، فلما بلغ ذلك السلطان أشغل باله ، فهم السلطان مالك بالعودة الى الرستاق ، واذا بالأمير عمير يجاذبه ويرى تأخيره وينوه له فى التأخير بأنه من صالحه ، ولعلها سياسة منه .

وهنا استجاش بنو هناءة بعمير بن حمير وأشاروا عليه باحتلال بهلى له من سليمان بن مظفر فلبى دعوتهم ، ولما قرب من بهلى ، واستقر بنزوى فسار اليه الشيخ سيف بن محمد الهنائى من بلده دارسيت ، الى نزوى وجرى بينهما عتاب اقتضاه الحال ، وأخيرا قال الأمير عمير لسيف بن محمد : خذ من الرجال ما شئت ، وسار بهم الى دارسيت ، وبقى الأمير بنزوى ينتظر ماذا يكون .

فلما بلغ خبرهم سليمان بن مظفر وأنهم ربما يحاولون القرية أو سيفم أو بهلى ، فعند ذلك قام سليمان ورتب رجاله على الجهات الثلاث ، وكان ذا حزم وعزم ، وأقام له بناء على رأس فلج الجزيين حتى لا يتأمل عدوه تدميره ، وكذلك قبض الخضرا وحارة الغاف وجامع بهلى

ومعهم حمير بن حافظ ، وكان ابن عمه عرار إذ ذاك فى الرستاق فى نفس عينى منها ، فسار سيف بن محمد من دارسيت الى بهلى عنما رأى أن قرى سليمان بن مظفر تفرقت ، وأنها بتفرقها يهون عليه صراعها ، فدخل بهلى من الجانب الغربى حيث تسوروا السور ، وتمكنوا من الدخول من غير أن يشعر بهم أحد ، فهنا قسم سيف بن محمد جيشه ثلاثة أقسام : قسما على اليمين : وقسما على الشمال ، وقسما على الوجه ، وهى التى تواجه الجامع من البلاد ، وأحكم أرصاده ، ورتب مقابضه فى الأ لكن التى يرى لها النفوذ فى البلد ، وحاصر الجامع ومسجد بنى عمر ، وجميع أبواب العقر ، ومـــا بقى لسليمان بن مظفر شىء من البلد إلا الحصن والخضرا ، ودارت رحى الحـــرب بين الفريقين ، فكان القتل مسلطا على قوم سليمان بن مظفر ، فأخـــذ جانبا منهم بل قتل أعيانهم فى تلك الليلة التى كان دخول سيف بن محمد فيها ، وعلا صوته فى البـــلاد ، ونادى بالأمان فى البلاد ، وكان الكثير من أهل البلد لها يرون من ظلم سليمان بن مظفر •

ولمـــا وصل الخـــبر الى الأمير عمير بن حمير بنزوى ، ركب بمن بقى معـــه ومعه الأمير سلطان بن محمـــد ، والسلطان مالك بن أبى العرب ، وعلى بن قطن وأهل نزوى ، وسار الشيخ خلف بن أبى سعيد الهنائى من دارسيت بمن عنده أيضا من الرجال ، نصرة لأصحابهم ، وكان دخولهم ليلا ، ونزل الأمير عمير بن حمير بحارة الغاف ، وكانت الخضرا فى يد السلطان سليمان بن مظفر ، وبها رجاله ومعهم على بن ذهل ، فأرسل إليهم الأمير عمير ليخرجوا بمـــا عندهم من القوة ، فأقبل على ابن ذهل على قومه يحرضهم على القتال ، فلم يرمهم التفاتا الى ما يقول ، وهموا بالخروج ، وإذ ذاك بلغ الخبر عرار بن فلاح وهو فى عينى من الرستاق ، فنهض بمن معه ومن قدر عليـــه ، ونزل القرية وكانت إذ ذاك فى أيديهم •

وكان الأمير عمير بن حمير وسيف بن محمد قد سيطرا على بهلى ونواحيها إلا الحصن ، وهم يحيطون به من كل الجهات ، وقد أحكموا رصدهم حتى إنهم وضعوا فى شجرة الصبار التى فى السوق برجا من خشب ، ورمــوا منه رجالا فى الحصن فقضوا عليهم ، وكذلك قــوم الأمير بنوا برجا بالجامع فضرب صاحب البرج رجلا فى داخل الحصن ، ثم زحف القوم على الحصن فقشعوا جانبا من سور الحصن ، ليدخلوا منه على من بالحصن فصدهم عسكر سليمان بن مظفر ، ثم إن العسكر رأوا سلامتهم فى الخروج فخرجوا بعد ثلاثة عشر يوما ، وطلبوا من الأمير عمير بن حمير أن يسيرهم بما عندهم ، وسير معهم وزيره ، ثم طلع سليمان مظفر وبنو عمه وعسكره مسيرين من بهلى الى القرية ، وذلك أنه رأى الخلل فى قومه ، وأيقن بالغلبة ، فلما نزلوا القرية خرج هو وعرار بن فلاح الى الظاهرة ، فعند ذلك أمر الأمير عمير بن حمير بقشع الحصن فقشع ، ولم يتركوا منه جدارا قائما على الأرض ، وإذ ذاك جعل عمير خلف ابن أبى سعيد واليا على بهلى من طرفه ، ورجع هــو الى سمائل فبقى خلف ابن أبى سعيد فى بهلى أربعة أشهر حتى ليلة ربيع الأول سنة ١٠١٩ تسع عشرة وألف سنة •

لم يشعر خلف بن أبى سعيد إلا وسليمان بن مظفر وابن عمــه عرار ومن معهم يدخلون الحضرا وهم فى العقر ، وكان سيف بن محمد وهو ومن معه من أعيان الرجال فى السر من الظاهرة ، فأرسل سليمان بن مظفر لخلف بن أبى سعيد ليخرج من بهلى ، ويسيره بما عنده من عدة ، فعند ذلك استشعر العجز ، ورأى أنه خارج راض أوكاره ، فعول على الخروج بأمان من سليمان ، وخرج معه من شاء الله من أهل البلد الذين تظاهروا بالعداء لسليمان ، ولمــا علم سيف بن محمد وعلم الأمير عمير ابن حمير جاءا كل واحد منهما بما معه من قوة ، فأما الأمير عمير حالا هاجم القرية فاحتلها وسلمها لسيف بن محمد ، ورجع هــو الى نزوى وبقى بها أياما يفكر فى الأحوال التى هم بصددها •

وبعد أيام توفى سليمان بن مظفر ، وكان له ولد صغير السن ، فملك من بعد عرار بن فلاح ، ثم قام سيف بن محمد الى نزوى يطلب المعونة من الأمــير عمير بن حمير ، فلبى طلبه وأعطاه رجالا من جيشه ، فدخل بهم القرية وبقى فيها سبعة أيام ، وبعدها هاجم بهم محلة أبى مان من بهلى ويسمونها الآن محلة بيمان ، وهناك أحاط بهم عرار بن فــلاح وحصرهم مدة أيام ، ثم طلبوا منه الأمان وأن يسيرهم بما عندهم من المتاع وآلة الحرب ، وبقى له حصن القرية ، وكان ذلك فى السادس من صفر ١٠٢٤ ••• للهجرة ، وتمام هذه السنة توفى عرار بن فلاح فى خصوص الحادى عشر من شهر الحج من نفس السنة ، وملك من بعده مظفر بن سليمان ، وبقى فى الملك مدة شهرين فقط ، وتولى الأمر بعده مخزوم فلاح ، وبقى فى الملك شهرين فقط أيضا فخرج عليه نبهان وسيف ابن محمد الهنائى فأخرجاه من الحصن على شرط لا يخرج من الحصن بسلاح ونحوه ، فرأى لابد له من ذلك أى من امتثال الأمــر ، فخرج مرغما الى ينقل ، فتولى أمرها مدة وأقام ببهلى نبهان بن فلاح ، واستوزر فيها ابن عمه على بن ذهل ، ثم أخرجه وجعل بدله سيف بن محمد ، وراح هو الى عاصمته مقنيات ، ثم طرد ابن عمه من بهلى وهو سلطان ابن حمير ، وذلك لأنه خافه عليها ، فراح سلطان بن حمير الى صحار ، وتولى أمر بهلى سيف بن محمد •

ثم ثار الأمير عمير بن حمير على بهلى فمنعه سيف بن محمد فرجع الى نزوى ، وكانت نزوى تحت سلطته طيلة هذه المــدة ، وهو يرتب أمــور الهجوم على بهلى ، وكان رجلا ذا تدبير وسياسة وله عقل غير هين ، ولمــا رأى الفرصة مواتية دخل العقر من بهلى ولم يعلم به أحــد إلا وهــو متمركز فيها ، وكان سيف بن محمد فى بلده دارسيت ، فهجم على بهلى ودخل الحصن ، لأن الحصن فيه قومه وبيدهم أمره ، وهنا أرسل الى نبهان بن فلاح يطلب الى بهلى ، وأنها لاتزال بيده فظل نبهان يجند الجنود قصدا الى بهلى ، وأخذ فى الاستعداد لأن عمير بن حمير أحكم

مقابض البلد ، فأنى له الدخول على هــذا الحال ، وبقى سيف بن محمد فى الحصن ، وعمير فى البلد ولم ير نبهان بن فلاح الدخول على هــذا الحــال ، فرأى الخروج من حصن بهلى فطلب من الأمير عمير بن حمير أن يسيره الى القرية ، فأنعم له بذلك هو ومن معه ، وبما معه أيضا من عدة ، ثم تراجع الأمير عمير بن حمير وسيف بن محمد على حسن الصحبة والمعونة والمناصرة :

والناس من يلق خــيرا قائلون له
مــا يشتهى ولأم المخطىء الهبل

فرأى لابد له من ذلك أى من امتثال الأمر ، فخرج مرغما الى ينقل ، فتولى أمرها مدة وأقام ببهلى نبهان بن فلاح ، واستوزر فيها ابن عمه على بن ذهل ، ثم أخرجه وجعل بدله سيف بن محمد ، وراح هو الى عاصمته مقنيات ، ثم طرد ابن عمه من بهلى وهــو سلطان بن حمير ، وذلك لأنه خافه عليها : فراح سلطان بن حمير الى صحار ، وتولى أمر بهلى سيف بن محمد •

التهارش بين أبناء العم من النباهنة

كان سلطان بن حمير ، ومهنا بن محمد بن حافظ ، وعلى بن ذهل بن محمد بن حافظ مسكنهم صحار بالقرب من محمد بن مهنا الهديفى حاكم صحار إذ ذاك ، ولعلهم وهم بالقرب منه يحاولون فيه ما يحاولون فى إخوانهم ، وكان الهديفى المذكور دواعى وبصيرة فى أمره ، وذا حزم على ما فى يده ، وكان الرجل يحاول الإصلاح بينهم ، وابن عمهم نبهان ابن فلاح ، فتكون له عليهم يد بذلك ويستريح أيضا من عنائهم ، إذ هم معه بصفة لاجئين ، وكان عمهم المذكور فى مقنيات وهى إذ ذاك جديدة تختال فى صباها عروسا رائعة ، وكان مخزوم بالقرب من نبهان بن فلاح ، إذ كان بينقل وهى أخت مقنيات ، وكلاهما فتنة المغتر ، فحاول الهديفى الصلح بين المذكورين ، ولم يتفق وأين الاتفاق وكل واحـد يدعى فى نفســه أنه الملك ، وكل واحـد يخشى الآخر .

وفى هذه الأثناء أشيع أن سلطان بن حمير وعلى ذهل يرومان بهلى ، وقد خرجا بجيش ضخم وخميس جرار ، ولمـا بلغ هذا الخبر الأمير عمير بن حمير ، أهمه فتحرك له وجمع جموعه وخرج بعسكره من سمائل يروم بهلى قبل أن ينزل بها سلطان بن حمير وعلى بن ذهل ، وواصل سيره حتى جاء بهلى ، وكان سلطان بن حمير قد دخل حارة بنى صلت ، وكانت لها إذ ذاك أهمية ، ولمـا وصل عمير بن حمير وتلاه مناصرا له سيف بن محمد الذى كان واليا لبهلى من طرفه ، فدارت رحى الحرب بين الطرفين ، ووقع القتال ، واستمر الحال على ذلك ، وكل يحاول النصر له ، وكانوا أحاطوا الحارة المعروفة بمراصد مهمة ومقابض حصينة ، عند ذلك رأى عمير بن حمير أن الأمر أصبح ليس بهين ، ولذلك أرسل الى من يأمل مناصرته ، وعند ذلك أيضا لبى دعوته الزعماء الميامين وهم الشيخ ماجد بن ربيعة بن أحمد بن سليمان الكندى بجماعته من سـمد نزوى ، والشيخ عمر بن سليمان العفيف من سفالة نزوى ، والشيخ

سعيد بن أحمد بن أبى سعيد الناعبى مع رجال من أهل نزوى من أهل الحل والعقد فيها .

وجاءه أيضا ناس من أهل منح ، ولما تكالموا ببهلى أحاطوا بسلطان ابن حمير فى حارة بنى صلت ، وطبقوا الحصـــار عليها ، والقاعدة كما قيل كل محصور مغلوب عادة ، ولمـــا ضاق الخناق بسلطان بن حمير ، ورأى أن لا حيلة له على زحزحة هـــذا الحصار إلا بالإذعان والتخلى طلب من الأمير عمير بن حمير التسيار والخروج أى الإذعان له والإذن بالخروج من بهلى بعد ما اشتد عليه الحصار ولا يدخل عليـــه داخل ، ولا يخرج من تلك الحارة خارج وتحقق الغلبة ، فسيره الأمير عمير بن حمير بما عنده عدة وما لديه من قوة ، فتوجه الى الظاهرة واجتمع سلطان المذكور ، وأخوه كهلان ، وعلى بن ذهل ، ومهنا بن محمد بن حافظ ، بمقنيات مـــدة حتى خاف منهم نبهان حاكم البلاد ، وأوجس منهم أن يخرجـــوه من مقنيات ، فاحتال على إخراجهم منها قبل أن يخرجوه ، فمضوا الى صحار لاجئين مع محمد بن مهنا الهديفى ، وظلوا معه سنة كاملة ، وإذ ذاك عمل سلطان بن حمير حركة يشتغل بها فى حال قيامه بصحار عند الهديفى المذكور ، فأشار للهديفى أن يغزو دير عمير بن حمير فى باطنة السيب ، لأن عميرا المذكور أصبح سلطانا هاما فى قلب عمان ، ينقض ويبرم ويحل ويعقد ، ويجر الجيوش ، وأصبح مقبولا فى الســـواد الأعظم .

وكان بالدير الخاص عمير بن حمير أبناء عمه وهم سنان بن سلطان ، وعلى بن حمير ، وسعيد بن حمير ، فأثر ذلك على الهديفى فثار ، ولعله احتال عليـــه بأن عمير بن حمير لابد أن يثور عليك بوجـــودنا معك ، ويخرجنا نحن وإياك من صحار ، والأولى أن نبدأه قبل أن يبتدىء بنا وهـــو يريد أن يتذرع بالهديفى ، لأن الحركة تحتاج الى مال ولا مال لسلطان ، فركب الهديفى محمد بن مهنا ومعه سلطان فى جيش كثيف من

صحار ، فسبقهما الخبر الى الأمراء سلطان بن حمير ، وعلى بن حمير وأخيه سعيد بن حمير ، وتحققوا خروج الهديفى وربعه من صحار ، قادمين لغزوهم وما كان إلا قدر ما يخلع الرجل نعليه أو يغسل الرجل رجليه وإذا بالقوم هاجمون عليهم ، فالتفت العساكر وسلت البواتر ، فوقع القتال بأسرع حال ، وعظم النزال حتى بلغت لقلوب الحناجر ، فانكشفت الوقعة عن قتلى عديدة من بينهم الأمير على بن حمير .

وعند ذلك انفصل القتال ورجع محمد بن مهنا ومن معه مسرعين الى صحار خوفا من مهاجمة الأمير عمير بن حمير ، إذ هـو قريب منهم بسمائل ، ولمـا علم عما جرى على إخوته وبنى عمه بالسيب من محمد ابن مهنا الهديفى ومن معه وكان إذ ذاك وهو فى بهلى عقد عقيدة الحزم ، وامتلأ غيظا وحنقا على الواقع ، وكان الرجل ذا همة عالية ونفس سامية ، يقال إنه حلف لا يرجع عن صحار حتى يحصدهم بالسيف ، ويحرقهم بالنار ويبدد شملهم فى كل دار ، فأخذ فى جمع العساكر من عمان من حيث تصل دعوته ، وطلب ممن رجا نصرته من كل مكان ، وأرسل الى سلطان هرموز يطلب نصرته فساق اليـه جيشا أرعن حمله فى المراكب محملا بالعدة الكافية من المـال والرجال وآلة الحرب .

وشاءت الأقدار أن تلقى الى الأمير عمير ما أراد وما لم يرد إذ جاء مركب من الهند بعسكر كثير وقوة حربية ساقته الريح الى مسقط (١) وكانت مسقط للأمير عمير بن حمير ، ولعله جاء بطلب منه من حكومة الهند إذ ذاك وهو المتبادر ، فإن البرتغال إذا ذاك ضربوا على الهند بيد من حديد ، ويحاولون التدخل فى الخليج ، وأن هذه البادرة سوف تمهد لهم فيه طريقا يبسا لا عوج فيه ولا أمتاً .

---

(١) الواضح ان الامير عمر طلب من البرتغال المناصرة كمـا طلب من امير هرمـوز ، فرأت البرتغال ان الفرصـة قـد حانت فخرجت باسطول ضخم مسلح كمـا ينبغى .

ولا شك أن الطالب لهذه النصرة منهم هو الأمير عمير ، ولما وصل هذا المركب اهتز الأمير وتحركت نفسه ناشطة ، وما يدرى أن عاقبة ذلك وضع اليد على صحار وغيرها بقوة لا يقدر على زعزعتها يوما ما ، وهذه أول بادرة كانت يد الاستعمار تمتد بهما بعمان الى ما سيأتى خبره ، وما صار اليه الأمر ولو صبر هذا الأمير على عدوان قومه ، ولم يدخل الاستعماريين فى بلاد المسلمين لكان أولى ، ولكن أنفس الزعماء الذين لا يهمهم أمر الدين ، بل يهمهم فقط أمر الدنيا ويرغبون فى الاستعلاء ، على المعادى ولو بذهاب الحياة كلها ، خرج هذا الأمير بجيشه المشار اليه ، وعسكر بالسيب سبعة أيام يرتب الحركة القاضية ، وعند ذلك تحرك المتعصبون لمحمد بن مهنا الهديفى وفى أولهم محمد بن جيفر ، خرج بجيش لمناصرة الهديفى فى صحار ، ولما وصلها استبشر به محمد بن مهنا وأدخله الحصن ، ولما اجتمعا بالحصن جرى بينهما حديث فى بعض الشئون ، وانقلب الحب عداوة ، والمناصرة شرا ، والذى فى قلوب الرجال لا يحيط به إلا الملك المتعال .

عند ذلك أمر محمد بن جيفر بالقبض على محمد بن مهنا وإذ ذاك ألقى بنفسه من سور الحصن الى الخارج ، وصاح على قومه الذين فى الحصن وكان بعضهم فى برج داخل الحصن ، فوقع بينهم القتال ساعة من النهار خرج بعدها محمد بن جيفر بقومه من صحار ، ولم يكن يتحقق الداعى لذلك من الجانبين ، ولما وصل هذا الخبر الى الأمير عمير بن حمير توجه الى صحار بمن معه من الرجال ومالديه من القوة برية وبحرية ، وأتى صحار نهار تسعة عشر ربيع الآخر ، واذا بمحمد بن مهنا الهديفى وربعه على استعداد للقتال ، فاستقامت الحرب على ساقها طيلة ذلك اليوم الى الليل وبعد ذلك اليوم هبطت جنود النصارى البرتغاليين من المراكب بما عندهم من آلة حربهم ، وكانوا يجرون أمامهم قطع القطن

ليتقوا بها رصاص بنادق عدوهم ، وكانت الأسلحة غير ما هى عليه الآن ، وكانت عند النصارى مدافع تمشى معهم على أعجال الخشب فى البر ، وعليها ما بقى من رصاص العدو .

وكان بالحصن برج فيه عسكر الهديفى فجزت عليه النسارى والمدافع وقطع القطن أمامهم ليقيهم رصاص عدوهم ، وكان الرصاص يلتوى بالقطن فلم تكن للرصاص أهمية كبيرة ، لأنه خلاف رصاص عهدنا ، فإن رصاص هذا العهد حتى الجبال لا تقى منه ولا يقى منه الحـديد ، فضربت البرتغال البرج المذكور ، فانهدم وخرج منـه قابضوه ، فدخله جيش البرتغال ، وعند ذلك صـاح صائح العرب على البرج المشـار اليه ، وتراكضوا عليه بالسلاح الأبيض وبما لديهم من قوة فانكشفت الوقعة عن قتل محمد بن مهنا الهديفى زعيم الحصن وحاكم صحار ، ومعه على بن ذهل وكانت الوقعة ليلا ولمـا علم الأمير عمير بن حمير بقتل المذكورين واحتـلال النصـارى قـوى نشاطـه وزاد اغتباطه واشتد الحرب .

صحار تتعرض للدمار

لا يخفى أن الجيش المنتصر لا سيما اذا كان جيش عدو بالطبع لا شك أنه يفعل ما يهوى ويقضى كما يشــاء ، بعد قتل الهديفى وقتل أعيان من حماته وأنصاره منهم على بن ذهل ، وسقوط البرج فى يد العدو ، قام عن الهديفى سلطان بن حمير بن محمد بن حافظ النبهانى وأخوه كهلان بن حمير ، وابن عمه مهنا بن محمد بن حافظ ، وعسكرهم الباقون فى الحصن •

ولمــا علم الأمير عمير بن حمير أن سيد القوم أى الهديفى قتل ندب قومه للقتال بكل الوسع ، فكان القتال بينهم مستمرا فى النخل وفى الطرق وفى الحوائر ، حينئذ خرج عمير بن حمير بمن معه من جهة جامع البلد ، ولم يتعرض له أحــد ، وفى أثناء ذلك قتل سلطان بن حمير الذى قام بالحرب بعد الهديفى وانهزم قومه شر هزيمة ، ولم يجدوا لهم عونا ولا مناصرة ، بل ظلوا أذلاء حيارى لا يدرون أين يتوجهون ، وشأن المنهزم هــذا •

قال الإمام : صاروا شتاتا متفرقين ، فمنهم من قتل ومن أحرق بالنار ، ومنهم من أسر ومنهم من جرح ، ومنهم من خرج ذاهبا على وجهه لا يدرى أين يذهب ولا أين يتوجه ، وعلى هذا جميع أهل البلد • قال : وأحرقت البلد بأجمعها من أولها الى آخرها ، قال : وأقام النصارى فى حصن صحار ، وهذا يدل أن الجيش استباح البلد ، وأرى أهلها الهوان وشمت بهم من كان له علاقة بالهديفى وأصحابه ، ومن لم تكن له علاقة (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ، بل شـــأن الفتنة شأن النار ، وتمركز العدو فى مركز المسلمين ، واغتنمها فرصة ليضع مخططه الذى كان يحلم به فى قهر البلاد •

ويحسب الواقع أن الأمير عمير بن حمير انتصر فى هــذه الوقعة

انتصارا هائلا ، ورجع الى بلده سمائل جذلا مسرورا ، والحقيقة ليس هــو نصر مادام العدو يتمركز فى العاصمة لهامة صحار مركز سلاطين عمان ، وبعدها سنوالى بقية المراكز ، ولكن الآن المنتصر الأمير ، وفى هذه الآونة أصبح هو الذى له فى عمان الحول والطول ، وعاث النصارى فى صحار ، ودمروا المنازل وقضوا على أهلها بالقل والهوان ، وأصبح ذلك المعهد مقام حزن وعويل على من قتل من الرجال ، وأحرق من الأبطال ومن هلك على وجهه هاربا ، وإنها لمن البلاد الفادحة ، ولكن المقدر لابد من كونه والله يتولى من عباده الصالحين .

البرتغال يواصلون عملهم

لـما قر البرتغال بحصن صحار ، وتولوا أمر البلد ، ورأوا أنهم أهل الحل والعقد ، وأن عمان الداخلية مملوءة خلاقا وشقاقا وافتراقا وتحزبا وحنانات اغتنموها فرصة فلعبوا دورهم ، والفرص اذا لاحت يغتنمها الرجل الذمر ، فتولوا أيضا بعد صحار مسقط ، وإن كانت لا أهمية لهـا إذ ذاك بالنسبة الى صحار ، ولكنهم رأوها الحصن الحصين ، لـما يحاولون ثم مشوا بعدهـا الى جلفار فتولوها ، وضربوا بأيديهم على الباب الشرقى لعمان وهو صور فتولوها ، ثم أناخوا بقريات فاحتلوها ، وأصبح الساحل العمانى بأسره فى أيديهم ، وأصبحت أبواب عمان التى عليها المعـول تحت سيطرتهم يفتحـون ويغلقون ولا منافس لهم من أهل عمان .

ومن هناك أيدوا مسقط لحصانتها وإحاطة الجبال بها ، فتولوا القسم الداخلى من أهله برغم أنوفهم ، فأحاطوه بسور لا يزال باقيا الى الآن ، وبنوا الحصنين الكبيرين على جبالها ، والثالث القلعة على سور الخندق ، وحفروا الخندق وأدخلوا فيه البحر ، وطردوا الأهالى منها إلا ما كان لا يعبأ به خارج السور ، وحصنوها تحصينا كامـلا وتمركزوا فيها ، وجعلوا لها قوات هائلة ، ووضعوا فيها تجارة هامة ، وعاشوا فيهـا وأهل عمان فى الداخل .

وعلى أثر خروج الأمـير عمير بن حمير من صحار ، كان مخزوم أميرا على حصن ينقل ، وكان سيىء السيرة فى الأهالى ، وكان قبض على رجلين منهم فأراد قتل أحداهما ، وأمر خادمه ليقتل المذكور ، فأخـذ السيف ليضربه وهو يستجير ، وكان من القضاء الذى لابد منه أن وضع مخزوم يده على فم الرجل عند الضربة الثالثة ، والخادم يرسل السيف عليه ، فأصاب السيف يد مخزوم على فم الرجل فجرح مخزوما جرحا

مات منه بعد سبعة أيام والله هو الضارب عز وجل ، والرجل المقصود بالضرب عاش بعد ذلك ، إذ مر عليه العبد الضارب ليسحبه معتقدا أنه ميت ، ورجل آخر هناك ، ولما تركه الخادم قال للرجل الآخر : ألا من يعيننى على دفن هـذا المقتول ، فقال له أنا حى ، فحمله على كتفه وأدخله البلد ، فعالجه حتى صحا من ذلك ، وعاش باقى أجله .

ولما علم نبهان بموت أخيه ركب من مقنيات الى ينقل ، وترك بعض عسكره فى حصن مقنيات للحفاظ عليه ، وكانوا قد ملوه من كثرة جوره وظلمه وفساده وبغيه ، وتآمروا على إخراجه من مقنيات ، فأرسلوا الى الأمـير عمير بن حمير ، وسيف بن محمد إذ هما المنظوران بعمان وإليهما أمر الخوف والأمان ، فقاما معا ملبين لدعـوة المنتصر بهما ، وراغبان فى الملك ، وخرجا بقومهما الى مقنيات ودخلا الحصن ، ولم يعارضهما معارض ولا رأوا من أحد خلافا ، وبقيا بها مـدة يمهدان أمورها ، ويضعان خططهما عليها ، ثم توجها الى ينقل لقطع مادة الفساد التى طال ما سئم منها العباد ، فلما علم نبهان بهما خاف منهما وخرج من البلد هاربا يترقب ، ولحق بأخواله الرئائسة طلبا لنصرتهم ، أو قل على الأقل لحمايتهم من الأمير عمير بن حمير ومن معه ، وذلك لاثنتى عشرة من شهر صفر ١٠٢٦ ست وعشرين سنة وألف سنة .

وأقام الأمير المذكور ووزيره سيف بن محمد بينقل مدة ولم يريا حركة من أحـد ، وإذ ذاك سلم الأمير عمير البلاد لأهلها ، فكانت له بذلك المنة الكبرى وزاد الناس فى حبه ورجع هو الى مقنيات وأرسل الى أهل البلد ، فسألهم عن أعمال نبهان المذكور فيها ومعاملته لأهلها ، وأجابوه بأنه كان يأخذ نصف غلة النخل ، وربع غلة الزرع .

قلت : ولعله يعتبرها بيت مال وهو الزعيم واليه أمر بيت المـال ، فأسقط الأمير عنهم غلة النخل ، واكتفى بربع غلة الزرع ، وأما أمـوال

بيت المـال فهى لمن يقوم بالحصن وشئونه ، وجعل عمر بن أبى سعيد واليا عليها ورجع هو وسيف بن محمد الى بهلى ، وفى هذه الأثناء تحرك نبهان المذكور ، واستجاش أخواله آل الريس، وجاء الى الظاهرة ودخل فدى وأقام بهـا •

ثم جاءه بعض أصدقائه فى ينقل ، ولكل أمير أعوان ولكل أحـد أخدان ، وحركه فتحرك وأغراه فقام وواعدوه بالنصرة والمعونة على من يقوم عليه ، فراح مع هـذا الواصل ودخل ينقل ليلة النصف من ربيع الآخر من نفس السنة المذكورة آنفا ، وأحكم مقابض البلد وبذل قوته لحرسها وسورها بما استطاع أولها وآخرها إلا الحصن الذى هو قلبها ، فإنه كان فى يد الذين ولاهم إياه الأمير عمير بن حمير ، وهم بنو على وحصرهم نبهان واستقامت الحرب ونشب القتال بين الفريقين ، وفى هذا الحال خرج رجل من حماة الحصن فى خفية ، وذهب الى آل قطن بن قطن وكان الأمير فيهم يومئذ ناصر بن ناصر ، واستصرخهم لنصرة قومه المحصورين بحصن ينقل فلبوا دعوته وثار معه ركب منهم يقوده محمد بن محمد بن محمد بن جيفر ، وعلى بن قطن بن قطن بن قطن بن على بن هلال ، وناصر بن ناصر بن ناصر بن قطن بمن عندهم من الرجال الذين هم أبطال الرجال ، وكانوا ببادية الشمال ، ولمـا دخلوا ينقل قامت الحرب على ساقها بينهم وبين نبهان بن فلاح ، واشتد الأمر إذ كان هؤلاء مهاجمين وأولئك قابضين البلد ، ومتمركزين فى حصنها ، ودارت معارك حامية وطال لهبها وحميت نارها واشتد أوارها ، حتى ارتفع العفاج وأظلمت الفجاج ولا بد أن يكون النصر حليف طائفة •

عند ذلك رأى السلطان نبهان أن كفة القوم ترجح ، وأن ميزان نبهان يخف ، وأن نار العدو يعظم خطبها ، فانهزم جنده وأخذ القتل منهم جانبا كبيرا حتى ضجوا وأرسلوا الى العدو المهاجم يطلبون الأمان للخروج ، وانحل أمرهم الى الدمار الساحق ، وكان سيف بن محمـد

الهنائى جاء بجيشه لقتال نبهان ، فبلغه خبر خروجه من ينقل فى الطريق ، وأن الرجل قد انهار أمره وتمزق شمله ، وانحلت عرى قوته ، فرجع سيف بن محمد الى بهلى .

وكان الأمير عمير فى سمائل يجمع الجموع ويكتب الكتائب وينظم عدة حربه لإخراج نبهان بن فــلاح من ينقل ، ولمــا بلغه الواقع تهيأ لحرب بنى لك فى الرستاق حيث اشتقوا هم والسلطان مالك بن أبى العرب اليعربى ، وكان هــذا السلطان هو والأمير عمير بن حمير كنفس واحــدة ، فخرج جيشه الى الرستاق ودوخ بنى لك وقر قرار السلطان بالرستاق ، وهذا السلطان هو جــد الإمام ناصر بن مرشــد رحمه الله ورضى عنه كما ســوف يأتى خبره إن شاء الله .

التفرق عنوان الوهن

هذا حال المملكة العمانية فى هذه الأثناء تدور على مقنيات وينقل وبهلى ونزوى وسمائل وسمد الشـان والرستاق ، وهنا موطن التهارش القتال والقلاقل والاضطراب ، فصغرت المملكة العمانية حتى أصبحت أشبه بمشيخة قبائلية ، تتهارش على هذه الفريسة حبا للرئاسة ، ولو كانت غير كبيرة الشأن بعد ما كانت عمان تسيطر على النواحى النائية الى حضرموت والبحر الأحمر ، والى اليمامة والى البحرين كما علم ذلك مما مر ، أصبح اسم السلطنة مقصورا على هذه الرقعة التى هى قلب عمان ، فإنه فى هذه الأثناء صار ملك بهلى للشيخ سيف بن محمد الهنائى ، وصار ملك سمائل الى نزوى ، وسمد الشـان الى الأمير عمر بن حمير ، وصار ملك الرستاق الى السلطان مالك بن أبى العرب اليعربى ، وصار ملك الظاهرة الى آل هلال رهط الجبور ، وصار الساحل العمانى من صور الى مسقط وصحار وجلفار الى البرتغال ، وهكذا اقتسم هؤلاء هـذه المملكة السامية المنيعة ، وتلاعبوا فيها حتى صح على حالها قول القائل :

وتفرقـوا شـيعا فكل قبيـلة
فيهـا أمـير المؤمنين ومنبـر

هذا ما أفضى اليه الحال العمانى ، فمتى ينجلى الكوكب الدرى الذى يقضى بسعده الجامع ، على نحس المفرق ، الواقع ويجتمع الشمل ويلتئم الشعث ، وتعود المياه فى مجاريها ، انظر هذه الأحوال فصوت الحق فيها خافت ، وراية العدل فيها مطوية ، وأعلام الشر على الرؤوس لاتزال منشورة ، وأوجه العلماء غير مرئية ، ومصابيح الشريعة لا تعرف ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

قال الإمام رحمه الله : وخربت عمان وعاشت فيها الجبابرة ، وقل فيها العلم ، وذهب منها الخـير ، وارتفعت منها البركات ، وانضمت

العلماء فى بيوتها ، ولازمت سربها ، كما أمرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث قال : (فاذا رأيتم هوى متبعا وشحا مطاعا وإعجاب كل رأى برأيه فالزم حلسا من أحلاس بيتك) •

أفضى الحال بأهل عمان فى هذا الجيل المتهارش أن أمير وبل من أعمال الرستاق من اليعاربة ، ولعله من طرف السلطان مالك بن أبى العرب ، احتاج الى قاض فلم يجـد قاضيا من أهل المذهب الحق ، فاتخذ قاضيا من أهل الخلاف ، فكاد أن يضل الناس ويزلهم عن مذهبهم ، وإذ ذاك قام بعض أهل الغيرة من أهل العلم فنصحوه وبينوا لـه مغبة الحال ، وما يئول اليه الأمر ، فاستجاب ذلك الأمير لهم ، فعزل القاضى المشـار اليه ، وأرسلوا له رجلا من أهل المذهب ، فأخذ العلم عنه جملة من أهل الرستاق ، وإذ ذاك لاح للأمة وميض ضياء كان له بعد ذلك أثرا أضاء البـلاد ، وأحيا أرواح العباد ، وشـع له بالطرف الرستاقى نورا امتد بسلطان الله عز وجل ، وقد تعهد الله عز وعلا أن يبعث للأمة على رأس كل مائة سنة من يجـدد لها دينها ، ويحفظ لها كرامتها ، ويعيد إليها نبراس حياتها •

وكل هذه الأحوال التى نكتب عنها تحتوى على حكم إلهية ، وتمتاز فيها أعلاء بفضائل ، وتهوى بها رجال الى الحضيض الأسفل ، والله ولى التوفيق •

فى هذا العهد قامت حوادث بعمان أشبه بإرهاصات النبوة ، وشهرت أحوال ذكرها المؤرخون إن دلت على شىء فإنما تدل على إشعاع سماوى يتجلى على ربوع عمان المظلمة بغيوم الفتن التى مرت ، وبظلام الشرور

التى طال ما أرخت سدولها على هذا الأفق العزيز ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ونرى أن نعرض عن ذكر ما حكى التاريخ ، ونذهب الى الأهم والله نسأله العون والرضا إنه كريم منان •

هنا انتهى الدور الذى لعبه بنو نبهان بعمان طيلة تلك المدة النائية التى ما زالت مغطاة بغبار المظالم ، ومشحونة بالحوادث السيئة التى تباعــدت عن مقتضيات الشرع الشريف ، وأخــذت جانبــا قصيا عن معالم الحق •

مقدمة العهد اليعربى بعمان

عهد اليعاربة بعمان يشكل عهدا جديدا للأمة العمانية ، حيث كانت المملكة العمانية انحطت الى الحضيض الأسفل ، وتأخرت تأخرا محسوسا ، وأصبحت كمشيخة غير كبيرة الشأن وإن انتفخت زعماؤها فى هذه الآونة المعلنة بانتقال الدولة الى اليعاربة ، وادعوا أنهم ملوك أو سلاطين ، والحال هم إذ ذاك كما يقول القائل :

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومنبر

ذلك لأن المملكة أصبحت نهبا مقسما واقتصرت على ما يحدث بصحار فى الساحل الشمالى ، وبجعلان فى الجانب الشرقى الجنوبى ، وهذه الرقعة أشبه بما ترى العين من دائرة القمر ، وإن كان إذ ذاك لا أهمية لِدُبَى ولا روح لأبوظبى ، ولكن كانت عمان الى الحسا وأليمة وحضرموت وما إليها عدا الممالك الأخرى التابعة لها ، ولكن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ما رفع الله شيئا إلا وضعه) وقد حكم الله عز وجل على أيام الدنيا بالتداول ، فبينما ترى قوما فى الأوج العالى والمحل الأرفع ، وهم فى نمو زائد مالا ورجالا وذرية وعيالا بحيث يصبحون والحال فيهم كما يقول القائل :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وبعد حين ترى الديار بلاقع كما قيل أيضا :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولمــا أراد الله أن تستعيد عمان مجدها السالف ، ويعود اليها عزها أقام لها الدولة اليعربية ، فقام مجدها ، وعاد شرفها ، كما سوف يقف عليه القارىء إن شــاء الله •

قال شكيب أرسلان فى تعليقه على عمان بعد ما ذكر ما قبل اليعاربة قال : « ولم يتأثل الملك » وترسخ قواعده إلا فى أيام ناصر بن مرشد ، وناصر المذكور هو الدعامة الكبرى فى بناء الدولة اليعربية ، والحجر الثقيل فى أساسها الذى تقوم عليه • وفى كلام بعضهم : أدرك الله الأمة بالدولة اليعربية ، فجاء الإمام ناصر وجمع شملها وداوى جرحها وأصلح شأنها ، وزالت بسببها النزوانية والرستاقية ، وأصبحت ذات أســطول عالى هزم البرتغال ، وطهر الخليج من الجنوب الى الشمال ، وأعاد لعمان الشرف الباذخ والمجــد الشامخ اهـ •

قال شكيب وهو يصف الإمام ناصر : كان من نبعة عربية صريحة ، ومن أقدم الأرومات الإباضية ، قال : ولمــا استلم ناصر الزمام كانت بعض المدن المحصنة فى الداخل بأيدى زعماء يلقبون أنفسهم ملوكا ، وكانت مدن أخرى يحكم فيها مجالس شيوخ من أهلها ، ولم يكن بقى من الثغور البحرية بأيدى الأهالى سوى فرضة (لاوة) يعنى لوى ، قال : والباقى كان دخل فى حكم أمير هرمز ، الى أن قال : وكان إذ ذاك قد استأسد البرتغال ، وظهروا على بلاد الشرق ، ثم ذكر البوقرق الى أن قال : ومن جملة مغازيه سواحل عمان التى كان البرتغاليون فتحوا قسما منها أى من مراسيها •

أما المدن البحرية التى كان فيها حاميات برتغالية عظيمــة فكانت مسقط وصحار والمطرح ، وقريات ، قال : فسار ناصر بن مرشد أولا الى لاوة ، أى لوى فاستعان أهلها بالبرتغال ، فأمدوهم بالمــال والسلاح ، ولكن ناصرا تغلب عليهم وفتح البلدة ، ثم هاجم أنفس البرتغاليين فى

المدن التى كانوا فيها فانتزعها منهم وبقيت حامياتهم ممتنعة بقلاعها ليس لها أيد تمتد الى البلاد ، ثم طرد البرتغاليين من رأس الخيمة ، وكان البرتغاليون قد اضطروا أخيرا لأجل الاستقرار فى قلعة مسقط أن يؤدوا للإمام ناصر جزية ، فبعد أن أدوها مدة امتنعوا من أدائها ، فزحف عليهم ودارت رحى الحرب بينهم ، وانتهت بصلح ثقيل الشروط على البرتغاليين ، إذ انتزع من أيديهم عدة حصون فى المطرح والقلاع الخارجية فى مسقط ، وأجبرهم على عدم التعرض لحرية التجارة وعلى أداء الجزية ، ثم افتتح ناصر مدينتى صور وقريات ، وطرد الأجانب منها ، وبالاختصار فإنه منذ بداية ملكه وضع نصب عينه تطهير البلاد من المعرة الأجنبية ، وفهم فى ذلك الوقت ما لم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وأمراء الاسلام ، من كون الأجنبى الأوربى اذا نشب براثنه فى محل لم ينته منه إلا باستخلاص جميع البلاد ، واستعباد من فيها من العباد ، وأن الأولى بالعاقل توقى هذا المرض قبل أن ينشب ، والمبادرة الى اقتلاعه بكل الوسائل قبل أن يستفحل •

قال : وجرت ثورات فى زمان ناصر فأطفأ ثائرتها بحزمه وحكمته ، قال : وقد أكمل عملا عظيما ، وبنى مملكة عمان على بوانيها ، وحررها من السلطة الأجنبية الى أن قال : وكان حازما جادا شائحا فى الأمور ، فاضلا تقيا ، أحبه الأهالى الخ •

وبحق أقول : إن الإمام ناصر بن مرشد رحمه الله ، أعاد سيرة السلف الصالح فى عمان ، وجدد من المعالم ما أبلته أيدى الزمان ، وأعاد السيرة النبوية متوجة بتاج الإيمان ، فهو الذى أعاد المجد الذى كان لعمان أيام الجلندى بن مسعود ، وسعيد بن عبد الله الرحيلى ، ووضع حجر الإيمان الصحيح رغم أهل الطغيان فكأن عمان بعهد ناصر بن مرشد ، إنما ولدت فى عهده ، وأقام مجدها بعزمه وجهده ، فهو رحمه الله أمة واحده •

مشاهير دولة الإمام ناصر بن مرشد

لقد قيض الله للإمام ناصر بن مرشد رجالا قاموا بأمور دولته ، وكانوا لــه أياد قوية ، وسهاما حــادة ، وسيوفا ماضيــة ، عاركوا البغاة ، وقاتلوا الطغاة ، وصارعوا العتاة ، ودوخــوا أهل الباطل ، وأسسوا دولة ضخمة بعمان امتد لها بعد ذلك صوت عال فى بلاد العرب ، كما سوف يراه القارىء فى هــذا التاريخ ، ولكل دولة رجال ، ولكل رجال أعمال •

كان يضرب المثل بالإمام ناصر فى الزهد والورع والعبادة ، وكان رجاله كذلك ، واذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابا ، وأقام لــه دعائم ، وسخر له من يقوم ببنائه ، وكذلك اذا أراد هــدم ذلك ، ودولة الإمام ناصر قامت على أثر رسوخ الظلم والفوضى بعمان ، وهى الفوضى التى خلفها بنو نبهان الذين لعبوا دورا طويلا بعمان •

ولا شك أن لكل أمــة غراسا وغراس دولة الإمام ناصر العدل والفضل ونشر العلم ، وحمل الناس على الصراط السوى الذى وضعه الله تعالى لعباده ، وكلفهم سوكه ، ويسر لهم المسير على جادته •

ومن رجال دولة الإمام ناصر بن مرشد المشاهير : الشيخ العلامة خميس بن سعيد الشقصى الرستاقى ، صاحب كتاب منهج الطالبين فى الفقه ، وهو كتاب من أمهات الكتب ، يحتوى على عدة أجزاء •

ومنهم العلامة البطل : مسعود بن رمضان النبهانى ، وهو سيف من سيوف الحــق ، قام بواجبه ، وسيأتى ذكره فى حروب الإمــام رحمه الله •

ومن رجال الإمام ناصر بن مرشد المشاهير الشيخ خميس بن رويشد الضنكى ، الذى مازال يقود الجحافل لحرب بغاة الظاهرة •

ومن مشاهير رجال الإمـام ناصر بن مرشـد ، محمد بن سيف الحوقانى ، الذى قام بدور هام فى أيام الإمام لإقامة معالم الاسلام فى ربوع عمـان .

ومن مشاهير دولة الإمام ناصر بن مرشد : محمد بن على بن محمد كان بطلا مقداما لا يرهب ضوضاء السوء ، ولقلقة أهل الباطل وستخبر عنـه أحواله فى دولة الإمام .

ومن أبطال دولة الإمام ناصر بن مرشد : العالم الهمام عبد الله بن محمد بن غسان الكندى النزوى ، مؤلف خزانة الأخيار . ومنهم حافظ ابن جمعة الهنوى .

ومن مشاهيرهم : على بن أحمد الذى قاد سرية جلفار كما سوف يأتى ذكره إن شاء الله .

ومن مشاهيرهم : محمد بن صلت الريامى ، وعلى بن محمد العبرى ، وأحمد بن بلحسن البوشرى .

ومن صناديدهم : سعيد بن خلفان القرشى ، الذى أبلى بلاء حسنا فى دولة الإمام ، ولم أدر من أى بطون قريش الذين بعمان هو هؤلاء الرجال الذين أقاموا دولة الإمام المؤيد ناصر بن مرشد رحمه الله ، وإن كان معهم كثيرون من رجال عمان إلا أن المذكورين هم الرؤوس الذين قاموا بقيادة الجيوش فى حروب الإمام رحمه الله لبغاة أهل عمان ، وبهم قرت دعائم الاسلام بعمان ، وكأن طورا جديدا قام بعمان حتى كأن لم تكن عمان أسلمت قبل ذلك ، ومن جملة قواد جيوش الإمام ابن عمـه سلطان بن سيف اليعربى ، وأخرنا ذكره لأنه صار بعد ذلك الإمام الثانى من اليعاربة ، وهو الذى فتح مدينة صور من البرتغال ، الذين طوقوا ساحل عمان بالقهر ، وهـو الذى أجلاهم من مسقط فى عهد إمامته ، وطاردهم فى السـواحل الأخرى كما يأتى ذلك مفصـلا فى إمامته إن شـاء الله .

الإمام ناصر بن مرشد رحمه الله

لما كان لكل عمل رجال ، وأن الأعمال الدينية يلزم أن ينتقى لهـا الرجال الدينيون ، والذين تطمئن بهم النفوس لحمل الأمانة التى أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانســان ، فهذا الانسان يجب أن تكون فيه أهلية صالحــة لحمل الأمانة ، أهلية تقوى ، أهلية غيره لله على حرمه ، أهلية تدعو الى العمل الصالح ، أهلية لا ترى لمن خالف دين الله حقا يجب احترامه حتى يعود الى الصراط المستقيم ، والمنهج القويم .

فبعدما تمزق ملك عمان بتلاعب الظلمة وأعمــدة الفساد ، وأهل البغى والعناد وانحطت الزعامة العمانية الكبرى الى الحضيض ، واقتحم لاقتناص صيدها كل من لم يكن من أهلها لأمر أرداه الله بأهل الظلم والفساد ، وكان الله عز وجل بفضله وبرحمته تعهد أن يعيد للأمة دينها على رأس كل مائة سنة ، لإقامة الحجة عليها وإيضاح المحجة لها ، حتى لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فى هذه الأثناء وما علم من انتقاص الأرض من أطرافها بقلة العلم ، وظهور الجهل ، أثرا للزعامة الجائرة ، شاء الله أن يمحو ذلك الأثر كما هى سنته فى عباده ، أطلع طالع سعد ينير الطريق ، ويكشف المضيق ، ويرفع نير الظلم والجور ، ويعيد الحرية الى عمودهــا .

أخرج الله عز وعلا فى هذه الآونة السيد الهمام المقدام ، ناصر بن مرشد رحمه الله ، فشع له شعاع فى عالم الدين ، وبرق له من بريق فى أرجاء عمان ، فتحدث بأخلاقه الدينية الركبان ، وعطف الله عليه قلوب أهل الإيمان ، وألفت اليه عقول أهل الخير فى الوطن ، واذا أحب الله عبــدا من عباده لإخلاصه واستقامته فى الدين ، أعلن ذلك فى الملأ الأعلى ، ثم نودى به فى أهل الأرض ، وإذ ذاك كان هذا الإمام يتيما رباه الشيخ

العلامة المحسن خميس بن سعيد الشقصى صاحب منهج الطالبين ، فنشأ نشأة أهل الفضل والإيمان يحمل دينا وإيمانا وتقوى ، مع خصال الخير وأعمال البر التى يتطلبها القائم أو من يقوم بشرعة الله عز وعلا .

وكانت المدرسة الوستاقية غاصة برجال من أهل العلم والعمل تسابق رجالها الى تحصيل العلوم ، وتنافسوا فى خصال الفضل ، وكانت الرستاق نصيب آباء هــذا الإمام حين اقتسم الزعماء الممالك العمانية ، ومازال أمر الرستاق راسخ الأقدام فى آل مالك بن أبى العرب ، وكان الإمام المذكور من البيوتات المعروفة شرفا وعزا ، ويقال : إن أباه مات عنــه يتيما وتزوج أمــه الشيخ الشقصى المذكور وتربى فى بيئته وعلى وتيرته فوفقه الله للصالحات ، وكل ميسر لمــا خلق له ، وما جرى به قلم الأزل لا بد من وقوعه ، واذا أراد الله أمرآ هيأ له أسبابا .

وكان ناصر بن مرشد رحمه الله من أسباب الخير لعمان فى هــذا العهد العصيب الذى كاد تختفى فيه معالم الدين وتموت الروح الإسلامية ولا يقوم لها وجود :

الافتراق داعى الخـــذلان

لقد أشرنا آنفا الى بعض ما كان عليه الحال فى الآونة التى أثار الله فيها الدعوة اليعربية ، وأقام الله عز وجل برحمته عبده الأواب ، والسيد المهاب ، عالى الجناب ، وأحب الأحباب ، ناصر بن مرشد اليعربى ، وكان ملك عمان فى أيدى المتزعمين ، فكانت نزوى لسلطان بن محسن بن سليمان ابن نبهان ، وكانت سمائل لمـــانع بن سنان العميرى ، وكانت بهلى لسيف ابن محمد الهنائى ، وكانت سمد الشـــان لعلى بن قطن الهلالى ، وكانته أبراء لمحمد بن جيفر بن جبر الجبرى ، وكان صور وقريات ومسقط والجانب الشمالى من الباطنة للبرتغال ، وكانت نخل لعمه سلطان بن أبى العرب ، وكانت الرستاق فى يد أبيه ، وبعد موته تولاها بنو عمه ، وكان حصن الغبى لآل هلال رهط الجبور ، وكان حصن مقنيات فى يد الجبور أيضا ، وكانت ينقل فى يد الجبور أيضا ، ومالكها ناصر بن قطن وكانت لمحمد بن جيفر ، وكانت صحار بيد البرتغال وكذلك مسقط ، بل هى العاصمة إذ ذاك لمـــا لها من الأهمية ، وكانت جلفار بيد العجم والمالك لها ناصر الدين العجمى •

هذه هى الحال التى كان عليها أمر عمان فى هذا العهد ، ولتفرق الملك فى أيدى البغاة حكمة بديعة يعقلها أفراد من الرجال ، ولله أمر هو بالغه ، وحكم هو نافذه ، واذا أراد الله أمرا كما قلنا آنفا هيأ له أسبابا ، وأراد الله الذى له كل شىء أن يعيد نور الشريعة على الأفق العمانى ليكون هداية لذلك الجيل فى ذلك القرن •

ذكر مؤهلات الإمام ناصر بن مرشد لهذا المنصب العالى

أولها أنه كان رحمه الله من بيوتات الشرف كما قدمنا ، فهو من العنصر اليعربى العربى ، وجده سلطان الرستاق وتوابعها ، وقد مضى لها عهد وهى حكومة مستقلة ودولة منفردة بعمان كما عرفت ذلك فيما سبق .

ثم كان هذا الهمام النجيب علامة فقيها وسيدا نبيها ، والفقه فى الدين هو الحجة التى يعتمدها الزعيم المسلم ، ثم كان على جانب عظيم من الزهد ، فكان أزهد أهل عمان فى عصره ، والزهد فى الدنيا من صفات عباد الله الصالحين ، فلما رأى أهل العلم فى وقته هذه الخصال متوافرة فيه ، ورأوا الحال العمانى متفكك القوى ، جعلوا ذلك العون الصالح لهم لا سما وقلوب الناس متوغرة من فعل الجبابرة ، وبصفة عامة رأوا تلك الداهية الدهياء البرتغالية ، تهم بالتهامهم ، والفرص اذا لاحت وجب اغتنامها ، وهنالك أقام العلماء هذا العمود الصالح ، لأن يستند عليه الدين فاجتمعوا على بيعته والحمد لله .

العلماء الذين اجتمعوا على البيعة لهذا الإمام

لا يخفى أن أمر عمان من قديم الزمان مازال الى علمائها ، وهم الذين يحلون ويعقدون ويقومون ويقيمون ، فى هذه الآونة شاء القدر أن تكون له ثلة من رجال العلم ، أهل الفضل والهدى والرشد والتقوى ، الذين يعلو بهم البناء ويقوى ، وفى مقدمتهم الشيخ العلامة خميس بن سعيد الشقصى والعلامة الجليل مسعود بن رمضان النبهانى السمـدى النزوى ، والعلامة الصالح صالح بن سعيد الزاملى النزوى العقرى ، والشيخ العالم خميس بن رويشد المحروقى ، والشيخ العلامة الجليل عبد الله بن محمد بن غسان مؤلف خزانة الأخيار •

وقال الإمام السالمى رحمه الله : قيل إن جملة العلماء أربعون عالمـا أو يزيدون ، فكان الأساس بهم مكينا والبناء قويا والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولا يخفى أن ذلك من حسن حظ هـذا الإمام ولله فى خلقه أسرار •

قال الإمام السالمى رحمه الله ، وهو يذكر الإمام ناصر بن مرشد : وهو أول إمام من اليعاربة ، وأول من قامت به دولتهم ، وكانوا قبـل ذلك كغيرهم من العرب ، أى العمانيين رؤساء فى الرستاق وما يليها ، أى كانت الرستاق وتوابعها نصيبهم من ملك عمان إذ ذاك ، فإنهم من العنصر النبهانى ، وكان النباهنة كما علمت اقتسموا الملك بعمان ، الى أن قال : وسبب ذلك أى اجتماع المسلمين بعد فرقتهم أى بعد الافتراق الذى تقدم ذكره الى رستاقية ونزوانية ، وبسببه خذلهم الله وتسلط عليهم الظلمة يسومونهم الخسف ، وما وقع عليهم من أمراء الظلم وملوك العشم من تراكم الفتن وشدة المحن ، واختلفت آراء أهل الرستاق ووقعت بينهم المحنة والشقاق ، وسلطانهم يومئذ مالك بن أبى العرب المقدم ذكره •

وهذا يدل أن أهل الرستاق افترقوا فيما بينهم • قال : وهو جـد

الإمام ناصر بن مرشد • قلت : لقد وضعت نسبه الى يعرب بن عمر بن نبهان فيما كتبته من أنســاب أهل عمان • قال : ثم مات مالك وبقيت الرستاق فى يد بنى بنيه وهم أولاد عم الإمام ، فتبين منه أن الإمام عند موت أبيه كان يتيما ، وقد صح أن الشيخ خميس بن سعيد ، وهو من أكابر أهل الرستاق ، تزوج والــدة الإمام ناصر • قال : فتراسل المسلمون وتشاوروا أن ينصبوا لهم إماما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وقدوة العلماء يومئذ خميس بن سعيد الشقصى الرستاقى ، صاحب منهج الطالبين • قيل : وفيهم مسعود بن رمضان النبهانى من أهالى سمد نزوى ، وصالح بن سعيد الزاملى من عقر نزوى أيضا ، بل قيل إن عدة العلماء يومئذ كانوا أربعين عالمــا أو يزيدون قال ولعلهم لم يحضروا البيعة كلهم بل حضرها بعضهم ، ورضى الباقون •

وكانت بينهم المراسلات والتشاور فوقعت خيرتهم على ناصر بن مرشد وكان فيما قيل ربيبا للقاضى خميس بن سعيد ، وكان قد عرفه قبل ذلك ، فدلهم عليه فرضى به الجميع •

قلت : كيف لا يعرفه وقد رباه تلك التربية الصالحة ، وأخذ به الى المنهج الذى أراده الله من المسلم فزاده العلم شرفا على شرفه ، وتوجته التقوى تاج المحبة والصفا •

قال : فعقدوا عليه الإمامة بالرستاق فى عام أربع وعشرين بعــد الألف ، فكان مسكنه قصرى محلة من الرستاق أى عند شيخه زوج أمه ذلك العلامة القدوة سيد العلماء يومئذ •

قال الإمام : الممالك فى يد الرؤساء يشير بذلك الى ما قدمناه ، فقام بأموره رجال اليحمد بأنفسهم وأمدوه بأموالهم وذخائرهم •

قلت : وفى مثل هذه الأحوال يحسن إنفاق المـال ، ومن طلب الخير فليحتمل فيه كل ما عز وهان ، فإن سلعة الله عز شأنه لها ثمنها الرفيع (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا) الآية ، ومن طلب العلياء لم يغلها مهر ، قال : وأجمعوا أن يهجموا على القلعة ليلا ، فما كان إلا أن حميت حفائظهم وتجردوا للمصاعب ، فما شعر بنو عمه وهم فى تلك القلعة الشماء فما شعروا إلا وأسود الله يقتحمون عليها ، فاستفتحوها وكانت لهم فألا للفتح ، فإنها من أصعب الحصون فى ذلك العهد الذى لم تكن الآلات النارية موجودة فيه ولا السلاح البارودى أيضا موجود ولكن عزائم الرجال هى السلاح الفعال •

الزحف على نخل

ولما تم فتح الرستاق وقبضت عليها يد الحق سارت الركبان فى أرجاء عمان بهذا الحدث الداهم ، واذا بالقلوب تنصرف اليه ، واذا بالرجال تتشوف عليه ، فزحف على نخل يقدمهم الرعب ، وفى نخل عمه سلطان بن أبى العرب ، فأحاط بها أياما وحاصرها حصارا عاما ، فما كان منها إلا أن خضعت للحق وسلمت الأمر ، وعلتها راية العدل ، وأيقن المسيطرون على الحصون أنها زائلة عنهم ، فنزل عمه من قلعتها وعلاها الحق فقرأ على عرشها .

ومن حيث إن أهل البغى يسوءهم ما يرون من العدل الذى يقهر أياديهم على روائها ، ويردهم عن غيهم ، فثارت عليه فرقة من أهلها ممن لا يرى إلا الفساد ، فما شعر الإمام إلا والقوم محيطون به ، فحصروه فى قلعتها ، فجاءه رجال اليحمد ففرجوا عنه الحصار وبصروه على عدوه ، فبدد الله شمل الأعداء ، وأقام أعلام الهدى برجال أشبه بصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم عاد الإمام الى الرستاق ، فكانت عاصمته ، وفى هذه الأثناء جاءته دعوة من أهل نزوى يدعونها لملكها وإزالة ما بها من ظلم وجور فلبى دعوتهم ، وخرج على شريطة المناصرة والمساعدة والمعاضدة والمؤازرة ، لأن الإمام لم تكن عنده مواد كافية ، لأن يستند عليها .

خرج الإمام من الرستاق على طريق الجبل الى نزوى فلم يشع خبر خروجه حتى نزل بسمد نزوى فى شرجة صفد ، واذا بالداعين له لم يفوا بما وعدوا ، ورأى الأمور غير متهيأة للمرام ، فرجع منها الى الرستاق ، ثم تواصلت سلاسل الطلب من عدة أناس منهم الشيخ أحمد بن سليمان الرواحى فى رجال من بنى رواحة ، ومنهم وفود من مانع بن سنان العميرى أمير سمائل إذ ذاك ، فأقاموا معه يطلبون منة القيام على سمائل

ووادى بنى رواحة ولعل مانعا كان طلبه اختبارا لنوايا الإمام ، واكتشافا لمـا عليه من القوة ، فإنه بعد ما تبين نفاقه وكان أحـد المناوئين للإمام ، فإن الإمام رحمه الله اعتمد عليه فى الأموال ، فتجلى نفاقه سافرا ، ففى هذه الآونة أعلن الخضوع للإمام والانقياد للأوامر ، فجاء الإمام برجاله المخلصين على طريق خدش حيث كانت نخل تحت سلطانه ونزل وادى بنى رواحة ، ولعل أحمد بن سليمان كان يحاول المـال الذى غرقه الإمام محمد بن اسماعيل الحاضرى ، ومانع بن سنان يحاول أيضا أحوالا ، فأقام الإمام بهذه الأيام فى هذه الرقعة آملا من الداعين الصفا والوفا ، فدار بينهم مدار النظر ، وعلا صوت الحق على الباطل ، فأسلمت لـه أزكى قيادها ، والشيخ الشقصى هـو زعيم فى هذه الدولة الفتية الجديدة ، التى تحمل مشعل النور لتضىء الظلام الدامس المتراكم ، ثم إن الاتجاه الى نزوى من هـذه الطريق التى مهدها الله عز وجل لعبده الصالح ، وعصبته الميامين ·

فدخل الإمام نزوى على حال هدوء واطمئنان ، كما دخل أزكى كذلك ، فكانت هذه الخرجة مباركة يحيط بها التوفيق ، فنزل الإمـام بالعقر إذ هى مركز نزوى من العهد القديم ، ولكن تحرك بنو أمبو سعيد من أهل العقر ، وكانوا إذ ذاك قوم غلبت عليهم الأهـواء ، ودخلتهم حمية جاهلية ، وباينوا الإمام بالسوء السـافر ، وتظاهروا بالحميـة الجاهلية ، ولكل قوم مقاصـد ، فشايعهم من سوقة نزوى قوم آخرون ، وضعوا مخططهم لقتال الإمام عند خرجه لصلاة الجمعة ، ذلك لأن الإمام يخرج للصلاة على حالة هادئة غير متهيىء لحرب هكذا فى أنفسهم ، ولمـا صح مع الإمام أمرهم ، وتحقق صحة القصد ، أمر بإخراجهم من البلاد وطردهم من أماكن الإمام ، فقد صاروا محاربين ، وأمرهم الى الإمام ما يراه فيهم ، فأخرجوا من نزوى صاغرين ، وذهبوا عن الأرض لاجئين ، فكان فريق منهم عند مانع بن سنان وهم الجمهور فآواهم ·

وبذلك انكشفت خيانته وأسفر عما أضمر ، وكان أعطى الإمـام العهـود والمواثيق على الطاعة ، ولكنها مواثيق نفاق وعهـود ضلال ، والتجأت فرقة منهم الى سيف بن محمد الهنائى ، وكانت بهلى إذ ذاك بيد المذكور ، وحركته على حرب الإمام فما شعر الإمام إلا والهنائى يعلن الحرب على الإمام فى نزوى ، فقابله الإمام بالمثل ، وأمر فى أثناء الحرب ببناء الحصن الذى أسسه الإمام الصلت بن مالك ، فأتم الإمام بنيانه ، واستقر قرار الإمام بنزوى ، ولم يفلح الهنائى فى سعيه ، ورجع الى بهلى خائفا يترقب صولة الإمام ، فتركه الإمام فى الحال على ما هو عليه لعله يتراجع أو يرجع الى الحق ، فإن أنشودة المسلمين هى الرجوع للحق ، وفى هذه الآونة جاء أهل منح يطالبون من الإمام القيام بالعدل فى بلادهم ، فخرج لهم بجيش أخضع به منح وتوابعها ، وقضى على الفساد الذى بها وقد ظاهره أهلها وأمدوه بالمال والرجال ، وظهر علمهم بين أعلام المسلمين ٠

وبعدما أتم أمر منح عاد الى نزوى ، ثم جاء أهل سمد الشان يدعونه الى ملكه وكان المالك لها على بن قطن الهلالى ، كما قدمنا بيانه فجهز الإمام لها جيشا ولى قيادته الى ذلك العلم مسعود بن رمضان النبهانى ، فأخضعها راغمة وتخلى الهلالى منها وتولى القائد أمرها ، ثم جاءت رجال الشرقية وعاصمتها إذ ذاك (أبراء) ، وكان المالك لها كما ذكرنا سابقا محمد بن جيفر بن جبر ، فلبى الإمام طلب القـوم ، فجيش لها جيشا ضخما فاجتاحها تياره ، وبفتحها انتهى أمر الشرقية ، ولم يبق فيها منافس الى جعلان ما خلا صور بالساحل الشرقى ففيها البرتغال ، وكذلك فى قريات ومسقط وصحار ، فإن البرتغال تولوا الأبواب من عمان ٠

ولا شك أن الدخول والخروج من الأبواب وأما الاقتحام من الخلف فأمر صعب لا يصار اليه إلا بعد ما يتعذر أمر الأبواب ، والمنغشمون يتهورون فى الأمور ، إلا اذا توفرت القوى ، وبعد هذه الآونة سحب الإمام جيشه لمحاربة الهنائى ببهلى ، حتى اذا قاع المرخ من حدود بهلى ،

رأى فى الجيش بعض الفتور ، ولعل هناك شيئا من الدسائس متى تعترى الجيش فى بعض الأحيان ، فإن النوايا تعتريها فى بعض الأحيان أحوال تخالف سياسة الوقت ، فرجع الإمام على غير حرب ، واستقر بنزوى وطن الإمامة بعمان ، وبعد مدة اجتمع له جيش ضخم من عمان ، فتوجه به لبلاد الظاهرة وترك الهنائى ببهلاه حتى يحين وقت حينه ، فافتتح هـذا الجيش وادى فدى وهو مفتاح تلك الثغور ، فبنى حصن فدى ، ورأى من أهل علاية ضنك عونا ناشطا ، ومساعدة فعالة ، ذلك لأن القائد لهم ذلك البطل الشيخ العالم خميس بن رويشد الذى قدمنا ذكره ، ولا شك أن أهل الخير يدعون للخير ويعينون عليه ، ولمـا فرغ الإمام من أعماله هنا انسحب بجيشه متفقدا للبلاد حتى انتهى الى سمد الشـان ، وأكثر الجيش فى هذه المرة بنو ريام ثم عاد الى الرستاق .

النفاق يثير الشقاق ويدعو الى الافتراق

كان الإمام ناصر بن مرشد رحمه الله يغلب عليه الحلم ، ولذلك يعاهد الناس ثم يخونون فيعرض عنهم استبقاء لهم وحقنا لدمائهم ، وقد علمت رجوعه عن أهل نزوى ورجـوعه عن أهل بهلى ، وهكذا غالب أحوال أهل العصر ما لم يروا بريق السيف ، فى الآونة هاجم محمد بن جيفر بلدة نخل واحتلها ما عدا قلعتها ، فنهض إليه الإمام بمن معه وشد عضده رجال المعاول ، فلم يبق لمحمد بن جيفر ما يتعلق به مما كان رامه ، بل لم يبقوا بنخل إلا ليلة والليلة الثانية هربوا من البلاد ، وعلى كل حال أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض فالحق هو الباقى والباطل هو الزائل .

الظاهرة تظهر عدائهـا

تحركت عصابات الفساد بالظاهرة ، حين رأوا حلم الإمام الأرشد لا يعاجل الجناة بالعقاب ، وذلك مما يجرأ أهل الباطل فى هذه لأثناء ، وعندما فرغ الإمام من نخل اذا بالغبى تتعرض لفساد عاجل عندما وصل الإمام الرستاق ، وقر قراره بها ، تواطأت رجال الظاهرة على حرب الإمام ، واشتهر به ال هلال وهم رهط الجبور ، ومعهم طغام الظاهرة الذين لم يعرفوا إلا سفك الدماء والسلب والنهب والتمرد والعتو على أهل الحق ، وكان مجتمعهم بحصن الغبى بين العراقى وعبرى ، فجاء ذلك البطل المقدام الشيخ خميس بن رويشد يستنهض الإمام ، ويذكر الأحوال ويحركه على قطع مادة الفساد ، فثار البطل المجـاهد الزاهد العابد ، وجمع الجموع وتولى قيادتها بنفسـه حتى نزل بالصخبرى ، وجاءه أهل السر الذين لا يمالئون أهل الباطل ، وجاءه رجال الضحاحكة يحملون اليه المـال ، ويسوقون اليه الرجال •

وهذه الأعمال هى التى تخلد لأصحابها الذكر الحسن الذى يشتاقه أهل الإيمان ، فزحف على الغبى وتلاقت الأبطال ، وتراحفت الرجال ، ودارت رحى الحرب ، ونادى منادى الدين والإيمـان ، هلم ياحماة الأوطان ، من أبطال عمان ، فوقعت بين الفريقين مقتلة هلك فيها الكثير من المسلمين وغيرهم ، وقتل فيها أخو الإمام وهو جاعـد بن مرشد ، وانكشفت الوقعـة عن حال يسىء الطرفين ، ولم تنته إذ ذاك فعاجل الإمام عبرى التى هى عروق الشر ، فقبض على ناصيتها ثم عاد الى الغبى وحاصرها حصارا قضى بإذعانها له ، فخرج بغاتها وتولاها الإمام ، وولى فيها خميس بن رويشد المذكور ، ثم تولى حصن بات ، وكانت لـه أهمية إذ ذاك فولاه من ارتضاه من أهل الرستاق من يعلم ثقته وحزمه ، وناصره بمحمد بن سيف الحوقانى وعهد اليهما بفتح ما بقى من حصون الظاهرة ، إذ هما محل ثقته وأمانته ، ويعلم حقيقتهما •

ورجع الإمام الى وطن الإمامة نزوى ، وفى هذه الأثناء وبعد العلم برجوع الإمام من حرب الغبى ومتعلقاتها ، ثارت عليه ثارة البغى من آل هلال الذين مازالوا إذ ذاك شرا مشتعلا لا يزال يظهر فى بقاع من عمان ابتلاء من الله لأهل عمان ، حتى يميز الله الخبيث من الطيب ، والله يبتلى عباده اختيارا لهم ، ولا شك أنه العالم بأحوالهم ، ولكن تلك سنته تعالى فتجمع آل هلال ومن معهم بضنك ، وضربوا معسكرهم بالأفلاج ، وظلوا غزاة على الظاهرة حيث هم بادية على طائراتهم من النوق فى ذلك العهد ، فالتقاهم الولاة الذين قررهم الإمام حماة لتلك النواحى ، ففضوا فضا ، وقضوا على جمعهم واستولوا على إبل قطن بن قطن زعيم القوم ، وحاصروا حصنه ، وكان هو خارجا منه فجاء الى الإمام معتذرا متبرئا متنصلا مما وقع أنه لم يكن بعلمه ولا بأمره ، فسلم الحصن للإمام على أن ترد لـه إبله ، فردها الإمام عليه وهو القرصان المنافق والمفسد فى الأرض ، أحد قطاع طرقها وأكبر بغاتها ، يعامله الإمام رحمه الله معاملة المؤلفة قلوبهم المرجو رجوعهم المحذور فسادهم .

الإمام يعهد الى ولاته بفتح باقى حصون الظاهرة

بعد انتهاء قضية عبرى والغبى ، وما كان للإمام فيهما من النصر المؤزر رجع الإمام الى نزوى وعهد الى الولاة الذين تركهم على الغبى وعلى عبرى ، وبات وأمرهم بفتح ما بقى من حصود الظاهرة ، لأنه خلف لديهم جيشا ضخما من هيبته ، وجحفلا جرارا من الرعب يقوم عنه مع ولاته بفتح ما بقى من الحصون ، فإن هيبة الحق هى التى تدوخ جنود الباطل وتدعم زعامة المسلمين ، فإن بنى هلال وهم رهط الجبور خرجوا على الظاهرة آملين أن ينالوا مرادا أبعد غيبة الإمام ، فتجمعوا بضنك كما قدمنا ، والتقاهم الولاة بقلوب غير مرتاعة ففضوا جموعهم ، وأخذوا إبل الطاغية قطن بن قطن ، ولـما خضع المذكور للإمام رد الإمام عليه إبله ، وليته ما ردها عليـه لأنه شيطان ، ولو قبلها الإمام لكان خيرا له وللمسلمين ، ولكن غلب على الإمام الحلم الذى عرف به •

ثم حاصر الولاة حصن مقنيات وكان بيد الجبور ، فثار الجبور بجيش ضخم من طغام الظاهرة الذين لا يفقهون دينا ولا يهتدون سبيلا ، وبعد ما رأوا عجزهم انقلبوا الى حصن بات نظرا الى أنه واسطة العقد فى طريق المسلمين ، واذا قبضوه رأوا أنهم قبضوا طريق الثورة من ناحية الشرق ، والتقاهم الولاة هناك ، فدارت بينهم المعارك منذ صلاة الفجر الى نصف النهار ، وكثر القتل وعظم الخطب ، ولم تزل الدماء سائلة والسيوف تعمل فى الرجال من الجانبين ، وكادوا أن يعجزوا عن دفن القتلى ، فكانوا يحفرون الحفر ويرمون القتلى فيها السبعة والثمانية •

وهكـذا ولم يتسلط البغاة على حصن بات إلا أن شوكتهم بقيت ناشطة ، والقلوب بسبب القتلى حرى دامية جريحة ، وعند ذلك سـار الإمام من نزوى ، ووصل بهلى وكان الهنائى السالف الذكر أحد البغاة العتاة ، وأحد الذين ناصروا الجبور ، فرأى الإمام قلع هذه الشجرة

الفاسدة ، وعند ذلك ثارت الجبور لمناصرة الهنائى ببهلى ، لأنه أحد أركانهم فى حرب الإمام ، وولاته وكان دخول الإمام بهلى ليلة عيد الحج ، وكان الهنائى قد استعد لحرب الإمام لعلمه أن أفعاله تستدعى ثورة المسلمين عليه ، وأن الإمام لابد له من زحفه عليه ، ولكن البغى يصرع صاحبه ، فحاضره الإمام وجيش البغاة ، فاقتتلوا فى البلاد وحواليها وحول حصنها ، ودارت معارك دامية وقتل من جيش الجبور أحد قواده وهو قاسم بن مذكور الدهمشى ، وقتل معه رجال كثيرون ، ورجع الجبور منهزمين ، وبقى الهنائى فى حصنه ولم يزل محصورا حتى رأى أن لابد له من الخروج فطلب الأمن من الإمام فأمنه هو ورجاله وماله وآلة حربه .

وتولى الإمام الحصن وولى عليه والياً ورجــع الى نزوى ، وكان الإمام ناصر ابتلاه الله بالبغاة من عمان ، ومازال هو وإياهم فى أزمات متتابعة وثورات حامية ، كلما سكن حركة بلد قامت عليه أخرى ، والمــال قليل والحروب تتوالى ابتلاء من الله عز وجل لتعلو منزلته مــع الله ، وكان من عباد المسلمين وزهادهم ، لا يميل الى الدنيا ولا يطمح اليهــا ولا ترتفع عيناه الى رياشها كل همه إنصاف مظلوم وإغاثة ملهوف والنهى عن المنكر والأمر بالمعروف ، والناس غلب عليهم العتو ولا يبالون بأمر الدين ، ولا يراعون إلا الرئاسة التى يرفعون بها خسيستهم ، ويأكلون مما هب ودب ولا يسألون عن حرام ولا حلال ، لأن العهد الفاسد طال عليهم عهدا طويلا كما عرفت ، ويرون الإمامة تمنعهم عن مطالبهم وتقهرهم عن مآربهم ، ولذلك يتكاتبون ويتعارفون بأن يناصر بعضهم بعضا .

مانع بن سنان العميرى ثعلب سمائل

كان مانع بن سنان واليا على سمائل ، ولما جاء الإمام ناصر بن مرشد الى وادى بنى رواحة انضم مانع الى الإمام ، وكان من أقرب الناس اليه ، وتظاهر للإمام بالطاعة والصداقة ، فأقره الإمام على سمائل ، بل ترك عنده من جيش المسلمين فرقة ، والذى يفهم من حال مانع بن سنان أنه يريد الإشاعة بأنه مع الإمام على حال اتحاد ليتقوى بذلك فى أعين أعدائه ، أو أنه يريد المكر بالإمام ليكون الإمام طوع رغبته ، فإنه كان من جملة الداعين للإمام الى ملك سمائل ، وقبض وادى بنى رواحة لأنه المضيق الذى يفضى من داخلية عمان اليها ، ومن سمائل الى عمان الداخلية فإنه هو الحلقوم ، كما أن وادى العق كذلك لشرقية عمان ، واتفق مانع بن سنان مع الإمام على أن يسير معه الى نزوى •

ولما طرد الإمام أهل عقر نزوى وهم أمبو سعيد حين رأى منهم ما يخل بالأمر ، ورأى نفاقهم المعلن شقاقهم التجأ فريق منهم الى مانع ابن سنان فى سمائل ، فآواهم بعد العهود والمواثيق التى واثق بها الإمام على الطاعة ، فتوجه الى الإمام لحرب المذكور ، وعندما وصل الإمام سمائل لباه مانع بن سنان ، وتصنع للأمام بالأكاذيب الخاطئة وصالحة الإمام على ألا يخرجه من حصنه ، ويكون تابعا للإمام مذعنا للحق ، فتركه على ما هو عليه وفى الآونة الأخيرة كاتب سيف بن محمد الهنائى الذى كان ببهلى سرا على الإمام ، وجمعا الجموع ودخلا نزوى ، واحتويا على العقر وجميع شئونه ، ولم يبق للإمام إلا حصنه وهو محصور فيه ، وكادوا يحتلونه كليا ، هموا أن يقتلعوه من أصله وهم جموع وافرة •

وعند ذلك قيض الله للإمام أنصارا يؤيدونه فجاءه أهل أزكى ورهط من بهلى وقوم من بنى ريام ففرجوا أزمته وقاتلوا عنه حتى أيده الله بهم ، ولما تم أمر نزوى وظهر أمر الإمام على عدوه ، هم بهدم حصن

مانع بن سنان فى سمائل لئلا يكون مأوى لبغيه ، فخرج الجيش لـــه حتى سمائل ، ولمـــا علم مانع بن سنان بالقصد هرب الى فنجا راجيا أن يرجع الجيش عن الحصن حيث إن مانعا غير موجود به ، فقضى الجيش على حصن مانع ، ولمـــا تحقق مانع هدم الحصن راح الى مسقط ملتمسا له مناصرا ، ومنها الى لوى عند محمد بن جيفر ، ثم راح الى جلفار وكل هذه الأماكن التى راح لها فى يد البرتغال إذ ذاك ، وكان يحاول النصرة منهم ، ورأى الإمام أن قتل مانع بن سنان أمر لابد منه ، فأمر الإمام مداد بن هلوان فعمل مداد الحيلة لمـــانع ، وتعارف مع والى لوى حافظ بن سيف ، فكاتبه مداد وأطمعه فى إدخاله حصن لوى ، وأخذه من يد الوالى بالحيلة ، فتواعدا فى ليلة معلومة .

وكان إذ ذاك فى دبا عند الشحوح فجاء فرحا مسرورا طامعا فى حصن لوى ، ونزل صحار ليدبر هو ومداد الحيلة لحصن لوى ، فعين لـــه مداد الليلة الموعودة ، وإذ ذاك فرق الوالى عسكره فى البلاد كأنهم جواسيس يتجسسون أحوال البلد ، وتعاهدوا أن يلتقوا فى مكان خاص ، ويكون مانع قد صل ذلك المكان ، فما شعر مانع إلا والرجال محيطة به من اليمين والشمال ، فقبضوا عليه قهرا وقتلوه صبرا وأراح الله المسلمين منه ، هذه قضية المذكور أوردناها مسلسلة حتى النهاية .

الإمام ناصر بن مرشد يجدد حصن سمائل

بعد خروج مانع بن سنان من سمائل فارا من الإمام ، وتولى الإمام الحصن أمر بتجديد بنائه فأنفق عليه آلافا من النقود ، وكان من جملة البناء الذى بناه الإمام المذكور القلعتان العاليتان المتقابلتان ، واحدة فى الجهة الشمالية المربعة ،والثانية الجنوبية المستديرة ، وبنى فى السور أيضا وكان الباب الرئيسى للحصن المذكور مقابل مسجد قرنة قائد الذى فى بستان الحوض ، وإنما بدله فى موضعه الحالى أحمد بن عبد الله الرواحى فى أيام تهارش أولاد سعيد بن سلطان ، خصوصا بولاية عبد العزيز بن سعيد ، والمذكور أحمد بن عبد الله ، وانتقل عنه الى سمد الشان ، فرأى أحمد بن عبد الله أن عدوه سيأتيه من قبل السفالة باعتبارها غافرية .

فحول الباب المشار اليه الى الجهة الجنوبية ليقابل العلاية فتكون نصيرته ، واستمر على ذلك وهذا الباقى منه هو بناء الإمام ناصر خصوصا القلاع ، وبقى على ذلك الحال ومن حيث إن الإمام المذكور كان رحمه الله يزن الأمور بميزان عقله ، وينظر الى الدخل بميزان صحيح كان بناؤه متوسط الحال ، لا سيما أن الإنفاق على البناء كما يتطلب الوقت يحتاج الى مال واسع ، مع أن الحروب التى ستنزف المال لا تزال مستمرة ، ولكن الله عز وجل حكيم يضع رسالته حيث هو أعلم بمحلها ، وأخبر برجالها ، لقد ضرب المثل بأيام هذا الإمام زهدا وتقوى وطاعة ورحمة ، وأصبحت عمان فى عهده أشبه بالمدينة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها فدرت الخيرات وعظمت البركات .

حــرب مقنيات

لقد أشرنا الى حرب الإمام لمقنيات ، وذلك أن الإمام لمــا رجــع الى نزوى بعد انتهاء قضية سمائل ، جهز جيشا الى مقنيات ، وتولى قيادته بنفسه ، ولمــا وصلها حالا نشبت الحرب بين الطرفين ، وكان حصنها مانعا وكان جديد عهد لأنه وليد الدولة النبهانية كما عرفته مما تقدم .

وليست لدى ذلك العهد نسافات أو طائرات ، فكان السلاح لمثل هــذه الأحوال الحصار ، حتى اذا فرغ ما عند المحصور طلب الصلح للخروج ، وهكذا أحوال ذلك العصر فحاصر الإمام هذا الحصن ثلاثة أشهر فنفذ ما عند قابضيه ، فاضطروا للخروج وتولاه الإمام ، وولى فيه محمد بن على بن محمد الخراصى كما يقول ابن رزيق فى تاريخه والله أعلم .

البغاة يتجمعون لحرب الإمام

لا شك أن المصائب يجمعن المصابين ، ويؤلفن بين المنكوبين فى كل زمان ومكان ، ولما كان فى هذه الآونة للجبور زعامة وصولة غير هينة لكثرة من يناصر البغى غالبا ، فبعد حرب مقنيات رأى أهل البغى المظاهرة لبعضهم بعض على حرب الإمام ، ورأوا الخضوع للحق صعبا عليهم ، ومنذ العهد القديم أن بلايا عمان من ناحية الظاهرة غالبا ، وأن رجلا يقال له سعيد بن مسعود الحيالى من قبيلة الخيالين من بعض فصائل عمان الجديد ، وكان يتزعم فريقا من البغاة ، فكاتب الجبور وكاتبوه وبقوا يتراسلون ويتآمرون على حرب الإمام ، واجتمع مجتمع القوم فى قرية الصخيرى ، وهنا بدأ تناوشهم ، فقتلوا رجلا من الضحاحكة وقتلوا ناسا من شراة الإمام ، وقامت الحرب والقوم فيها يمرحون بطرا وعنادا للإمام رحمه الله ، حيث هو يريد الحق وهم يريدون الباطل .

ولا شك أن جنود الباطل أكثر فى كل أمة منذ خلق الله الخلق ، ومنذ أرسل الرسل وأنزل الكتب ، وما زالت الوقائع بين هؤلاء البغاة وأنصار الإمام ورعاياه ومن أطاعه ، ومازال الصراع قائما على أشده ، ووقعت بينهم ست وقائع هائلة كاد يتزعزع منها ركن الاسلام لولا أن الله بفضله ربط على قلوب المسلمين ، وحبب اليها الصبر على البلاء ، منها وقعة شديدة بموضع يقال له العجيفة أو العقيقة بالقاف بدل الجيم ، والثانية وقعة مثلها بموضع يقال له الغاية ، والثالثة وقعة بموضع يسمى المطهرة ، والرابعة وقعة شديدة بموضع يقال له الزيادة ، وهى التى هلك فيها الكثير من الناس ، وفقدت فيها أشخاص من الرجال .

وكان قائد المسلمين فى هذه الوقائع التى ذكرها التاريخ إجمالا محمد ابن سيف الحوقلنى فيما أحسب ، وهو البطل الذى صارع تلك الرجال الجائرة الغالب عليها البطر ، فدوخها ولم يتزعزع عن مواقفه ، ولله رجال

تقربهم العين ، وتسكن اليهم النفوس ، وعند الابتلاء تبرز رجال الحق وتظهر على مسرح الأحداث ، معلنة تأييد الحق غير متبرمة فى شىء ما .
مع أن المذكور فر عنه أكثر رجاله حيث ملوا الحرب وضاق بها ذرعهم ، وما بقى معه إلا القليل ، وهو فى أزمة شديدة يتذرع فيها الصبر ، ويحتمل وطأة البغى صابرا محتسبا ، وآخر أمره انحصر فى حصن الغبى وقد أحدقت به الرجال فحصرته حصرا شديدا حتى أغاثه الله بوالى مقنيات ، وهو محمد بن على بن محمد المعروف ، جاء بجيش كثيف وأبطال انتخبهم ، فدخل الغبى على حين غفلة من جيش العدو ، فما شعروا إلا والجيش متغلغل فى البلد تعمل سيوفه فى الرقاب ، فارتاع البغاة روعاً شديداً ، وتفرقوا فرارا فى الأرض على وجوههم ، منهم الى بلدة ينقل ، ومنهم الى الصخبرى ، ومنهم الى الفياف والقفار ، ونحل أمرهم من الغبى ونجا الوالى ومن معه من شرهم .

سرية لبلاد سيت

كان سيف بن محمد الهنائى فى بلاد سيت من عتاة الرجال الذين يرون أنهم أولى بكل زعامة من شأنها السيطرة بعمان ، فإنه لمـا خرج من بهلى حدثته نفسه أن يبنى حصنا ببلاد سيت يكون مأوى له ولمن معه من الرجال البغاة ، ولمـا علم الإمام الأرشد ناصر بن مرشد ذلك الحال منه ، وقد عرفه فيما سبق من حاله جهز له جيشا وجعل قائده العلامة عبد الله بن محمد بن غسان مؤلف خزانة الأخيار فى بيع الخيار .

ولمـا حل الجيش بدار سيت استشعر المذكور العجز وأيقن بالذل ، ففضل الخضوع والهرب من البلاد ، فتولى الشيخ القائد الأمر فى البلد ، وأمر بهدم الحصن المشـار اليه فهدم ، وبعد ذلك ضاقت الأرض بالمذكور فجاء الى الإمام مظهرا للتوبة يطلب العفو من الإمام والصفح عما أحدث ، فعفا عنه ومنع البناء لمثل هـذا الحال أصلا ، وهدأت سـورة المذكور واستكان لسلطان المسلمين .

الإمام يزحف بنفسه على ينقل

لـــا انتهى أمر الهنائى سيف بن محمد فى بلاد سيت ، خرج الإمام رحمـــه الله بجيش ضخم الى ينقل لتأديب ناصر بن قطن صاحب ينقل فنزلها جيشه المرهوب ، وأحاط بالبلاد وطبق عليها الحصار فضاق ذرع الهلالى ولم يسعه حصنه ، فطلب التسيار من الإمام فسيره وولى على البلد واليا ورجع الى الرستاق عاصمة إمامته مكللا بالنصر والظفر •

سرية الى شمال عمان

من حيث قلنا سابقا إن داء عمان لايزال يأتى من شمال عمان ، وإن أرض الجوهى المصباح المطل على عمان الشرقية ، ومنه يتراءى الغربيون شرق عمان وأن الموتورين ببغيهم لا يزالون متحيزين الى ذلك الأفق ، عند ذلك جهز الإمام سرية كبيرة تفوت الاصطلاح فى السرايا ، جعل قوادها أولئك الأبطال الذين جربوا الحرب وجربتهم ، وهم عبد الله بن محمد بن غسان الذى هدم حصن سيف بن محمد فى بلاد سيت ، وخميس بن رويشد الضنكى ، وحافظ بن جمعة الهنوى ، ومحمد بن على الرستاقى ، ومحمد بن سيف الحوقانى ، هؤلاء الخمسة هم أركان الجيش فخرج ذلك الجحفل الأرعن له زحزحة فى الأرض ، يقدمه الرعب ، فجاء أولا الى الجو والمراد بها ناحية البريمى ، وهى الرأس إذ ذاك الذى يجب أن يكسر أولا أو يقطع ، ولما نزلها علم الحق خضعت نعرتها وسنكت شرتها ولم ترفع رأسها خوف قطعة ، فتولاها الشيخ محمد بن سيف الحوقانى العمود الصلب ، وبعد ذلك انسحب الجيش الى أرض الشميلية بالساحل على طريق وادى الجزى ، فنزل لوى وكان بها جبابرة ، فاختلفوا فيما بينهم ووقعت بينهم فتن قتل فيها محمد بن جيفر .

وكان ذلك سبب تغلل الصداوة فيما بينهم ، فنزل القائد الأكبر عبد الله بن محمد بالجامع منها ، وأمر الجيش أن يحيط بالبلد وبالحصن ، وكان إذ ذاك فيه سيف بن محمد بن جيفر وفر عنه إخوته وأعيان قومه ، والتجأوا بالنصارى البرتغال وفى صحار ، وقاموا يمدون إخوانهم المحصورين بحصن لوى بالطعام وآلة الحرب ، ويغزون بالليل لجيش المسلمين ، فرأى القائد المذكور أن يجهز من الجيش سرية أمر عليها محمد بن على ، ووضع لهم برنامج سيرهم وهجومهم على عدوهم الذى بصحار ، سواء كان من العرب أو النصارى ، فلم يشعر المذكورون إلا والجيش محيط بهم ، وقبل الصباح بقليل كان الجيش

بالموضع المسمى منقل مقرن ، وهو مكان يقع جنوب الحصن ، فدارت المعركة بين الطرفين واشتد أمرها وعلا لهبها وقتا قضى الله فيه ما شاء أن يقضى فانقطعت غزواتهم إرسال المـدد لحصن لوى مع الحصـار المستمر به .

وبعد مدة رأى صاحب الحصن أن لا محالة عن الخروج ، فطلب من القائد الأمان لينزل من الحصن ، ثم خرج خفية ولعله خـاف القتل ، وكذلك من معه بعده ، وتولى الشيخ القائد الحصن ، وكان الحصـار ستة أشهر تماما قضـاها المسلمون فى هـذه الوقفة الحرجة ، وكان ناصر بن ناصر بن قطن ورجال العمور قد ظاهروا المسلمين على حصار حصن لوى ، ذلك للخلاف الذى وقع بين الجبور أنفسهم ، كما أشرنا اليه آنفا ، ولذلك ولاه قائد المسلمين رجلا من الجبور المناصرين للمسلمين ، وجعل مع هـذا الوالى الرجـال الذين يثق بهم دينا وايمانا واخلاصا للمسلمين ، لأن الجبور لا يؤمن شرهم ، ولكن كانت تلك الولاية كمكافأة من القائد للناصرين ، وترغيبا لهم فى ثباتهم بجانب الإمـام ، ورجـع القائد المظفر بفتح الجو ، وفتح لوى وأنه لأمر غير هين .

ولكن من ينصر الله ينصره الله ويؤيده على عدوه كما صرح بذلك عز وجل فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

السرية الكبرى الى مسقط

لما كانت مسقط إذ ذاك بالمكانة المرموقة ، وهى المدينة المحاطة بالجبال الشاهقة والمحصنة بالقوات الكاملة ، لعلم البرتغال بأن الدار لابد لأهلها منها ، ولابد من هجومهم عليها ، ولا جامعة تجمع بين الطرفين ، وإنما الاعتماد على القوة ، وكان البرتغال قد أخذوا أهبتهم لما كان أهل عمان متهارشون فى داخليتهم غير ناظرين الى الساحل بنظر طويل ، هنا جهز الإمام المجاهد الناصر لدين الله ، المتجرد لقتال أعداء الله ، بكل ما لديه من قوة جهز جيشا أسند قيادته الى العلامة المجاهد مسعود بن رمضان النبهانى من أهالى عقر نزى ، فخرج المذكور حتى أتى المطرح ، ونزل بطوى الرولة ، وضرب معسكره بها ، فجاءته جنود الأعداء فالتقاهم بأبطال عمان الذين مارسوا الحروب وقابلوا الرجال .

قال ابن رزيق المؤرخ ، بعد أن ذكر وصول الجيش : فدارت رحى الحرب بين المسلمين والمشركين فنصر الله جيش المسلمين أو قال جيش الإمام ، قال : فهدموا من مسقط بروجا باذخة ، ومبانى شامخة ، وقتلوا كثيرا من المشركين ، قال : ثم إن النصارى طلبوا الصلح فصالحهم القائد المذكور ، أى بعد ما راجع الإمام على فك ما بأيديهم من أموال العمور وأموال الشيعة التى قبضوا عليها فى صحار ، قال : فأذعنوا بالطاعة فأمنهم مسعود على ذلك ، وأخذ منهم العهود والمواثيق على الوفاء .

ورجع الى الإمام ، وكان من جملة الشروط التى وقع عليها الصلح أن يؤدى النصارى المذكورون الجزية رأس كل سنة ، وألا يؤذوا مسلما اذا وفدوا على مسقط ا هـ .

وكان هؤلاء النصارى البرتغاليون جبابرة عتاة طواغيت ، لما تسلطوا أساءوا الى الناس تماما وغلب عليهم البطر ، ورأوا أنهم قاهرون ،

وقد تغلغلت عداوتهم للمسلمين طبعا ، وكان النصـارى المذكورون قبضوا على أموال العمور وأمـوال الشيعة فى صحار حين ناصروا المسلمين ، وصحار إذ ذاك فى أيديهم ، وكان جنودهم نازلوا جيش المسلمين فى مطرح عنـد وصوله بها ، وانهزموا الى مسقط بعد قتل وقع فيهم ولحقهم الجيش فى قلب مسقط ، ولم تمنع المسلمين الجبـال المحيطة بمسقط ، بل قبضوا البلاد وهدموا أبراجا على جبال مسقط ، وقلاعا منيعة إلا أن الحصنين الكبيرين الجلالى والميرانى المنيعين يصعب فتحهما إلا بعد حصار طويل وشـدة عزيمة ، فرأى القائد البطل الصلح فى الحال أصلح الى أن تراجع قوة المسلمين .

ورأى النصارى أيضا الصلح لهم أنفع فى الحال والنظر فى المقبل من الطرفين المعتاديين ، والبادى أظلم ، لكون البلاد بلاد المسلمين النصارى تعدوا عليهما ، لا سيما بعد ما جرت الدماء ووقع القتل والنصارى هم المعتدون على ممالك المسلمين وفى بلادهم ، وكانوا أجبروا الأهالى على التخلى من أملاكهم من رقعة مسقط وطردوهم منها وحصنوها بسـور مانع ، وضربوا عليه الأبواب الضخمة التى تقوم عليها سلطنتهم الظالمة ، ومنعوا العرب من الدخول أصلا .

وبعد ما تعاطوا كؤوس الحمام وعظم بينهم الالتحام ، وبعـد ما حمى الوطيس بينهم كما قال الإمام فى تحفة الأعيان ، حيث يقول : وقتل منهم خلق كثير لا يحصون عددا « وتمنعوا بالكيتان وبعالى البنيان » وبقوا بمسقط على هذا الصلح المعلق بالشروط الثقيلة التى أشار اليها أمير البيان فى تعليقه كما عرفته حتى أخرجهم منها الإمام سلطان بن سيف ابن عم الإمام ناصر كما سوف تراه فى محله إن شاء الله .

السرية الثانية لفتح جلفار

لما رجع القائد النبهانى من مسقط منتصراً ورأى الأمام رحمه الله أن سياسة القائد حسنة أو مستحسنة ، ورأى من الواجب القيام على جلفار لأنها باب عمان الغربى الشمالى ، وبها كما قدمنا العجم ومعهم بعض النصارى مناصرون لهم ، جمع الإمام الجيش وانتقى من الرجال الابطال ، وعقد لواء هذه السرية باسم على بن أحمد وعضده ببنى عمه من آل يعرب ، فسار الجيش الى جلفار ، وكان عليها ناصر الدين العجمى ، فكانت سهمه الحالى من ملك عمان والعجم يراعون فى جلفار معنى لم يهتد إليه غيرهم ، فأحاط بها الجيش وقامت الحرب على ساقها وأطلقت الحصون نيرانها والنصارى تقذف بمدافعها من البحر فما كان من المسلمين العمانيين إلا الاقتحام لأسوار الحصن وأبراجه ، ولم تكن إلا فترة قصيرة واذا ببرج الحصن فى يد المسلمين أخذوه ليلا وقتلوا من فيه ، وتسابقوا الى الحصن فاحتلوه بأسرع من رصاصهم ، ودوخوا البلاد قهرا ومزقوا العدو قسرا ، وكان على ساحل البحر حصن للبرتغال فزحف عليه فريق من الجيش بقيادة الدهامش ، ورجل آخر يقال له خميس بن محزم فهجموا على الحصن نهارا واختطفوه بأسرع ما يمكن واحتووا على ما فيه من العتاد والسلاح .

وبنى المسلمون حصنا جديدا خوف المهاجمة الباغتة فقام بأسرع وقت ، ونزل القائد بقواته وبذلك سقط فى يد العدو ، وطلب النصارى الصلح فصالحهم القائد وأخرجهم من البلد خزايا وندامى يعضون على أصابعهم راغمين ، وبعد ما استقر الأمن فى المنطقة ولى القائد على الحصون واليا يعرف من أين تؤكل الكتف ، ورجع الى نزوى فابتهج الإمام بهذا الفتح والعمل الطيب الثمين .

الإمام والمسلمون يعالجون أمر صحار

ولمـا يسر الله عز وجل بفتح جلفار ، دار النظر حول صحار ، وقد رأى المسلمون أنهم سدوا ثغر جلفار ، وأوقفوا مجارى المياه الى صحار ، أخذوا فى أمرها وهى كما لا يخفى أمرها جوهرة العقد وكرسى الطرف الشمالى فى ذلك العهد ، ودارت انظار المسلمين المبتلين بأمر هذه الديار ، وبعد ذلك اتفقوا أن يأمر الإمام والى لوى أن يتقدم الى صحار ، ويبنى بها حصنا يكون ملجأ للمسلمين ، ومعقلا ينزلونه عند مصاولة الأعداء ، وكان الوالى بلوى إذ ذاك حافظ بن سيف الذى اتفق هو ومداد بن هلوان سابقا على قبض مانع بن سنان العميرى ، كما قدمنا قضيته .

وكان مع حافظ المذكور رجال العمور شراة متجردون لمناصرة الحق ، وتأييد العدل ، وكان البرتغال بصحار ضربوا أطنابهم ، وخيموا فى رحاب صحار ، عاضين عليها بالنواجذ ، ولمـا تقرر عزم الوالى على تنفيذ أمر الإمام ، وهو يعلم أن الشر غير بعيد عنه ، أرسل الى من بقربه من القرى من بنى خالد وبنى لام والعمور ، واجتمع معه كثير وعسكر غير هين ، وكان بصحار رجال يحبون الحق ويتعارفون مع الوالى المذكور فى ملك ..

وعلى كل حال إن المسلم لا يود أن يسيطر عليه عدو أجنبى لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وإذ ذاك خرج الوالى المؤيد بجيشه الى صحار لصدده وبات بعمق ، وعميت الأخبـار على أهل صحار ، حتى صبحها ضحوة النهار فى آخر يوم من محرم الحرام عام ثلاث وأربعين وألف سنة للهجرة ، فنزل بموضـع يقال له البدعـة ، وأظهر عزيمة الحرب للمشركين الذين هم البرتغال ، وزحف بجيشه الباسل حتى وصل الى حصن ابن الأحمر ، وهـو من عتاة العجم وطغاة الفرس ، وحالا دارت رحى الحرب عند وصوله ، واشتدت الأزمة ، وكانت النصارى ترمى بنيران مدافعها من حصن صحار ، فقوى الله المسلمين وأيدهم بنصره فانتقل الوالى بجيشه متقدما الى العدو ، ووقع القتال .

وجاءت طلقة مدفع من مدافع البرتغال ، فأصابت راشد بن عباد من أعيان رجال الوالى ، وفى مجلسه ، ومات شهيدا رحمه الله ، وهنالك تمركز الوالى وهم ببناء الحصن الذى أمره به الإمام ، واجتهد فى بنائه بأسرع ما يمكن والرجال اذا عزمت على شىء بنشاط وإخلاص ، لابد أن ينفعل ، فتم بناء هــذا الحصن ونزله الوالى وعند ذلك توالت المناوشات بين الطرفين ليلا ونهارا ، وقامت حرب متواصلة بقوى متفاعلة .

وكان من السياسة أن تقوم قوة من الإمام تقضى بمشاغلة البرتغال فى مسقط حتى لا تكون لهم عزائم فى الساحل الشمالى تؤيد حرب صحار ، فعقد الإمام لواءه لسرية خرج بها العلامة خميس بن سعيد الشقصى ، حتى نزل قرية بوشر ، ولمــا علم النصارى ذلك أرسلوا اليــه يطلبون الصلح ، فأجابهم وتقرر وصوله مسقط ، وعند ذلك أرسل عيونه إليها خوف الغدر من أهل الكفر . ولمــا وصل مطرح واجهه أكابر البرتغال ، وقرروا الصلح على شروط معروفة لهم وعليهم تكون صالحة للطرفين من نواح ، هى أصلح للمسلمين .

كان منها فك الحصار عن النصارى ، وفك المقابض المحيطة بهم ، والترخيص للناس فى السفر اليهم وكف الأيدى عن القتال على شرط أداء الجزية المفروضة عليهم وعدم تعرضهم للمسلمين بأى أذى ، ورجع لهم المقابض التى أخذها منهم ، ولعل القصد من هذا تبريد حركتهم وتوهين قوتهم ما دامت قوة غير كافية لقلع شجرتهم ، ولكل وقت سياســة ، وبهذا يتأخر العدو عن الاستعداد ، مع أن القوم كانوا أقوياء عــدة وعددا ، ولهم دولة بالغة أوج عزها إذ ذاك ، وخاف المسلمون من هياج الحرب أن يتقوى العــدو فى البلاد زيادة ، وعلى شرط ألا يتعرضوا لحرب المسلمين فى أى مكان من عمان ، فقر البرتغال فى مسقط وفى صحار على ما هم عليه والمسلمون حولهم يراقبون الحركات والسكنات .

فتح صــور

لا يخفى أن صور من المدن المهمة فى عمان لا سيما وهى على الساحل الشرقى ، رأى الإمام أن صحار بقيت على جناح الصراع ، وقد سـد الإمام عليها الثغر الغربى بحافظ بن سيف ، وصالح البرتغال فى مسقط ، ولم يدخل صور فى صلح مسقط ، وإذ ذاك أرسل اليها الإمام جيشـا بقيادة ابن عمه سلطان بن سيف بن مالك ، الذى كان فى علم الله عز وجل أن يكون الخلف الصالح لناصر بن مرشد ، والمصلح لعمان كما سـوف نرى ذلك فى محله إن شاء الله .

خرج هذا الهمام البطل يقود جيشا عمانيا لتطهير البلاد من معرة الأجنبى ، ولمـا وصل صور أحاط بالحصن ، ولم يطل عهد حصاره فسلم الأمر وقبضه الجيش وأذعن البرتغال له إذعانا كليا وخضعوا له فى صور تماما والحمد لله .

الزحف على قريات

إن قريات من الثغور البحرية المؤدية الى الداخليـة ، وكم دخل العـدو منها الى عمان ، فأرسل لها الإمام فرقة من الجيش الغـازى لصور ، وكان البرتغال قد قووا حامية قريات لأجل مسقط ، فنزل بهـا الجيش وشرع حالا فى بناء حصن بها ليكون ملجأ لحصار البلاد ، ورأى القابضون لها عدم إمكان استقرارهم فيها ، فسلموا الأمر ولم تنفعهم حامية مسقط ، لأنها هى الخائفة على نفسها ، وواقعة تحت نير الشروط التى صالحهم عليها القائد المحنك العلامة مسعود بن رمضان النبهانى ، وباحتلال قريات لم يبق إلا صحار ومسقط ، بقى فيهما النصارى على ذلك الصلح الذى ذكرناه ، واحتوى الإمام على جميع عمان ما عـدا هاتين المدينتين المذكورتين الى أن يوفق الله للاستعـداد لزوال هـذه الآفة الكبرى .

فإن هؤلاء النصارى قد تغلغلوا فيهما وقبضوا عليهما بأياد من حديد لا تنفك بالسهل ، وحال الإمام وأهل عمان كل يوم فى صراع وعراك لتعاظم البغى فى الرؤساء ، وأهم هؤلاء البغاة فى هذه الآونة هذا القرصان الطاغى ناصر بن قطن الهلالى الذى لا يزال يغزو عمان فى كل سنة ، يأتى من ناحية البريمى على طائراته ، ويلتف معه الغوغاء من كل صوب من هذه الناحية ، ويسحب من عمان المواشى ، وينهب من لقى ولا يبالى ويفعل فى الناس ما لا يرضاه الله ، ثم يهرب الى الأحساء وذلك بعـد خروجه من حصن ينقل ، فرأى الإمام أن يجعل للوالى محمد بن سيف عينا لهذا القرصان الظالم .

حرب الطاغية ناصر بن قطن

لم يزل هذا الطاغية شرارة متقدة وسهما حاميا يوقد عليه النار بغاة أهل عمان ، وأيده أهل الضلال والعدوان ، الذين يسوءهم الحق وهم موجودون فى كل زمان ، وقد ابتلى الله بهم أهل عمان ، ولا ريب فإن الله ابتلى الأنبياء بشياطين الإنس والجن ، وللمسلمين من ذلك حكمة بديعة يجهلها كثير من الناس ، وكان هذا القرصان العاتى يتحصن ببعد المسافة ، ولا يعرف متى يكون وجوده بعمان ، فإذا خرج التف عليه البغاة المفسدون ، وعاثوا فى الأرض ينهبون ويقتلون ، وكل ما يلاقونه لا يتحرجون من شىء ما ولا يراعون شيئا لصديق أو عدو ، بل كل ما عندهم النهب والسلب والقتل فى عمان .

ولم يزل يغزو بادية عمان واهتم الإمام بأمره وأمر محمد بن سيف الوالى للطرف الشمالى أن يلقى باله لهذا الطاغى ، ويجعل له العيون الواعية ، فاذا علم به التقاه رجال المسلمين فقام الوالى المذكور ، وجمع عسكراً جما وبقى مراقبا لهذا القرصان من أى جهة يخرج ، ولما بلغه خروجه تلقاه الوالى فهرب منه ودخل الظفرة واحتصن بحصنها وتعصب له بنو ياس ، فعاد منهم فى منعة ، وإذ ذاك وجه رسله الى الوالى يطلب الصلح ، وكان الوالى قل عليه الزاد ، وبعدت عليه الدار ، واختل عزمه لهذا وتأثر به وخاف الفشل فصالحه على رد ما نهبوا ، وغرم ما أتلفوه مما كسبوا ، ونهبوا من عمان واقتنع الوالى بذلك فى هذا الحال ، ورجع الوالى الى مقره بمن معه من القوم ، وبعد رجوع الوالى المذكور هم ناصر بن قطن ، بالهجوم على حصن الجو ، أى البريمى ، فجمع البدو من الظفرة وغيرهم ، وكان والى الجو إذ ذاك أحمد بن خلف ، واذا بأهل الجو كلهم على الوالى مع ناصر بن قطن ، ولعلهم تأثروا من وطأة العدل التى عليها الولاة ، فإن الوالى والرعية غالبا يكونون ضدين ، فما شعر الوالى إلا والجنود محيطة به من كل جانب ، وحوصر الوالى فى حصنه .

ولما علم الولاة من الظاهرة والباطنة ، جاءوه مناصرين ، ولما بلغ ناصر بن قطن ذلك خرج من البريمى ومن معه منهزمين ، ثم لحق بهم القائد الأكبر عبد الله بن محمد من نزوى ، فأمر بهدم حصون الجو ، فهدمت كلها إلا حصن الإمام كسرا لقوة أهل البغى ، وبذلك تفرق الأعداء ، وكل اتخذ له وجهه يتحين فيها الفرص ، فأما عمير بن محمد فالتجأ بالنصارى فى صحار ، وأما بدو الحسا فتعلقوا بطريق جلفار ، ويرون لهم هناك منعة وحمى ، وضربوا معسكرهم على عقبة جلفار متحصنين بها ، وظلوا يقطعون الطرق من هناك ، يغزون البلدان المجاورة حتى شاع خبرهم ، ونمى الى الولاة أمرهم ، فقاموا عليهم ووقع قتل فى الفريقين ، وانهزم البغاة ، وشردوا من هناك ، وقبض الولاة على إبل ناصر بن قطن وتولوها ليستعينوا بها على حربه فكانت فى يد محمد ابن سيف .

وعلى أثر هذه الحادثة هجم ناصر بن قطن ومن معه من البغاة على الباطنة من ناحية الشميلية ، فأخذوا إبل بنى خالد ، وبنى لام ، وكل ما صادقوه انتهبوه وسلبوا من وجدوا من نساء ورجال ، ورحلوا الى الأحسا مقرهم ، وبعد عهد جاء ناصر بن قطن غازيا ، وكانت الباطنة أسهل شىء يراه البدوى ، فإنها لا يشق عليها الكر والفر عندما يرون الغلبة عليهم ، فإن البدوى يفر على طائرته التى هى ناقته وقد أعدها لذلك العمل ، وهنا جهز لهم الإمام جيشا جعل قائده على بن أحمد ، وعضده بمحمد بن صلت الريامى ، وعلى بن محمد العبرى ، وأحمد بن بلحسن البوشرى .

وهؤلاء رجال أبطال تجردوا للشهادة فى دين الله ، فأتى الجيش لوى وهنا هاجمهم ناصر بن قطن ، فوقع بينهم القتال ، ففر ناصر بن قطن مشرقا فأتى قرية مجيش من أعمال صحار ، فأتبعه الوالى بمن معه ، ففر الى الناحية الشمالية لعلمه أنه لا ناصر له هنا إن غلب ،

فتبعه الوالى بمن معه وكان أول من لحقه أحمد بن بلحسن البوشرى ، ومعه مراد وراشد بن حسام ، وبعض الشراة ، وكان ذلك فى موضع يقال له الخروس ، فتلقاهم الطاغية بمن معه من رجاله ولعلهم استضعفوهم لقتلهم ، ورأوا أن الجيش خلفهم وهؤلاء مقدمته فاقتتلوا هم وإياهم قبل أن يصل الجيش ، فقضوا عليهم عن آخرهم ، ولما وصل لجيش رأوا إخوانهم صرعى ، ولم يروا أحدا هناك من قوم ناصر ولا يعلمون أين توجهوا •

ورجع الجيش أدراجه بعد قتل هؤلاء ، وعلى أثر ذلك قام محمد ابن عثمان الخالدى المعروف بابن حميد ، وكان من رجال ناصر بن قطن ، فغزا بلاد السر ، وكان فيها محمد بن سيف الحوقانى واليا ، وفيها سعيد ابن خلفان أحد أنصار الإمام ، فأناخ ابن حميد بقرب الغبى ، فعلم سعيد ابن خلفان وطلب من ابن حميد المواجهة للمفاهمة ، فأجابه الى ذلك من غير أن يأخذ لنفسه أمانا ، فتواجهوا فى مسجد للشريعة من الغبى ، فجرى بينهما كلام فى التجرؤ على أموال الناس ، وقتلهم ونهبهم ، ونهب أنعامهم ومواشيهم ، فقال سعيد بن خلفان لابن حميد : أما ترد ما أخذت ونهبت من أموال العباد فأعرض ابن حميد عن كلام سعيد بن خلفان بوجهه ، وتولى وحاش وكلا أى لا يرد ذلك • وأظهر عتوا وعنادا ، ولعله كان مستخفا بسعيد بن خلفان ، فأمر سعيد بأسره ، فأسر وأمر به ، فأدخل حصن الغبى ، ثم أمر بقيده فقيد ، ثم ركبوا به الى الرستاق فأرسل سعيد الى الإمام يخبره فأجابه أن يجعله فى قلعة الرستاق ، فحبس بها خمسة أشهر وقيل سبعة أشهر فمات فى حبسه •

سرية يرأسها سعيد بن خلفان لقبض إبل ناصر بن قطن

كان ناصر بن قطن أعـد أبلا بخييات لغزوه ناحية عمان ويحلق عليها عندما المضيق يحيط به ، وفى هـذه الآونة أرسل الإمام سعيد بن خلفان لقبض هـذه الإبل التى جعلها ناصر قوته التى يصول عليها ، وعضده جفير بن محمد بن جفير أو جيفو ، وأمره أن يسير الى الإبل المذكورة فيأخذها ، لأنها قوة القرصان الباغى ، فسار القائد المذكور ، ولمـا قارب الظفرة التقاه بنو ياس واعترضوه فى مراده ، وعارضـوه فيما قصد له قرب الشعيبة من ناحية الظفرة ، فدارت المعركـة بينهم وإياه واشتد الأمر بينهم بغيا منهم وعدوانا على رجال الحق .

وفى هذه الأثناء قتل زعيم بنى ياس صقر بن عيسى ، فثار أخوه محمد بن عيسى غضبا لقتل أخيه ، وقال : لا خير فى العيش بعده ، ورأى الموت خيرا من الحيـاة ، فحمل على جيش المسلمين ، فقاتل فقتل واندقت عصا بنى ياس ، ورأوا أنهم أصيبوا بقتل الأميرين ، فطلبوا العفو من القائد فعفا عنهم ، ورجع قبل الوصول الى الهدف ليفاهم الإمام ، ورأى الإمام أن أمر ناصر بن قطن لا يمكن السكوت عنه فجمع جيشا آخر من الباطنة ، ومن داخلية عمان ، ولعه من أكثرية الباطنة ، لأنهم لا يزالون يصابون من بغاة الشمال ومن معهم ، وجعل قيادته الى سعيد بن خلفان المذكور ، وعضده بعمير بن محمد بن جفير الجبرى ، وأمرهم أن يسيروا الى ماء يقال له : دعفس لا تزال إبل ناصربن قطن عليه ، فلمـا وصلوا وجدوا الإبل فأخذوها ورجعوا منتصرين ، لم ينلهم سوء ، وسلموا الإبل الى عمير بن محمد بن جفير الجبرى .

وكان لعمير بن المذكور راع للإبل ويعرف عند أهل عمان بطناف

الإبل ، أما الراعى فيحصونه برا على الغنم والبقر عرفا عاما ، فجاء من جاء الى الطناف وقال له : سر بهذه الإبل الى ناصر بن قطن ، وسلمها اليه فتكون لك معه يد ، ولعله خوفه بالقتل من ناصر بن قطن وهو الظاهر .

وهذه فى الحقيقة غلطة من قائد الجيش ، حيث ترك الإبل بيد عمير ابن محمد بن جيفر الجبرى فى تلك الزاوية النائية ، وناصر بن قطن وعمير بن محمد من عنصر واحد ، وقد علمت الأحوال السابقة ، ولكن البشر يخطىء ويصيب ، والأمور تجرى بمشيئة الله عز وجل .

سرية تقع فى مثل ما وقعت فيه الأولى بموضع الخروس

لما رأى الإمام أن هذا القرصان لا يقف لعهد وميثاق ، ولا يرتد عن عمله ، وكان عاضده على بن محمد المذكور آنفا ظلا يكسبان وينهبان فى أطراف عمان الغربية هم ومن معهم ، ولا يزالون يقطعون الطرق ، فتخوف الناس منهم وفرت البادية من منازلها الى البلدان والقرى ، وإن رأوها عليهم ضيقة ، ولكن ألجأتهم الضرورة الى ذلك الحال ، وعند ذلك جهز الإمام لهم جيشا أخرج فيه بنى عمه سيف بن مالك ، وسيف بن أبى العرب وحزاما وأخرج معهم رؤوس القبائل ، لأن قوة الإمامة مستمدة من رجال عمان عادة •

فخرج هذا الجيش يطلب ناصر بن قطن ومن معه من أهل البغى بشمال عمان ووصل الجيش الى هدفه ، وكان من قضاء الله وقدره أن شرارة الجيش وأهل البسالة فيه أول من وصل الى العدو ، فتلقاهم الطاغية فى رجاله ، فدارت رحى الحرب بينهم وأحاطوا بهم من كل صوب حتى قضوا عليهم عن آخرهم ، وهرب الباغى عجلا الى الأحسا لا يرى له ملجأ بعد هذه الكارثة إلا الفرار الى الديار النائية ، فإن غالب جيش المسلمين مشاة ، والمشى شىء شاق لا سيما فى حال البعد ، أما ناصر إذ هم بغزو عمان ، أهب الإبل المبلغة للصدد ، وخرج يركبه لا يريد وجهة خاصة ولا بلدا خاصا ، وهكذا إذ لا ثأر له عند أحد أو عند قبيلة ، لكنه فتاك نهاب لا يبالى بما يأتى وما يذر ، وهذه القضية هى أخت وقعة الخروص بشمال عمان ، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، وقد أثر قتل هؤلاء الرجال على المسلمين ، وبعد هذه الحادثة لم يعد ذكر لناصر المذكور ، ولعله مات أو سلط الله عليه أمرا أعجزه •

ومازالت سرايا الإمام مشرقة ومغربة ، لم يبرح طيلة أيامه فى حرب وما زال معه أهل عمان طوع أمره ، وتحت سلطانه ، وانتشر

عدله بين الخاص والعام ، واستولى على عمان كلها ساحلها وداخلها ، إلا مسقط بقيت فيها النصارى البرتغال ، ويعرفون أيضا بالبرتكس فى عرف أهل عمان ، وهم العتاة إذ ذاك ، والقاهرون على الممالك الشرقية ، رغم أهلها الذين انحرفوا عن واجب الحق الذى شرعــه الله لعباده ، وكلفهم به وأمرهم أن يتعاملوا به فيما بينهم ، فتركوه وعملوا بالأهواء ، فسلط الله عليهم عــدوا من غيرهم ، فتولى الأمر عليهم وسيطر على ممالكهم ، وأصبحوا يرزحون تحت ثقل وطأة هذا العدو الداهم ، وقد عاهدوا الإمام ونكثوا ، ثم عاهدهم مرة أخرى ونكثوا اعتمادا على قوتهم الكاملة فى مسقط ، وقد علموا أنهم اذا خرجوا من مسقط خرجوا من الخليج العربى كله ، ولكن ولم يزل الإمام محيطا بحركاتهم وسكناتهم ، وقطع عنهم العرب المعاملة التجارية ، وانقطع الساعى الى مسقط من عمان وغيرهم ، وبذلك سرى الضعف وهذا هو الحصار بعينه .

قال الإمام فى تحفته : ثم نصب لهم الحرب حتى وهنوا وضعفوا ، ووهى سلطانهم ، وتفرق أعــوانهم ، وكان المــوت والقتل يأتى على أكثرهم .

ولا شك أن للأمور إقبالا وإدبارا وقد كان إقبالهم لمــا كان العمانيون يتهارشون فيما بينهم كما قدمنا ، وهنا جاء الإدبار حين اجتمع العمانيون ، والتقوا تحت راية واحدة ، ولا ريب فإن الاجتماع له فى الكون انفعال صحيح ، وقد جربتهم الأمم .

ويقول الله لنا فى كتابه العزيز : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) والله هو الولى وهو على كل شىء قدير .

وفاة الإمام ناصر بن مرشـــد

لمـــا كان لكل نفس أجل محدود فى هذا الوجود لا يزيد ولا ينقص ، أمر محتوم على الكل لغاية لها ما بعدهـــا ، وبذلك قضى الله على عبده الصالح الذى شاع ذكره فى الجزيرة العربية ، وانتشر عدله فى ربوعها ، وازدهرت به البلاد ، وسعد به العباد ، وأذل الله به أهل العناد ، فكان ذكره سلوة كل محزون ، وبهجة كل مصـــدور ، ومفتخر كل مسلم ، ففى يوم الجمعة لعشر ليال خلون من ربيع الآخر سنة ١٠٥٠ خمسين وألف سنة توفى رضى الله عنه والمسلمون عنه راضون ، ودفن بنزوى عنـــد مساجد العباد .

وكان عمره رحمه الله ستاً وأربعين سنة ، ولم يعقب إلا بنية واحدة ، فعد ذلك الحال من كراماته إذ صار له مثل ما صار للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ كان عقب بنتاً واحدة وهى الزهراء فاطمة رضى الله عنها .

وكانت للإمام المذكور رحمه الله كرامات عديدة طار لها ذكر فى الأفق العمانى ، وتداول حديثها الأكثرون ، ودونها الكثيرون ، وعقدت لهـــا الأبواب ، وطال بها الكلام عن الأئمـــة الأعلام ، فنرى ذلك كافيا عن إعادتها هنا ، فإنا معنيون بالحوادث التاريخية ، ولأئمة المسلمين بعمان كرامات خالدة خلود الجبال ، وما أعلاها وما أكرمها فى نظر أهل الحق ، ربما سخر منها بعض المخالفين الذين لم يعرف لهم من نوعها شىء ، ولم يذكر لهم عنها شىء فيما علمنا ، ولم يحدثنا تاريخهم عن شىء منها أبدا ، فلذلك سخروا من كرامات أئمة الإباضية ، والذين رأوا الأنوار بأعينهم وأعياهم أمرها قالوا : لعل هناك شيئا من الجن فرأوها تجوز للجن ،

ولم تجز للإباضية ، مع علمهم بأن الأنوار تجوز للملائكة ، لأنهم أنوار أى أجسام نورانية ، بخلاف الجن ، فإن الجن لم يعرف الأنوار لهم ، وإن كان فيهم صلحاء .

ثم ماذا يفعلون بما بقى من كرامات الإمام الوارث بن كعب ، التى مرت عليها مئات السنين ، وهى باقية حتى الآن كما هى ، إن الذين لم يهتدوا بضياء الإيمان لا غرو إن أنكروا كرامات الإباضية حسدا من عند أنفسهم ، والحمد لله . رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا صلى الله عليه وآله وسلم وبالقرآن إماما .

ثناء العلماء على الإمام الأرشد ناصر بن مرشد

لقد أثنا العلماء على الإمام ناصر رحمه الله ثناء عظيما ، إذ كاد أن يكون نبيا أثنى عليه الكثيرون ثناء يسجل عند الله ذكرا عاطرا ، فإن الخلق شهود الحق ، ومن أثنى عليه أهل الحق كان أهلا الثناء ، والخلق شهود لكل محق ، فمن أثنوا عليه خيرا كان أهلا للخير ، ومن أثنوا عليه شرا كان أهلا للشر ، وقد ذكر الإمام السالمى رحمه الله طرفا من ذلك الثناء الشاهد على تلك النفس الطاهرة ، وذكر الشعراء عنه مالا مزيد عليه من الفضائل الباهرة ، والمحاسن النادرة التى لم تذكر إلا للنبيين والحمد لله رب العالمين .

عهود الإمام ناصر بن مرشد لولاته وعماله

ذكر العلماء عهود الإمام رحمه الله دليلا على طهارة نفسه الزكية ، ودليلا على سيرته المرضية ، فإنها تعبر عما فى طوية ذلك السيد الزاكى ، والإمام التقى الزاهد المجاهد ، الذى لم يزل طيلة أيامه فى قتال ونزال وصراع لأهل الباطل والضلال ، وما زال رحمه الله ساحبا جيشا ومخرجا كتيبة وعاقدا لواء ، وقائما بحرب ، فلله تلك الأيام ما أعزها ، ولله تلك الحياة ما أكرمها ، ولله تلك الأفعال ما أعلى شأنها ، ولم نذكر تلك العهود فنكتفى بالإشارة إليها إذ حفظها التاريخ بين طياته ، فنراها مرجعا لمن أرادها ومستندا لمن رام السير على منهاجها ، ولله فى عباده أسرار ، وفى خلقه عظيم الاعتبار ، والله ولى المحسنين .

خطبة الإمام ناصر بن مرشد فى صلاة الجمعة

إن الإمام الأرشد ناصر بن مرشد رحمه الله ، كان يخطب فى صلاة الجمعة خطبة واحدة كما هى المذهب ، ولم يصح عند المسلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يخطب خطبتين ، ولا صح جلوسه فى الخطبة أو بين الخطبتين كما يقولون ، ولو صح ما تركه المسلمون مع شدة تمسكهم بأعماله ، وتتبعهم لأفعاله وأقواله ، وأخذهم بما صح عنه ، وإنما هى خطبة واحدة فقط خطبها النبى عليه الصلاة والسلام فى بنى سالم بن عوف حين صلى الجمعة أول جمعة فى المدينة بمسجد الوادى ، وحفظها الناس عنه ، ورواها المؤرخون .

وهى كلمات يسيرة ذكرها فى تاريخ الخميس وغيره ، ورواها أئمة السير ، والذى ذكره رواة السنن لا عمل عليه عندنا فإنهم رووا كثيرا ولم يصح عند أصحابنا ، وهم أشد الناس تتبعا لما رواه الثقات عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولقد اجتمع فى عصرنا هذا علماء فطاحل أخذوا من الفقه بحظ وافر ، وفى مقدمتهم الإمام السالمى رحمه الله ، وهو الذى قام بإمامة الإمام سالم بن راشد لخروصى ، وبعد فتح نزوى أقام الجمعة بها والكل حاضرون وهم كبكبة من أهل العلم الذين لم تصغر منازلهم عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لولا فضيلة الصحبة ، ولا يسع ذكرهم ، ولم نعلم عن أحد منهم قال فى صلاة الجمعة بخطبتين ، ومضى الإمام على ذلك حتى توفاه الله .

ثم قام عنه الإمام محمد بن عبد الله الخليلى ، وكان جمهور أولئك العلماء باقين لم يتغير منهم إلا الإمام العلامة الكبير سيدهم عبد الله بن حميد السالمى رحمه الله ، وعاش الإمام الخليلى قريبا من أربعين سنة ، وهو يخطب خطبة واحدة ، وهو أعلم الجماعة الذين معه وهو أحد تلامذة العلامة السالمى أيضا ، وقد زاره علماء الآفاق ، ولم نسمع من أحدهم إنكارا لعمله بخطبة واحدة ، والذى يرى غير هذا الحال

اجتهادا لا نوافقه عليه بعد مضى أربعة عشر قرنا ، يأتينا اليوم يرى أنه أهدى سبيلا من أولئك العلماء الأجلاء ، والأساطين المشار إليهم ، فالحق ما مضى عليه علماؤنا وأئمتنا ، ولا خلاف لمذهبهم •

وقد كتبت رسالة فى الموضوع سميتها « الأصول المتبعة فى أحكام صلاة الجمعة » وذكرت أمر الخطبة كما أشرت إليها هنا وبينت البعض من الأدلة المتبعة عند أهل العلم ، وسكت عمن روى عنه غير ما عليه الأصحاب رحمهم الله ، وحسبنا اتباع آثارهم والاعتماد على أقوالهم ، والحق أحق أن يتبع وإن قل أهلوه ، والباطل أولى أن يترك وإن كثر ذووه •

وإليك عبارة الإمام السالمى رحمه الله فى هذا المقام قال : « وهذه خطبة الجمعة فى عصر الإمام ناصر بن مرشد بن مالك اليعربى أعزه الله ونصره على البغاة » وهذا التعبير دال بمفهومه ومنطوقه على أنها خطبة واحدة ، وأنها أيضا هى التى يخطب بها طيلة حياة الإمام المذكور ، لاشتمالها على المواعظ العظيمة المطلوبة لهذا المقام الحافل الجامع للمسلمين ، الذين يهتموا بأمر دينهم وينظرون الى الآخرة بستر رقيق ، أسود النهار رهبان الليل ، الذين شهد لهم الحق أنهم رجاله وأحبهم العدل إذ هم أبطاله ، وعشقهم الإيمان إذ قامت بهم أعماله ، وابتهج بهم الدهر إذ هم جماله ، حملت تلك الخطبة أعلام الهدى ، وأعلنت للمؤمنين الابتعاد عن مسالك الردى ، وحذرت المتدينين على اختلاف طبقاتهم من اتباع الهوى ، وعظ خالص له فى القلوب تأثيره ، وتحذير عام له فى النفوس تقريره ، يكاد يقضى على العقول التى تخاف الله ، كأنه يعبر عن مصارع الموت ، ويدل على مراسم الحياة الأخرى ، فيكثر الباكون اذا تلى عليهم ، ويخضع العاتون اذا ألقى اليهم نسجته أيادى الهدى ، على وتيرة البلاغة ، ووضعته صاغة البيان بأكمل الصياغة ، والله يزيد فى الخلق ما يشاء •

إمامة الإمام سلطان بن سيف

نسب الإمام سلطان بن سيف بن مالك وفيه يلتقى بالإمام ناصر بن مرشد بن بلعرب بن سلطان بن مالك بن أبى العرب بن محمد بن يعرب بن سلطان بن حمير بن مزاحم بن يعرب بن محمد بن يعرب بن مالك بن يعرب ابن عمر بن نبهان ، بويع بالإمامة فى اليوم الذى مات فيه الإمام ناصر رحمهما الله ، وكان كما قدمنا أحـد قواد دولة لإمام ناصر ، وهو الذى فتح مدينة صور ، وطرد البرتغال منها فى عهد الإمام ناصر .

قال شكيب أرسلان ، وهو يذكر الإمام ناصر بنمرشد قال : وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف ، فنسج على طرازه فى الاشتغال بإجلاء البقية الباقية من حامية البرتغال فى سواحل عمان ، قال : وكانت له عيون على هؤلاء يقضون اليه بعوراتهم ، قال : فأرسل اليه سرا رجل هندى كان وكيلا لأمورهم وموضع ثقتهم ، وقص قضية سكبيلة وكبريتا البرتغالى العنيد ، واستطرد فى القضية بتمامها كما قدمناها عن المؤرخين العمانيين ، وذكر البارجتين اللتين تحاميان عن حصن المطرح ، وتضربان البـلاد مطرح ومسقط .

قال : فقصدهما العرب فذبحوا من فيهما أى وغنموهما ، قال : ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال فى بلاده ، بل قصـدهم الى بلاد الهند فأرسل بوارج حربية تغزوهم فى ساحل كوجرات فى الهند ، قال : فاجتاحت عساكر « الديو » و « دامان » وقفلت بغنائم وافرة وآنية كثيرة مما كان فى الكنائس ، قال : ووجه سلطان بن سيف معظم همته الى ترويج التجارة وعمارة أسواق الأخذ والعطاء ، واستجلاب الأسلحة والخيول لتقوية جيشه ، قال : أنفق فى هذا السبيل أموالا طائلة ، قال : وجدد قلعة

نزوى ، وترك آثارا صالحة ، قال : وكان من أفراد الملوك فى سيرته فى الرعية ، وسداد آرائه وصواب أنحائه •

قال : وتوافدت الناس الى داره مرضيه ، وتسارعت الى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، قال : وكل ذلك بسايق المحبة والأمانة وجاذب الإخلاص والمناصحة ، قال : إذ كان يخرج كسائر الناس ويغشى المجامع ويختلط بالعامة ، وهو بدون خفير ولا قرين ، بل خفارته من ثقة قومه وصحابته من معرفتهم لفضله وإجلالهم لقدره أ هـ •

هـذه الأخـلاق التى ذكرها شكيب أرسـلان ، هى أخلاق أهل الإيمان ، وإنها لجمال لذلك الإمام السيد الكريم الذى عرفه التاريخ وأثنى عليه البعيد والقريب ، بمثل هذا الثناء الفاضل ، فإن هؤلاء الأئمة الخمسة الذين سوف يتلى عليك تاريخهم ، هم جوهر اليعاربة ،بل جوهر أهل عمان فى ذلك العهد ، كما تخبر عنهم أعمالهم ، وكل أهل التاريخ فى الأفق المشرقى يثنون عليهم ويأسفون على فقدهم ، إلا أن الشريعة باقية ، والسيرة التى سار عليها الصحابة معروفة لمن أرادها ، ومن أراد غيرها تبعا لهواه ، فلكل درجات مما عملوا والله يتولى من عباده الصالحين

وعلى كل حال لا بقاء للدنيا وإن طال العهد ، فهى سوق الآخرة وكل يأخذ منها ما يحلو له ، وفى حديث ابن رزيق : لم يمكث الإمام سلطان بعد البيعة بعمان إلا أياما معدودة الى أن أسرع الوثبة لحرب النصارى الذين بيدهم زمام بلدة مسقط ومطرح ، وهم المسمون البرتكيس •

قلت : هـذا عرف أهل عمـان فيهم ، قال : وهم يومئذ أشـد النصارى قوة فى المملكة والسلطان •

قلت : اتفق المؤرخون على أن البرتغال فى ذلك العهد هم أقوى دول النصارى ، وبقية دولهم تخضع لأوامرهم • قال : وأما معسـكر الإمام سلطان بن سيف بطوى الرولة من المطرح •

قلت : لم نعرف هـذه الطوى بعينها إذ تبدلت الحال ، وصارت الطويان فى مطرح خصوصا التى هى داخل السـور ، قال : كان جيش الإمام من طوى الرولة بمطرح الى سدورى والسد المشار اليه هـو الذى على ثغر وادى العدى ، الممتد هذا السد من الجنوب الى الشمال ، وعليه قلاع باقية الى عهدنا هذا ، قال : ومعه من الجند خلق كثير .

قلت : الجند هم الجيش الذى وصفه الممتد من طوى الرولة بالمطرح الى سدروى الآنف الذكر . قال : فطفق جنده يغزون البرتكيس صباحا ورواحـا وهم أى البرتغال مستعـدون لحربه لم يظهرو لـه الجبن ولا الإذعان .

قلت : الملك غال لا يباع رخيصا ، ولا يسلم بالهوينا . قال : وقد أفعموا حصنى مسقط يعنى الجلالى والميرانى وبرجها وسورها وجبالها برجالهم الشهيرة بالصبر على القتال . قال وحد غزوات عسكر الإمام سلطان بن سيف عليهم الى بئر الراوية من مسقط ، إذ هم قد بنوا على رؤوس جبال مسقط بروجا وأكمنوا فيها رجالهم أهل التفق ، أى البنادق ، وقد نصبوا سلسلة فى الهواء ، فكل من اقترب منهم من عسكر الإمام رموه برصاص التفق ، ومدوا سلسلة من حديد عليها سور من حديد من البرج المسمى الآن برج والدى محمد بن رزيق الى البرج المسمى الآن المربع ، قال : فلم يزل من كمنوا فى سور تلك السلسلة المذكورة يرمون من اقترب منهم من عسكر الإمام برصاص التفق .

قلت : لم أعرف معنى هذا السور الذى على السلسلة ، فالسلسلة لا يمكن أن يبنى عليها سور ، فلعل السلسلة على السـور ، فيكون فى الكلام قلب فى التعبير . قال : وقد قبضوا الجبل المسمى السعالى من أوله الى آخره ، وقبضوا على جبل الملا من أوله الى آخره ، وصوت التفق من الكامنين فى الجبال وسائر المقابض لا يفتر لا سيما اذا جن الليل .

قلت : ذلك ليهيبوا على أنفسهم خوفا من صولة العرب التى لا بد منها • قال : وحراسهم وجواسيسهم يترددون عليهم بالليل والنهار ، وقد أخذوا من حزمهم الغاية •

قلت : لا يغنى ذلك شيئا عندما يأذن الله بجلائهم ، قال : وقد بلغوا من الحذر النهاية ، وقد أفعموا الصيرتين أى الحصنين الصغيرين ، أو القلعتين اللتين على ثغر المينا بمسقط رجالهم المتقنين ضرب التفق والمدفع ، وما تركوا عليهم سبيلا ، فكانت الحرب بينهم سجالا •

قلت : ليست هذه الحرب الموصوفة بأنها سجالا ، ولكن ابن رزيق لا يتقن التعبير • قال : لا قدرة للبرتكيس أن يخرجوا الإمام وعسكره من المطرح ، ولا قدرة للإمام وعسكره أن يدخلوا مسقط على النصارى •

قلت : والتحقيق أن الإمام اقتضى نظره حصرهم فى مسقطهم وعلى كل حال أن كل محصور مغلوب ، وهذه قاعدة مطردة فى قضايا الحرب وأمثلتها لا تحصى •

قال ابن رزيق : بل كانت عسكر الإمام تزحف عليهم فيقتلون من يرونه حذاء الراوية فى الأرض ، ويقتلون من يرونه سائحا فى المكان الذى يسمى حلة العجم والبحارية ونحوهم ، ويرفعون أصواتهم الى من بالسور من البرتغال ، ناجزونا بارزونا فإن الشجاع مع الحرب لا يتحصن بالقلاع والسيران ، ويعيرونهم طويلا أى لقصد تهييجهم للخروج من القلاع • قال : فلم يخرج منهم أحد لعلمهم أنهم ليسوا كفؤا لهم للمبارزة بالسيف والرمح الذى هو سلاح العرب إذ ذاك ، وسلاح العدو البنادق والمدافع التى تأخذ العدو من مسافة نائية ، وبقى المسلمون لا يقدرون على الاقتراب من القلاع والسيران ، لأنها ترسل صواعقها الى عدوها من بعيد فتدفعه عنها •

قال ابن رزيق : الحرب على ذلك بينهم على تلك الحال حتى كاد الإمام وحزبه أن يثنوا عزيمتهم عنهم لعدم القدرة على الدخول عليهم •

قلت : حاش الإمام أن يثنى عزيمته عنهم ، بل لعله يعالج القضية بسياسة أخرى وأكبر شىء عليهم حصارهم بين تلك الجبال الشاهقة ، وقد قبض المسلمون البحر والبر ، فمن أين يأتيهم المدد ، وعندما يتحققون الضيق سيطلبون الخروج بأنفسهم ، لكن من قـدر الله أن وقعت تلك القضية بين رئيس البرتغال المسمى فرفرة ، ونورتم القائد الهندى وهو المعروف عند أهل عمان بالبانيان ، وهم قوم يعبدون البقر لعنهم الله ، ثم جاء ابن رزيق بقضية الزواج التى قدمنا ذكرها ، فكانت السبب الفاتح للمسلمين ، ولعل دعوات أهل الإيمان استجيبت لهم ، وأذن الله بزوال هؤلاء الكفرة الفجرة ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفسـاد ، وسرد ابن رزيق القضية كما هى عادته بكلام طويل يحصره يسير الكلام ، وربما أفاد فى بعض المواضع فلا نعيدها مرة ثانية •

ولمـا اقتحم المسلمون السور ودخلوا مسقط الداخلية ، زحفوا على الحصنين فأحرقوا أبوابهما بالنار ، ولم يجد من فيهما ما يدافع به فسلموا الأمر راغمين ، وقضى عليهم طالع النحس بالزوال ، ليسترد أهل الحق حقهم المغصوب ، وكان الإمام سلطان هـو قائد الجيش ، ولمـا وصل بالجيش عقبه الوادى أحضر القوم وجدد البيعة معهم ، وأخذ عليهم العهد والميثاق على الصبر على الموت ، فبايعوه على ذلك ومضى بهم وشعارهم الله أكبر ، اللهم انصر المسلمين على عدوهم •

ولمـا دخلوا خذل الله المشركين ، وأيد الله المسلمين ، وقوى قلوبهم وشـد عضدهم ، فكانت الدائرة على أهل الكفر • فكان كما قيل إن الدماء سالت الى البحر ، ولم يبق إلا أمر البارجتين أراد المسلمون الزحف عليهما فشاور الصارمى الصارم المغيوتى البطل ، فخرج الى الداخلية وجاء برجال

معدودين انتخبهم لمعرفته بهم ، وأطمعهم بالمـال الجزيل ، فتقاحموا على البارجتين كالأسد على فرسيتها فاصطلموهما بأسرع وقت ، وانتهت قضيتهما إذ ذبحوهما ، وقادوا البارجتين الى الإمام ، ولا تسل عن سرور الإمام والمسلمين ذلك اليوم الذى قلع الله فيه تلك الشجرة الكافرة ، ومحا فيه أرسم الباطل •

وأخـذ الإمام رحمه الله فى جلب المعدات الدولية ، ومن جملتها الخليل ، فجمع منها كثيرا سيأتى ذكرها فى إمامة ولده سيف ، وفتح أبواب التجارات الى العالم من كل صوب ، وجلب لعمان الخير من جميع النواحى ، فأمنت الرعية ، ودرت الأرزاق ، وكثرت الأرباح ، وعـلا شأن العمانيين بين أمم العالم ، فنظرت اليهم الأمم بأعين الإجـلال والإكبار ، إذ هم الذين قلعوا تلك الشجرة الملونة فى القرآن ، وولى الإمام على مسقط سيف بن بلعرب اليعربى ، وترك معه عسـاكر جمة ، وأمره بالحزم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونزول الرعية الى الحكم بالسوية ، ورفع الجزية عن نورتم وأهل بيته جزاء إعانته •

ورجع الإمام الى نزوى فاهتزت عمان له فرحا ، وعلت البشرى على أوجه أهلها ، وأتاه أهل نزوى أكابرها وأصاغرها يهنئونه بالنصر والظفر والفتح الذى وفقه الله له ، وأذل به المشركين ، وعلى أثر ذلك أمر الإمـام بمطاردة المشركين فى سواحل عمان ، فاستفتح « الديو » ضربة أخرى لأهل الكفر ، ودمر وكلابوه وعكة ، فملأ العالم الشرقى فى آسيا هيبة ورعبا ، واختفت بغاة أهل عمان الذين آذوا الإمام ناصر ابن مرشد ، وسقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم رهن إشارته ، وأنفق على بناء قلعة نزوى لكوكا وملايين ، وبهر بها أعداء الدين ، وأصبحت حتى

الآن مفخرة المسلمين ، وأحدث فلج البركة الذى هو بين أزكى ونزوى ، وهو الى أزكى أقرب ، وعامل فى التجارات للدولة فربحت كثيرا من الأموال التى قوم بها أود المسلمين ، فإن الدول بالمـــال ، ألا تسمع قول بنى إسرائيل : ولم يؤت ســعة من المـــال ، فاستنكروا أن يكون ملك وليس عنده سعة مال .

أخلاق الإمام سلطان

كانت للإمام سلطان أخلاق كريمة ، وخصال حميدة ، عرف بها فى الأمة ، لأنه تربى فى أحضان إمامة معروفة بالتقوى ، مشهورة بالورع ومجانبة الأهواء ، كان رحمه الله لين الجانب لإخوانه ، رءوفا بهم شفوقا عليهم ، خاليا من الكبرياء ، نزيها ، مما تعاب به الرجال ، يؤيد الحق على الباطل وإن كلفه الحال فوق المنتظر .

وصفه الإمام السالمى رحمه الله قال : كان متواضعا لرعيته ، ولم يكن محتجبا عنهم ، وكان يخرج فى الطرق بغير عسكر ، ويجلس مع الناس ويحدثهم ويسلم على الكبير والصغير والحر والعبد ، ووصفه صاحب فواكه العلوم بصفات رائعة فقال : أضحى رحمه الله قوى الجنان باسط البنان ، بنيانا مرصوصا فى الهيجاء ، سحابة وطفاء فى العطاء ، مرتديا برداء العفاف والورع ، ولا يهوله من عدوه فزع ولا تأخذه فى دينه محاباة ولا طمع ، عامرا للديار وحافرا للأنهار ، غارسا للأشجار ، ليعيش فيها ضعفاء المسلمين الاتقياء الأبرار ابتغاء مرضاة الملك الجبار ، متأسيا بالرواية السالفة عن السلف الصالح : اعمل ما شئت كأنك تموت غدا وأعمر ما شئت كأنك لا تموت أبدا ، وهذا من قوته وحذاقته ، حوى على كلتا الحالتين سخيا سمحا بنوال المسألتين ، سيدا وسندا ووليا من الصالحين ، قال : وكثير من فضائله لم أحص عدها .

قلت : هذه لا تحتاج الى زيادة وأخلاق ، هى من مكارم القادة ، وقد أثنى عليه بمالا مزيد عليه ، والخلق شهود الله فى أرضه ، والحقيقة أن أخلاق الانسان هى الشاهد الصحيح كيف كانت ومهما كانت ، وإن قيل غير الواقع لا يثبت إلا الحق ، واذا أحب الله شخصا هداه للحق بإذنه ، وأرشده الى المرضى عنده ، ولله فى خلقه أسرار ، وهذه الشجرة اليعربية أظلت أناسا فى هذا العالم من لفح سموم الجور والظلم ، وأعزت رجالا أصبحوا بها قادة الأمة ومن ثمارهم تعرفونهم .

اعمال الإمام سلطان فى عمان

لقد قدمنا أن الإمام ناصر بن مرشد هو الذى أزال غثاء البغى من عمان ، ووضع كرسى العدالة بين أهلها ، وأنعش ميت الحق وأمات إحياء الباطل ، وطهر عمان من معرة الفساد والضلال ، حتى صار الورد صالحاً والمـاء صافيا للوارد ، وحبال السوء طرأ رثها فما عادت تصلح الا للمزابل .

وعندما بويع الإمام سلطان ، وجه عنايته الى تقوية الهيئة الحكومية أولا ، وتأييد العدالة بالقوة الفعالة . قال صاحب كشف الغمة : فقام بالعدل وشمر ، وجاهد فى ذات الله وما قصر ، ونصب الحرب لمن بقى من النصارى بمسقط ، وسار عليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وفتحها بإذن الله ، وقام يجاهدهم أين كانوا وأين وجدهم فى بر وبحر ، فاستفتح كثيرا من بلدانهم ، وخرب كثيرا من مراكبهم ، وغنم كثيرا من أموالهم ، فقيل إنما بنى القلعة التى بنزوى من غنيمة الديو من أرض الهند ، وسيأتى الكلام على بنيانها فى محله إن شـاء الله .

وقام بنشر العـلم فكثرت الفقهاء ، واعتمرت عمان فى دولته ، واستراحت الرعية وازدهرت البلاد بحسن السيرة ، ورخصت الأسعار وصلحت الأثمار ، وكان خير خلف لخير سلف ، هذا وصف أعماله عند هؤلاء ، وذلك وصف إجمالى كما هو شأنهم .

والذى يعبر عن أعمال هذا الإمام العظيم تعبيرا صحيحا يضيق به المقام ، فإنه لمـا تولى الأمر أول شىء ، جعله نصب عينيه تطهير البلاد من كل رجس أجنبى ، فساق جيشا ضخما فيـه أبطال الرجال الذين هيئتهم دولة الإمام الراحل ، وعلمتهم العمل المطلوب منهم فى المستقبل ، نزل الجيش بسيح الحرمل الذى تقع عليه الآن مطرح الكبرى ، فملاء

حتى الوطية ، وفى نفس الليلة لدغت ولده الإمام سيف بن سلطان حية فى سيح الحرمل ، إذ كان أرضا خالية احتوت عليها الحشرات الأرضية ، فقيل للإمام فى ذلك إنا نرى فألا غير صالح ، فقال ما جئنا إلا لإحدى الحسنيين ، جئنا للموت لا للحياة إلا اذا يسرها الله لنا ، وما أحب أسمع مثل هذا الحديث أو كلاما هذا معناه ، وبعد صلاة الفجر زحف الجيش على مسقط فكاد يطير إليها شوقا •

مسقط فى العهد البرتغالى

لا يخفى أن البرتغال مازالوا يتوقعون زحف العمانيين عليهم مادام علم إمامتهم يرف على رءوسهم ، ولذلك قاموا بتحصين مسقط تحصينا كاملا ، ووضعوا قواتهم الهائلة بها ، وحصنوها كما قال ابن رزيق وغيره من المؤرخين عربا وإفرنجا . قال : فسورتها النصارى من حـد جبل المكلا الى جبل السعالى .

قال : وأحدثت فيها حصنين كبيرين شرقيا سموه الجلالى باسم بانيه ، جلال خان ، وغربيا وسموه الميرانى باسم بانيه ، وهو ميران ولعله ميران خان . قال : وأحدثوا فيها صيرتين أى قلعتين صغيرتين مانعتين من دخول العدو للمينا ، لأنهما تطلان عليه ، وبنوا عليها سورا ضخما لايزال أثره باقيا حتى الآن يفصل البلد نصفين ، نصفه الداخلى لهم ، والنصف الذى خرج عنه للأهالى ، وجعلوا نفس القسم الداخلى حصنا حصينا ، إذ جعلوا على نفس السور بروجا ضخمة وقلعة ضخمة ، سموها قلعة كبريتة ، وهو قائد هندى معهم ، وسيأتى ذكره بعد هذا المقام ، وأقاموا أبنية ضخمة على جبال مسقط ومطرح وجعلوا للطريق خمس عقبات ، كل عقبة عبارة عن قلعة من حـد المطرح الى مسقط ، وآخر هذه العقبات من ناحية مسقط عقبة ريام ، وأولى العقبات من أول المطرح الى أول ريام ، وتعرف بعقبة الخيل ، والثانية التى اليها آنفا المطلة من الجانب الشرقى على مسقط ومن الجانب الغربى على ريام ، والثالثة من محلة كلبوه الى مسقط ، والرابعة من آخر مسقط على جهة سداب وتعرف بعقبة سداب ، والخامسة من آخر مسقط الى الوادى الكثير المفضى الى روى ، وجعلوا على هـذه العقاب السلاح المناسب لذلك الوقت .

وهذه العقاب فى غاية الصعوبة ، وقد كسرت هذه العقاب مرات عديدة لاقتضاء الوقت ذلك ، وعادت الآن بالأرض لا يعرف الجيل الحاضر عنها شيئا إلا أسماءها ، وملئوا مسقط من رجالهم الأقوياء ، وكما أنهم مازالوا يعاهدون الإمام ناصر ثم يخونون لما مات الإمام ناصر نكثوا العهد الذى وقع أخيرا ، ورأوا أن قوة العمانيين سيؤثر عليها موت الإمام المذكور ، وبذلك قطعوا أولا الجزية التى كانوا يؤدونها للإمام ناصر ، ومنعوا المسلمين من دخول مسقط ، وأظهروا عتوا وعنادا وتكبرا ، وضاعفوا قواتهم على جبال مسقط ، وجعلوا أشد رجالهم عليها ، ومدوا سلسلة حديد فى رأس الجبل المشرف على محلة ميابين ، وعلى الوادى الذى يمر على محلة برزنجى الى الجبل الذى به الآن البرج المربع ، وهو الجبل المشرف على حلة الأفغان ، وجعلوا على هذه السلسلة سورا من حديد ، وأكمنوا فيه رجالا من قومهم ليصدوا المسلمين عن الوثبة عليهم من نفس السور ، وكانوا حفروا خندقا يحيط بالسور من خارجه ، وأطلقوا عليه البحر الصغير الذى هو شرقى الباب الصغير ، وهـذا يدل أن البحر كان يخترق الرقعة الداخلية من مسقط ، وإنمـا خفى الآن وجوده لتبدل المكان بما طرأ عليه من بناء جديد ، ومن كيس ومن تبديل ٠

قال : وجعلوا على السور عساكر جمة ، قال : وكان للنصـارى وكيلان من البانيان أى الهندوس ، يسمى أحدهما سكبيلة والثانى نورتم ، أى هما قائدان عنيدان يقومان بتأبيد الحامية ، وينظمان الأمور ، وقد تمرسا بأحوال أهل عمان وعرفا حرب العمانيين ، ولذلك كانا هما اللذان يرشدان النصارى الى الأحوال الحربية التى يستدعيها الوقت ٠ ومسقط ذلك العهد ليست هى مسقط عهدنا الحالى ، فإنها كانت الجبال الشاهقة محيطة بها ، ولا يصار إليها إلا بجهد جهيد ، ولا مدخل إلا من طريق

البحر ، فيجر القوارب الصغار جرارون ، ويسيرون وهم رهن الخطر هذا فى حال السلم ، فكيف بحال الحرب أما الطرق التى هى لها الآن ما كانت فى الحسبان ، ولا يأتيها إلا القوى الشديد ، ويصلها باك تعب ، وبغاية النصب ، والأموال تخرج منها بطريق البحر فقط ، أما مساجد السنية فيها فحديث من عهد جديد ، وأولها مسجد الزواوى يوسف بن أحمد ، ففى عهد السلطان فيصل ، ومسجد على بن موسى كذلك ، ومسجد نصيب فى عهد السلطان تيمور •

الضغط يسبب الانفجار

كان من القضاء والقـدر الذى يمهد السبب لتأييد المسلمين على عدوهم ، هو أن لسكبيلة اللعين بنتا جميلة رآها أمير الحصن الشرقى فعشقها ، فأرسل الى سكبيلة يخطبها ، وبذل فى زواجها مالا كثيرا ذهبا وفضـة وجواهر ثمينة ، فشـق هـذا الطلب على سكبيلة وعظم فى عينه لأنه غير مألوف بينهم وفى طبيعة النفس النفور من غير المـألوف ، ولذلك نفر النعمان بن المنذر من تزويج كسرى أنو شروان ، حتى عظم الخطب ، وأدى الى ما أدى اليه مما يعرفه كل أحـد ، وأصر سكبيلة على عدم تزويج البرتغالى حتى جابهه قائلا له : ما كان فى القديم ولا فى الحديث التزاوج بيننا ، وهـذا شىء لا يمكن أن يكـون بيننا الآن ، فغضب البرتغالى وهو يرى أن سكبيلة مأموره ولا يمكن أن يخالفه ، لأنه هـو الذى ولاه أمر الحصن الكبير ، وجعل اليه الزعامة فى أوامره ، فهدده إن لم يمتثل ، فتحقق سكبيلة أن من راء الامتناع الهلاك والدمار ، ويستولى النصرانى على المرأة غصبا ، فبلغ الضيق منه مبلغه ، فأراد أن يرميه بداهية تقضى عليه وتسحقه ، وعند ذلك تلاين سكبيلة لرئيسه فى أمر المرأة ، وقال له : إن كنت معولا على هذا الحال وراغبا فيـه فالأمر سهل لا تعز عليك بنت ولكن أمهلنى الى كذا وكذا من المدة ، وفى رواية أمهلنى سنة حتى أتمكن من صوغ ما يلزم لبناتنا الأبكار فى أعراسنا ، فاذا تم الصوغ المطلوب ووصلنى دفعت اليك المرأة فأمهلنى لهذا الصدد فسر النصرانى بذلك وابتهج ورفع منزلة سكبيلة ، فكان لا يحل ولا يعقد إلا بمشورته واصطفاه تماما .

ولمـا رأى سكبيلة التمكن من القائد ، قام للعملية التى هيأها فى نفسـه للانتقام من هـذا الطاغية العنيد ، فقال له : إن المـاء الذى فى الحصنين قديم فيه دود ، وأخشى أن يطول الحصـار علينا من المسلمين ، فالرأى تجديد المـاء وكذا البارود ، فإنه فاسـد والرأى تجديده ،

وهذا البارود الخاص بالمدافع إذ كانت فى ذلك العهد يلقى فى بطونها البارود لكل طلقة ، ثم تلقى الرصاصة عليه ثم تضغط بالمدك وهكذا .
قال : والرأى تجديده بالدق أيضا ، فأجابه الى ذلك وتخيله ناصحا له فى ذلك ، وهو وإن كان الواقع كذلك ، إلا أن سكبيلة كان لـه غرض الانتقام من النصرانى الذى أراد أن يرغمه بزواج ابنته ، فنسج حيلة يسلم لها القائد ، ولا يجـد فيهـا إلا ظاهرة النصح ، فأخلى سكبيلة الحصنين من المـاء ، وأخرج البارود للدق مرة ثانية، وإذ ذاك كتب للإمام عن الواقع وأخبره عمـا جرى له من النصرانى العنيد ، وأرشده على الوثبة على السور ، وبين له الوقت المناسب لذلك ، وهو يوم الأحد عند طلوع الشمس ، ذلك اليوم هو يوم عيد النصارى ، فكانوا يشربون الخمور ، ويدقون الزمور ، ويضعون السـلاح ، ويشتغلون بالأفراح طربا ولهوا فاغتنم المسلمـون الفرصـة ، وتوجهوا الى العـدو بقلوب متحمسة ، صالوا صولة الأسد الهائجة على فريستها .

وكان الإمام البطل فى المقدمـة ، فاقتحموا السور وتهاووا على الحصون ، كالعقبان المنقضة من السماء ، فاختلفو هما فى الحال ، وقتلوا من كان فيهما من النصارى ، وفى نفس الواقعة يقول ابن رزيق : أخبرنى غير واحـد أن الإمام سلطان ضرب واحدا من النصارى فى الجزيرة ، وهى قلب رقعة مسقط الداخلية ، وكان النصرانى لائذا على مدفع هناك كبير ، فالتف بعصفور المدفع وهى الجديدة الناتئة فيه لسحبه ، فقطع السيف عصفور المدفع ، وفخذى اللعين فجل الخبيث يقول لكل من مر به من المسلمين : ما هى إلا ضربة واحدة قطعت العصفور وفخذى ، ولم يفتر عن ذلك حتى مات ، وتولى الإمام وجنوده مسقط ، ولم يبق له محارب إلا كبريتة ، وكان شجاعا مقداما عنيدا ، وكان بيده القلعة التى على السور المعروفة بقلعة كبريتة ، فكان يهاجم المسلمين ببسالة فائقـة ، واستمرت المعارك بينه وإياهم أياما حتى حان حينه فى سوق البز من مسقط ، فحصره رجال الإمام المصاليت ، حتى قضوا عليه هنا هو ومن معه من

الجنود ، وطهر الله الأرض منهم ، وانتهى أمر مسقط وبقيت حامية المطرح ، فاستول عليها الرعب وكادت تضيق بها الأرض ، وهناك بارجتان من بوارجهم فى المرسى تحاميان على الحصن ، فتجرد العرب العمانيون لهم بعزم أقوى من الحديد وأدهى من الموت •

فزحفوا عليهم فى سفن صغار فهاجموهم فى البحر ، فقتل فى أثناء الهجوم أكثر الجنود البرتغال ، ولم ينج منهم إلا من حبسه الأجل ، ولما رأوا لا بد من الاستسلام سلموا الحصن للإمام وطلبوا من الإمام أن يعبرهم الى جوه فعبرهم ، وتولى الإمام كلها ، واحترم الإمام سكبيلة ونورتم ، وعفاهم من الجزيـة عنهم وذراريهم ومـن كان من أقاربهم لمناصحتهم للمسلمين فى هـذه البـادرة وتحقق قولهم الضغط يسـبب الانفجار ، ولى هذه الحرب يشـير الشيخ خلف بن سنان الغافرى فى قولـه :

ثم أورى لمسقط سقط عـزم
أسقط الظـالمين منـه ضرام

فطار طائر البرتغال من الأوكار العمانية ، وتركها لأهلها راغما ، فعاد الحق لأهله •

وفى القضية وأمثالها معتبر رائع يفهم منه الانسان الكونية التى تخرجها الأيام ، فكانت أيام الباطل قائدة للأجنبى ليحتل بيضة المسلمين ، ويتمركز فى أركانها ، وعادت أيام الحق تمحـو ذلك الباطل البغيض ، وهكذا الأيام تبرهن للعاقل عن الغراس الصالح ، وعن المزارع الوبائية التى يزرعها الظالمون •

وكان احتلال المسلمين لمدينـة مسقط فى يوم عاشر من شهر رجب سنة ١٠٥٩ ، وتتابعت الفتوح بعد ذلك والحمد لله •

الحق تحت ظلال السيوف

لما انتهى إجلاء النصارى البرتغال ، الذين يسميهم أهل عمان البرتكيس ، من عمان تماما نظر الإمام رحمه الله أن العدو خرج ولا بد إن استطاع أن يحيك المؤامرات العدوانية مهما كانت ، وأيا كانت ، وما ينبغى لنا أن نقبع فى مخدعنا نترجى نزول العدو علينا مباغتا لنا ، ولا ندرى ماذا مبلغ فعله فينا ، وقد ثبت عن نبينا عليه الصلاة والسلام قوله : (ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا) ٠

فينبغى أن نتقدم للعدو ليكون الرعب ملازما له ، والخوف محيطا به ، وهكذا ٠

ولما كان مقر العدو الهند وجه الجيش اليهم بها فتغلغل فى الهند حتى اجتاح ساحلها ، وقبض على طرقها البحرية ، فهاجم الديو وهى أقوى بلاد الهند إذ ذاك ، فافتضها وغنم منها أموالا طائلة ، وساق ستة آلاف أسير دخلوا عمان فأسلموا واندمجوا فى أهلها ، وبنى من غنيمتها قلعة نزوى التى لبث بناؤها اثنتى عشرة سنة ، فكانت المثال الرائع ٠

ظفار قطعة من عمان

لما كانت ظفار كالجزء من عمان ، أو كالجارحة من الجسد العمانى ، تولاها الإمام سلطان ، وجعل فيها حامية عمانية لئلا يتطرق عليها العدو إذ ذاك ، فيتمركز فيها ويكون شره لعمان من الجسم العمانى ٠

ولما انتقل الحفاظ على عمان الى البحر الأحمر ، وكانت ظفار من ضمن قلب المملكة العمانية ، تركها الجيش العمانى إذ لا محذور هنا والجيش قد ضرب أطنابه فى البحر الأحمر مطاردا لأكبر دولة استعمارية كافرة بالله عز وجل ، ثم أقبل عزم الإمام على المحيط العمانى ليحفظ القطر من جميع جهاته ، خرج الجيش الذى كان فى ظفار وخلف بها مدافع وآلة حرب ، وعند ذلك ظن ملك اليمن أن إمام عمان وقع عنده ضعف وخلل ، وسرعان ما سحب الى ظفار واستولى على المدافع وقبض البلد ٠

ولعل بعض أهلها دعاه الى ذلك ، فلما علم الإمام بالواقع وكان فى أول نشاط دولته لم ينزل الضعف منه منزلا ما ، ولكنه لم يشمئز من نزول الملك المذكور ، وهو اسماعيل بن القاسم من ذرية على بن أبى طالب ، وإنما اشمأز من أخذ المدافع ، وتجاسر الملك عليها مع علمه بأن وراءها سائلا عنها وغيورا عليها ، ولعله تصور له ضعف إمام عمان أو بعده عن البلاد ، مع أن البلاد شافعية المذهب ، وأهلها بدو أشبه بالرحل إن لم يكونوا رحلا ، وأن إمام عمان ما سحب جيشه إلا لداع دعاه الى ذلك ، فكتب له الإمام فى ذلك كتابا جميلا لا يطلب منه إلا رد المدافع ، وسكت عن البلاد استبقاء له ، وإبقاء للصحبة التى يستدعيها الوقت بالنظر الى العدو الذى يطارده الإمام حتى يرى منتهى الأمر ، وما كان كتاب الإمام إلا كتاب أخ لأخيه ، أو كتاب صديق لمصادق ٠

ولما وصل الكتاب الى اسماعيل بن القاسم ، شخر ونخر وأرعد وأبرق ووعد وتوعد ، وصال وهدد ، وجاء كتابه مشحونا بالصواعق التى يكاد فحواها ، يمحو الإمامة العمانية من عقر داوها ، فاستغرب الإمام ذلك الطيش والنزق الذى سمعه من هـذا الانسان الذى ينتسب الى سلالة على بن أبى طالب ، وما كان يحمل به ذلك ولا يليق الطيش والنزق بأهل المناصب ، وليته ترك الجفا ، وعدل الى نهج الصفا ، ولو لم يكن فيه وفا ، فلم يجبه الإمام عليه وإنما أجابه بأساطيل تمحو الأباطيل وبرجال تزيل الضلال ، وقد أخبره فى كتابه حيث يقول :

ثم لتعلم أيها الملك أنه وصل إلينا فى مدة أيام قد تصرمت ، وشهور قد تخومت ، رجل من جنابكم يزعم أنكم أرسلتم بيده طروسا بها درر من رائق لفظكم ، وخطلبكم ، غير أنه يقول إن المركب الذى أقبل فيه عابه الانكسار ، فغرق فى اليم ، فأدرك الطروس المسطرة حكم التلف ، ثم بيد أنه قد أفاه إلينا من نتائج لسانه ، واتضح لنا من واضح نطقه وبيانه ، أنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون لأجل قطع خدامنا فى العام المـاضى مراكب رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم ، ولعمرى إنا لندرى أن العتاب بين الأخلاء عنوان الموده الخالصة والصفا ، وزايد محض المودة الصادقة والوفا ، غير أنه يجب عنـد اقتراف الجرائم ، وإنتهاك المحارم ، فإنا نحن لم نقصد الى انتهاك ذلك سبيلا ، ولا نجد لك على إلزام فعل ذلك دليلا ، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ مخالبنا ليسارة رعيتك ، ولا استباحة دم أهل حكمك وقضيتك ، ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددنا اللهازم والبواتر ، لتدمير عبدة الأوثان ، وأعداء الملك الديان ، تعرضا لرضاء رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة فى إدراك أجر الصابرين الجاهدين ، وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عبدة الأوثان والأصنام ، وأعداء الله والاسلام ، ألست من سلالة على بن أبى طالب ، الساقى المشركين ربى المشارب ، وأنت

تدرى بما جرى بيننا وإياهم من قبل فى سواحل عمان وفى سائر الأماكن والبلدان ، من سفك الدماء ، وكثرة الصيال ، وتناهب الأملاك والأموال ، وإنا لنأخذهم فى كل موضع تحل به مراكبهم ، وتغشاه سفنهم ، حتى من كنج وجيرون بندرى الشـــاه ، ولم يظهر لنـــا من أجل ذلك عتابا ولا نكيرا ، وإن كنت فى شك فاسأل به خبيرا .

أولا نذكرك أيها الملك والذكرى تنفع المؤمنين ، وإنا لك من المنذرين ، وعليك من المحـــذرين ، إنا لمـــا ملكنا تلك الايـــام بلدة ظفار ، وهى عنا نازحـــة الفيافي والقفار ، ولم تر فى ملكها صلاحا لشىء أوجبه منا النظر ، وحاكته الأذهان والفكر ، فتركناها لا من خـــوف قوة قاهرة ، ولا كلمة علينا ظاهرة ، ولا يد غالبة ، ولا كف سالبة ، وحينما خرج عنها عاملنا خلف بها شيئا من مدافع المسلمين ، لغفلة جرت عن حملها فى ذلك الحين ، ولمـــا ملكتم أنتم زمام عيسها ، واجتليتم ضوء بدرها وشمسها ، لم تدفعوا لنا تلك المدافع ، كأن لم يكن وراءها ذائد ولا دافع ، فاعلم أيها الملك أن البعل غيور ، والليث هصور ، والحر على غير الإهانة صبور ، ومن أنذر فقد أعذر ، وما غدر من حذر .

على أننا فى إصلاح ذات بيننا وبينكم راغبون ، ولإطفاء الفتن وإخماد المحن بيننا وإياك مؤثرون ، فإن كنت راغبا فى الذى فيه رغبنا ، وطالبا لمـــا له طلبنا ، فادفع لنا إياها ، ولا تحتس بسرعة الاعتداء حمياها ، وإن أبيت إلا الميل الى اغتنامها ، والجزم على خبط ظلامها ، ففى الاستعانة بالله على من اعتدى سعة ، ومن كان مع الله كان الله معه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والسلام عليك ورحمة الله .

فالإمام سلطان رحمه الله يذكر ملك اليمن بحال الكفرة وأفعالهم ، وما دار بينه وإياهم فى سواحل عمان ، وأن رجاله يحتلون الأعداء حتى فى كنج وجيرون اللذين هما من أكبر بلاد إيران ، ولم ينكر عليهم الملك

الفارسى الذى هو أعظم من اسماعيل بن القاسم ملكا وأكثر قوة وأنصارا ، ولم يطلب الإمام من اسماعيل الا المـدافع فقط ، وجعل المسلم أخا للمسلم ، فنحن تركناها وهـذا مسلم تولاها ، وأن المحـذور أن يتولاها الكافر عدو الكل ، ثم إنها أى المدافع مال مسلمين ، ولا يحل مال المسلم بحال من الحـال .

والإمام يذكره الصحبة ، ويحيله الى إبقائها والى عـدم الشقاق والفتنة ، ولكن الوجل غلب عليه الطيش ، ولم يتحاش عنـه ، ولذلك يؤسف عليه ، والواضح من خطابه أنه متهور ، حيث قال . إنها أى المدافع أول غنيمة من قطرك الشاسع ، كيف يجعل مال المسلم غنيمة ، وهذا شىء حرمه الشرع الى آخر ما جاء فى كتابه .

ولم نذكر الكتابين معا لأنهما موجودان فى سير المسلمين : محفوظان فلا نطيل بذكرهما ، وإنما أشرنا اليهما وذكرنا فقرات من كتاب الإمام ، لندل بها على الصدد المطلوب .

وقال الإمام السالمى رحمة الله بعد ذكرهما : وبكل أسف لم نعثر على جواب الإمام على هذا الكتاب . قلت : المفهوم من هـذا أن هذا الكتاب لا جواب له عند الإمام إلا أحد شيئين ، إما السكوت والإغضاء عنه وعن المدافع إبقاء للسلام ، وإما أن توجه اليه مدافع أخرى تسترد تلك المدافع .

قال الإمام رحمه الله : وما أظنه إلا كما قال الشـاعر :

وهـل تغنى الرسـائل فى عـدو
اذا ما لم تكن بيضـا رقـاقـا

قال : وأئمتنا بحمـد الله تعالى ممن ذكرهم الله فى كتابه بقوله :

(واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما • والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) الى قوله تعالى : (والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما) فهم الأئمة الفعالة ، وغيرهم الأئمة القوالة ، وكأن هـذا الرجل زيدى المذهب ، وكأنه يثبت الوصاية لعلى •

قال • ودلائل الحال تقتضى أن بينهما وقائع ، ولكن لم نطلع على ذكر شىء من ذلك ، وتمكن هذا الإمام من اليمن والهند وغيرهما يقتضى أن الأمر صار على خلاف ما يزعمه ملك صنعاء ، وكذلك تمكن الأئمة من بعده فإنهم ذكروا لهم من القوة والسلطان ، والتمكن من البلدان النائية والأقطار القاصية ، على ما سيأتى ذكر بعضه ، وذلك يقتضى أن الإمام ومن بعده من الأئمة تمكنوا من اليمن وغيرها ما خلا صنعاء ، فإنا لم نجد تاريخا فى التمكن منها نفسها ، وأما آثارهم فظاهرة فى أطراف اليمن ، والله أعلم بما وقع بعد تلك المخاطبة الى آخره •

معارك الجيوش العمانية للإفرنج

إن معارك الإمام سلطان للإفرنج بواسطة قادة جيوشه عديدة ، لا يسع المقام ذكرها تفصيلا ، فإنها تستدعى مؤلفا مستقلا ، ذكرها المؤرخون وذكرها الشعراء العمانيون فى مدائحهم ، وأولها مسقط ، وقد ذكرناها لأن ذكرها ضرورى ، إذ هى المفتاح الذى للقفل البرتغالى ، ومنها وقعة كنج أكبر وقعة بين العمانيين والبرتغال ، بلغ صداها أقصى بلاد الشرق واهتز لها العالم وسباهم الجيش ، وقاد سفنهم الى عمان ، وساق الغنائم وإليها يشير الشيخ خلف بن سنان حيث يقول :

ولدى كنج كان منه لهم ما
كاد منه تدكدك الآكام

أى كاد الجبال تندك منه ، وجاء البرتغال فى غزوة من غزواتهم ، فأحرقوا الدوحة من ضواحى مسقط ، وذلك بعد « غزوة الديو » ، وكان قائد الجيش الى الهند راشد بن على ، الذى مدحه الشيخ خلف ابن سنان فى قصيدته الميمية ، وكان السبى ألفى أسير ، وفى بعض النقل ستة آلاف أسير ، أشرنا إليهم فى « العنوان » ، وغنم منهم كنوزا عظيمة ، ووقعة ممباسة التى هى مضرب المثل فى الوقائع ، كما ذكرها المؤرخون ، واصطلمها منهم ورفع العلم العمانى عليها عهدا .

ومنها وقعة كلوة وهى وقعة قادت ذلك الصقع معها راغما ، وقادها العمانيون من أنفها صاغرة ، وزاد نشاط العمانيين ، وظلوا يتقاحمون على تلك القرى تقاحم الأسود الصائلة .

ومنها وقعة زنجبار ، ولا تسل عن استبسال العمانيين فيها .

ومنها وقعة بمبى خاصة ، فكان الأهالى يفرون منها الى برارى الهند

النائية خوفا ، ووقعة مخا ، ووقعة باب المندب فى البحر الأحمر ، وقعتان اصطلم العمانيون فيهما جنود الكفر ، وقادوا البواخر بمـــا فيها غنيمة أصبحت ترفع العلم العمانى فى البحر الأحمر ، وهو يهتز لها هيبة ، ويقلق لها رعبا ، واستفاد الشراة الذين احتلوا هذه الوقائع آلافا طائلة ٠

ومنها وقعة مسبيج التى قهر فيها الأعــداء ، وقطعت رؤوسهم إلا ماشاء الله ، ولم يحصنها من الاحتلال العمانى حصن ولا قلعة ٠

ومنها غزوة (بتة) وقائد الجيش الشيخ الصارمى محمد بن مسعود صاحب عين السواد فى أمطى ، فاحتلها بعد قتل ذريع وقهر سريع ، وفيها قال قصيدته الحائية ، وفيها قال الشيخ خلف بن سنان قصيدته الرائية ، ومطلعها :

هو السيف مقرون به العز والنصر

وكانوا فقط مائة وعشرين رجلا يتغلغلون فى الهند لا يبالون بمـــا يلاقون أن أيام الإقبال زهراء ذات بهجة تكاد بطبيعة الحال تتصرف فى صالح الأمـــة ٠

وتوفى الإمام سلطان رحمه الله يوم الجمعة الذى توفى فيه الإمام ناصر بن مرشد رحمه الله ، وكلاهما توفى وقت الضحى ، لكن الإمام ناصر توفى فى يوم عاشر من ربيع الآخر ١٠٥٩ سنة وهذا توفى يوم سادس عشر من ذى القعدة ١٠٧٩ سنة ٠

الإمام بلعرب بن سلطان

لا يخفى أن الإمام بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب ابن سلطان اليعربى ، وبقية النسب قد مضت ، لما مات الإمام سلطان خلف ولدين هما بلعرب وهو الأكبر ، وسلطان وهو الأصغر ، وأختا لهما ، وكان بلعرب متوجا بالشيم الطيبة والفضائل الجميلة ، والأعمال الحسنة ، رأى أن الدولة كاملة فى جميع أحوالها لا غضاضة عليها فى شىء ما أبدا ، إلا أن ناحية العلم محتاجة الى همم تستثيرها ، وأعمال تقوم بها ، ورعاية تحددها ، وكان بنى قصر جبرين قبل إمامته ، ويقال إنه بناه من صلب ماله ، فتم بناؤه قبل وفاة والده بسنتين ، وإنه ليعبر عن غنى هائل فى عمان فى ذلك الوقت ، إذ بناه بملايين الملايين كما قيل ، وخزن فيه لطوارىء الدهر مثل ما بناه به ، وكان آية فى روعة الصنعة ، بحيث أصبح يضرب به المثل .

قال شكيب أرسلان ، المعروف بأمير البيان ، وهو من أكبر المؤرخين ومن المطلعين على أحوال الأمم قال ، وهو يذكر الإمام سلطان : قد خلفه (ولده بلعرب) ، وكان هذا محبا للعلم والعلماء ، بنى مدرسة فى يبرين ، وجعل إقامته فيها ، بل بنى ، القصر المعروف الذى سبق كلامنا عنه ، وكانت المدرسة فى القصر ، قال : وثار على بلعرب أخوه سيف ابن سلطان ، قال : وعضد هؤلاء الفقهاء ، أى انقسم الفقهاء بعضهم مع بلعرب يؤيده فى أعماله ، وبعضهم مع سيف يؤيده على أخيه ، وقد أشرنا الى هذا الحال ، وأسبابه فى كتابنا « العنوان » ، قال شكيب : فانقسمت الرعية الى قسمين متساويين ، أولا ثم جعل حزب سيف يتقوى على حزب بلعرب ، وكان هذا أى بلعرب سخيا جوادا مواسيا للفقراء ، فلقبوه أبا العرب لكرمه ، فلما طالت الفتنة بينه وبين أخيه ، واضطرب حبله صاروا يلقبونه بلاء العرب .

قلت : هذا لم نجده إلا عن أبى رزيق ، ولعل شكيبا تلقاه عنه ، وحاش أهل عمان أن يقولوا ذلك ، اللهم إلا إن كان عن الجهال الذين لا يهتدون للحق ، قال شكيب متمثلا بقول القائل :

والناس من يلق خـيرا قائلون لـه
مـا يشتهى ولأم المخطىء الهبل

أى من ساعدته الأقدار ، فالناس معه على ما هو عليه ، واذا انقلب الزمان عليه كانوا أيضا كما قال النبهانى :

والنـاس أعـوان الكريم لذاته
وهم عليـه اذا هـوى أعـوان

قال شكيب : وأخيرا استصفى سيف أكثر البلاد ، ولم يبق لبلعرب إلا يبرين ، وبينما أخوه يحاصره إذ قبض فاستراح ، واستراح بموته أخوه ، وصفا الوقت لسيف اهـ .

وقال ابن رزيق وغيره من مؤرخى عمان ، كصاحب كشف الغمـة وغيره : وقعت بين الإمام بلعرب وأخيه سيف فتن عظيمة ، وأصـاب كثيرا من أهل عمان من فقهائهم ومشايخهم أهل الورع والزهد والعلم عقوبات شديدة ، الى أن كادت تنفر نفوسهم قبل الحمام من أتباعهم السفهاء ، واقتفاء آرائهم وقبول كلمتهم ، هذا أورده ابن رزيق وأخذه عنه الإمام السالمى رحمـه الله ، ولم يذكروا تلك الفتن التى يشيرون إليها ولا أسبابها ، وهذا الكلام الذى ذكره ابن رزيق يحتاج الى تحليل ، فإنه ذكر أن تلك الفتن أصابت الفقهاء والعلماء وأهل الزهد والورع ، وأن عقوبات كأنها جائتهم من سيف بن سلطان ، ولم يذكروا لنا شيئا منه مما يحسن السكوت عليه ، وهذا من المشاكل .

وأقول لولا قيام الإمام سلطان على أخيه ، واستيلاء الحصون عنه

وحصاره إياه فى جبرين ، حتى مات الإمام بلعرب فى الحصـــار ، لقلت هذا كذب لا أصل له ، لأن أهل الفضل لا يفعلون ذلك ، ولكن القيام على الإمام العادل المجمع على إمامته لا يصح ما لم يقترف ذنبا فيتوب منه ، فإن تاب بقى فى إمامته ، وإن لم يتب وجب خلعه ، ووجب الانتصاف منه إن ظلم مالا لأحد ، وإن أصر على ما هو عليــه وجب قتاله ، ولم يذكروا فى تاريخ الرجلين شيئا من ذلك ، وربما كان إحتمال الذى ذكرته فى « العنوان » يليق بمقامهما والله أعلم .

وإنها لمصيبة كبرى لابد لها من أثر يوما ما ، فكان غير بعيد عنهما ، وبذر الشر كالبذر يختفى فى الأرض حتى إذ بله المطر نبت فكذلك بذر الشر يختفى ثم يظهر بعد حين .

ولمـــا رأى الإمام بلعرب هذه الأحوال التى تحيط به غير مراعية فى حقه إلا ولا ذمة ، خرج من تروى كالمختبر للحال ماذا وراء ذلك ، خرج من نزوى وتوجه ناحية الشمال متفقدا للاحوال ، فلما رجع الى نزوى منعه أهلها دخولها ، وأظن أن المنع قرره أخوه سيف فلم يقدروا على خلافه ، وإلا فما الموجب لمنعه ما كان جبارا ولا ظالما ولا فاسقا كان إماما رحيما بالمؤمنين سخيا بما لديه يقرب أهل العلم ، ويحب أهل الخير أبهذا يمنع من دخول البلد ، ولا موجب أن هذا الداء الدفين فى الروح العمانية طرأ عليها ليقضى على إمامتها ، إن لله وإنا إليه راجعون ، بعد الإياس توجه الى جبرين مقره ووطنه وبيته الذى بناه من ماله كما قيل ، وبعد استقراره بيبرين اجتمع أهل هؤلاء على البيعة لأخيه ، وهو حى موجود ، ولا يحتج عليه بشىء إنها لمن المصائب الفادحة .

قال ابن رزيق : « وكان كل واحد رضاة تقية » .

قلت : هذا يدل أن البيعة كانت إجبارا وقهرا وهذا حرام فى الدين ،

قال : فعاقب بعضهم على عـدم الدخـول فى العقـد ، قال : وخرج سيف على أخيه وأخـذ عليه كافة حصون عمان ، وخاصم كل من كان لأخيه محبا ومساعدا .

قلت : وهـذا أعظم قال : ولم يبق بيده إلا حصن يبرين قال : ووقعت بينهما حروب كثيرة ، حتى قال بعض النـاس لبلعرب هـو بلاء العرب .

قلت : الذى قاله شكيب أرسلان فى تعليقه ، قال وقال : بعضهم سيف جلاب ، وبلعرب قصاب ، لكثرة سفك الدماء التى كان سببها منهما .

قلت : لم أفهم معنى ذلك الكلام ، وهـو لا شك يرمز الى شىء خفى ، قال : وافترق الناس فيهما ، فمنهم من يصـوب بلعرب ، ويقول سيف باغ على أخيه فى خروجه عليه ، ومنهم من يقول : إن سيف هـو المحق والمبطل .

قلت : عرفنا قول القائلين أن سيفا باغ على أخيه ، وهو الظاهر لأنه لم تقم على بلعرب حجة توجب عزله أو الخروج عليـه ، ولم نعرف ما يحتجون به لسيف ، وهذا عين الإشكال .

قال ابن رزيق : ثم إن سيفا جمع جيشا عظيما وبلعرب يومئذ بحصن يبرين ، قال : فحصره حصرا شديدا حتى مات بلعرب فى الحصـار ، وقيل إنه لـما اشتد على بلعرب الحصار ، وتعذر عليـه الانتصار ، توضأ وصلى ركعتين ، وسأل الله ربه أن يميته وهو راض عنه ، فاستجاب لـه دعاءه ، فمات من ساعته .

قلت : هذا من الممكن ولكن من ذا الذى يطلع على ما بين بلعرب وربه اللهم إلا أن يكون عبيده وكان جاهرا بالدعاء ، وأظن أن هـذا أمر

مظنون غير محقق ، وإن تداوله المؤرخون ، ولعلهم رأوا ميتا فى مصلاه ، وظنوا أنه قد دفن فى نفس المكان الذى قبض فيه فى مصلى أعده لخلوته فى نفس القصر على وجين الفلج ، فإن الفلج فى نفس القصر ، وقد زرناه هناك رحمه الله ورضى عنه ، لقد أدى واجبا كبيرا فى الاسلام ، حيث أحيا العلم وأكرم العلماء ، وسوف يأتى الكلام على المدرسة المشار إليها إن شاء الله •

وكان الإمام السالمى رحمه الله يثبت خروج سيف بن سلطان على أخيه ، إذ قال فى تحفة الأعيان : ذكر خروج سيف بن سلطان على أخيه الإمام وحصاره له بيبرين ، قال حميد بن محمد بن رزيق الشاعر المتأخر : لم يزل الإمام بلعرب تضرب به الأمثال فى العدل والجود ، حتى وقعت بينه وبين أخيه سيف فتن كثيرة ، قال : وأصاب كثيرا من فقهاء أهل عمان ، وأكابرها وأهل الورع والزهد عقوبات من سيف ، وشد سيف على أخيه بلعرب الحرب ، فخرج بلعرب من نزوى ، وذكر القضية التى قدمناها بالحرف الواحد ، الى أن قال : وهو يذكر حصار سيف لأخيه بلعرب فى حصن جبرين ، قال فلما عجز عن ملاحمته أى عجز بلعرب عن مقابلة سيف ، اجتمع أكابر أهل عمان ، فعقدوا الإمامة لأخيه سيف ، قال : وكثير من أهل عمان دخل فى البيعة تقية ، لأن سيفا عاقبهم على عدم الرضا بإمامته ، وخرج فأخذ حصون عمان كافة إلا حصن بيرين •

قلت : هذه إمامة قهريه ليست على أصول المسلمين ولا على نهجهم ، إنما هى الغصب أشبه بإمامة معاوية ومن بعده • قال : فحصره أى فى جبرين ، وجعل يضرب الحصن بالمدافع، وكان عند بلعرب رجال مشهورون بالشجاعة ، فكلما دنا جيش سيف بن سلطان من الحصن خرجوا لـه فكشفوه ، وقتل فى تلك الحرب من قوم سيف كثير ، قال : ثم إن أكابر هؤلاء وهؤلاء اتفقوا على الكفاف عن الحرب ، وقالوا : الرأى أن نغمد السيف عن بعضنا بعضا فاذا اقتتل سيف وأخوه بلعرب ، وقتل أحدهما

صاحبه صرنا رعية الباقى منهما وتبعا ، والمعنى ما فى استطاعتنا إلا ذلك ، فإن الأمر مقهور بالقوة كأن الجوليس لأهل العلم نظر أبدا إنما هى أشياء قهرية ، سبحان الله المدبر للكون بحكمته .

قال : فإن أبيا عن المبارزة مكثث كل واحد منا فى العسكر ، فاذا طالت المدة على ذلك رجع كل واحد منا الى وطنه ، والظاهر ليس هـذا فى وسعهم بل تحت القهر من سيف بن سلطان ، والقتال ليس لله ، إنما هو لأجل الدنيا إنا لله وإنا إليه راجعون .

قال : فلما بلغ بلعرب خبر القوم ، توضـأ وصلى ركعتين لله ، وسأل الله أن يميته ، فلما فرغ من صلاته إلا وقد خر على البساط الذى صلى فيـه ميتا ، قال : فعند ذلك خرج بعض خدامـه من الحصن ، فأخبروا أخـاه سيفا بوفاته ، فاتهمهم وقال : قتلتموه قاتلكم الله ، فحلفوا له أنه قد مات حتفت أنفه ، ثم خرج أصحابه من الحصن كافة ومضوا الى أخيه فأخبروه عن أخيه بلعرب كما أخبرته عبيده عن خبر وفاته ، قال : فمضى سيف الى الحصن وغسل أخاه وكفنه وصلى عليه ودفنه الخ .

هذه قضية سيف بن سلطان وانها لمن سيئات القضايا وانها لتنذر بزوال هذا الملك من أيديهم عن قريب ، فإن بذر الشر وحب الذات داء دفين يسلب الخير من أهله ، ويبث الشر بينهم ، ولذلك كان العهد غـير بعيد المـدى والله المستعان .

العلم حيـاة الأمـة

كان الإمام بلعرب بن سلطان رحمه الله رأى أن العمانيين قد بلغوا شأوا بعيدا فى الزعامة ، وأضافوا الى عمان ممالك عديدة ، أصبحت تلبى دعوتهم وتجيب نداءهم ، ولهم صوت عال فى العالم يتقدم يوما فيوما إلا أن العلم قليل بالنسبة الى اتساع الدولة ، وعلو شأنها واتسـاع رقعتها ، والأمل فى المقبل سيرها قدما ، فإن جيوشها عبر الأقاليم فى آسيا شرقا وغربا ، ولها نشـاط محسوس ، فمالت نفسه الى نشر العلم فى عمان كما ينبغى تبعا لقوله عز وجل : (فلو نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) •

وكان من قدر الله أن زار عمان فى هذه الأثناء أحد علماء الإباضية أهل المغرب ، يقال له الشيخ عمر بن سعيد بن محمد بن زكريا الجربى من أهل جربة خاصة ، فرأى أحوال عمان وتقدمها فى العدة والعدد ، واتصالها بالعالم الخارجى ، ورأى جيوشها الضخمة ، وجنودها الفخمة ، وعساكرها المتحمسة ، فسره ما رآه وابتهج بمـا رأى وسمع ، وعلى كل حال إن المحب يسره تقدم أحبابه فى الخير ، ولكنه لاحظ معاهد العلم لا تقدم لها ولا نشاط فيها بالنسبة الى نشاط الدولة ، فكتب للإمام بلعرب كتابا يدعوه فيه الى الالتفات نحو الناحية العلمية ، والحقيقة كل يدعو الى ما يحب ، والعلم هو الحياة رغم كل شىء ولا عز ولا شرف إلا بالعلم ، ولا ترقى إلا بـه •

وهذا أمر مجرب معقول فى كل جيل ، فكان الشيخ الجربى جاء فى نصيحته بتحقيق لا ينكر ، ومقال لا يستنكر ، بل بين كل شىء يلزم فى هذا المقام ، وتحدث فى كتابه عن كل لزام ونبه وأيقظ وبين وحرض ، وما قصر فى سبيل ما هو بصدده ، وعلى كل حال إنما تنجح المقالة فى المرء اذا صادفت هوى فى الفؤاد •

كانت رغبة الإمام مائلة الى نشر العلم والاعتناء به ، فجاء الشيخ الجربى فقدح الزناد وحرك الفؤاد ، وأبان المراد ووضح الصلاح والسداد ، واستفرغ الوسع فى النصح والإرشاد ، فكانت دعوته فى هذه مستجابة ونصيحته بالغة مبلغها من الإمام رحمه الله ، فقام بواجبه واجتهد مبلغ طاقته ، وأمر بالتعليم فى جميع نواحى عمان ، وخصص مدرسة جبرين بالرعاية ، فدعا العلماء والمبتدئين والطلبة من العمانيين فقابلهم بالإكرام التام ، ورعاهم بالإحسان والإنعام ، وغذاهم بأطيب الطعام ، لتطيب نفوسهم وتنشط الأفهام ، وتنتبه القلوب وتتسابق الطلبة ، وتتقدم فى ميدان الجد والاجتهاد فكان لهم أبا رحيما وسيدا كريما . قال الإمام السالمى رحمه الله .

مدرسة جبرين وذكر بعض المتخرجين

كان الإمام بلعرب رحمه الله المحب للعـلم بطبيعة الحـال ، ومن أحب شيئا دعا اليه ، ومن أحب شيئا أكثر من ذكره ، ولمـا جاء الشيخ المغربى الجربى رحمــه الله وكتب للإمام المرضى رحمه الله تلك النصيحة الصادقة التى أثارت حفيظة الإمام ونشطته ، فأقام المدرســة بالقصر خاصة ، وعين الغرف العالية من القصر لهـا ، وهى غرف فاخرة جميلة ، ذات رونق بديع لها اتصال بالفلج الذى فى بطن القصر ، ولا يرى من فيها فى حال دخوله وخروجه أحدا من عوائل القصر وخدمه ، للهندســة التى يسرها الله لهذا الإمام الجليل فى هذا القصر العظيم ، فإنه من بدائع البنــاء الذى يحتار فيه الواصف ، فكان الإمام معهم ليلا ونهارا ، وكان له اعتناء عظيم بهم ، فكانوا يقبلون اليه من شتى النواحى كما يقول القائل :

فكانــوا يقبــلون على حمــــاه
كأسراب الظبـــاء رأت معيـــنا

فقامت لهذه المدرسة كبكبة من رجال العلم والأدب ، وشـاع لها ذكر ، وابتهج بها العمانيون غاية الابتهاج ، فأثمر غراسها الثمر الحلو الذى تحيا به البلاد والعباد •

قال الإمام رحمه الله : فيقال إنه خرج من هذه المدرسة التى فى حصن جبرين خمسون عالمـا كلهم أهل اجتهاد • قال : وقد أكثر الناس الثناء على هذا الإمام • قلت : إن الذين تخرجوا من هــذه المدرســة أكثر من خمسين عالمـا الذين بلغوا درجة الاجتهاد ، فما ظنك بغيرهم ممن هم دونهم ، وما ظنك بالأدباء والشعراء الذين استنار قرائحهم بنور

العلم ، واتسعت مداركهم بقوة الفهم ، وكيف لا يكونون كذلك وعواطف الإمام تربيهم ، ومراحمه حافة بهم ، وعنايته شاملة لهم ، والشجر اذا سقى طال واتسق وأثمر .

قال الإمام رحمه الله : فقيل إنه كان يخدمهم بنفسه هنالك ، وكان يختار لهم المطورات المقوية للأذهان والأطعمة المولدة للحفظ اهتماما كليا من صميم القلب ، قال ابن رزيق ، وهو يذكر حصن جبرين ، قال : ونصب فيه مدرسة للعلماء والمتعلمين ، قال : ورغبهم ببذل المال وأكل الفواكه ، فنالت العلم بكرمه الطلبة ، فغدا من كان متعلما أى معه مبادىء علمية ، فقيها أى اتسع أفق علمه ، فصار فى صف أهل العلم المنظور اليهم بأعين التوقير ، وصار الطالب عالما .

قال : ومن كان أديبا أى له ذوق فى الأدب صار شاعرا فحلا متصرفا فى العربية ، له فيها يد ، قال : فمن المتعلمين الذين صاروا بعد ذلك علماء جهابذه مثل الشيخ خلف بن سنان الغافرى ، والشيخ سعيد ابن محمد بن عبيدان وغيرهما كثير ، قال : ومن جملة الذين تربوا بكرمه الشيخ راشد بن خميس الحبسى الضرير ، وغيره . قلت : لم يذكر منهم الذين يستحقون الذكر علماء وأدباء وعبادا وزهادا وغيرهم وهذا من قصور التاريخ .

وتوفى الإمام بلعرب بن سلطان سنة ١١٠٤ أربع ومائة وألف أى فى أول القرن الثانى عشر للهجرة .

قال الإمام رحمه الله وهو يذكر الإمام بلعرب قال : وقد أكثر الناس فى الثناء على هذا الإمام ، قال ورأيت فى مدحه ديوانا حافلا محتويا على قصائد طنانة ، بلغت من فنون البلاغة مبلغا عظيما ، وعلى هوامشها تنبيهات على أنواع البديع فى الأبيات ، قال : وقد غاب عنى هذا

الديوان فلم أره منذ زمان ، وإنما رأيته أيام الصغر : وأحفظ من أوائل بعض القصائد أبياتا يسيرة ، قال بعضهم فى أول قصيدة لامية :

لى بوادى الدوح دور وأطلال
سقتها غواد من ملث وآصال

وهمهم فى أرجائها الرعد برهة
اذا ما انقضى وبل تعرض هطال

قال : وقال آخر فى أول قصيدة لامية أيضا :

زم المطى فمعقد الدمع محلول

وقال آخر :

الله أكبر جاء الفتح والظفر
وأشرقت فى الدياجى الأنجم الزهر

وأصبحت سبل الإسلام واضحة
أعلامها واستقام السمع والبصر

قال : وغير ما أشرت اليه كثير وكلها مدائح فى الإمام ، قال : والخلق شهود الله فى أرضه ، فمن أثنوا عليه خيرا كان أهلا للخير ، ومن أثنوا عليه شرا كان أهلا للشر ، الخ وذكر الإمام رحمه الله على أثر ذلك الشاعر الخاص الذى أخرجته تلك المدرسة ، وهو راشد بن خميس بن جمعة بن أحمد الحبسى النزوى من جملة من تعلم فى ظل هذا الإمام وصار من جملة من مدحه وأثنى عليه .

ذكر قصر جبرين

كان الإمام بلعرب بن سلطان قد بنى قصر جبرين على ما قيل من صلب ماله فى حياة والده ، وتم بناؤه قبل موت والده بسنتين ، هنا يعجب الانسان وتأخذه الحيرة ، بالمال الذى بنى به هذا القصر ، أما لو كان بناه فى حال إمامته لكان من المعقول أنه بناه بأموال الدولة ، وذلك العهد الدولة نشيطة بالخراج الذى يأتيها من الممالك العديدة ، حيث توسع نطاقها كما يعلم ذلك المؤرخون ، أما كونه من ماله الخاص فمن أين هذا المال وأبوه حى ولم تعرف له تجارة ؟ وأموال والده أموال الدولة ، هذا من الإشكال الواضح الذى لا يستطاع إيضاحه ، وكان هذا القصر كما هو موجود فى غاية الروعة صنعة وضخامة وإبداعا ، فاذا ألقى العاقل اليه نظرة يبقى حائرا فى تصويره وتصوره ، والحال أنه من بدائع البناء ، ومن مدهشات الأفكار فى النظر الصحيح ، فكان للإمام رحمه الله موضعا لجثته بعد مماته ، إذ دفن فيه قرب النهر فى مكان اتخذه الإمام مصلاة فى خلوته ، ولقد أطال الواصفون فى وصفه ، وأكثر الكاتبون القول فيه نظما ونثرا ، وهو فوق الوصف .

وبالجملة هو دليل على عظة تلك الدولة واتساع أيديها بالمال ، ومعتبر لمن يأتى من نواح عديدة ، وكم لآل يعرب فى أيامهم تلك من عجائب ، واذا ذكرنا قلعة نزوى أو قصر الحزم أو الجيوش التى يخوض العالم فى ستة وتسعين ألف عنان من الخيل ، أو نظرنا الى المدافع التى خلفتها تلك الدولة الطائرة الصيت ، أو الأفلاج التى أجرتها بعمان ، حتى هم صاحب الحزم أن يجعل عمان كجنتى مأرب ، وأن يذهب الحاج من عمان بلا زاد إنها أحوال تسجل لعمان الشرف الباذخ ، ولآل يعرب الهمم

التى تبهر عباقرة الرجال ، وليتها طال عهدها على ذلك الوضع لكن الدهر يأبى إلا التقلب •

ولقد ضرب باليعاربة المثل لمن يأتى بعدهم ، ولقد صدق القائل :

تـلك آثارنـا تـدل علينـا

فانظروا بعـدنا الى الآثـار

والله يؤتى ملكه من يشـاء •

تقلب الأحــوال بجبرين

اعلم أن جبرين بعد موت الإمام بلعرب تقلبت به أحوال ، وتوالت عليه من الدهر أعمال ، ولعبت فيه أيام الدوله اليعربية نفسها رجال لترى الأيلم الناس فى تبادلها بينهم أعمالا يعتبر بها العاقل ، لقد تعب فيــه الإمام بلعرب رحمه الله فأنفق فى بنائه ثلاثا وعشرين كراً ، وخزن فيه لحوادث الدهر مثلها ، وبعد موت بلعرب تولاه أخوه سيف بن سلطان ، وبقى فى يده عهدا ثم عاد عليه ولده أى ولد الإمام بلعرب ، وهو يعرب ابن بلعرب ، فوجد فى الحصن تخريبا فأصلحه ، فبلغ إصلاحه أربعين ألفا ، وسبب التخويب الحرب التى دارت بين سيف وبلعرب •

وبعد ذلك افترق آل يعرب وتخاصموا فيما بينهم ، وقام كل واحد يدعى الزعامة له ، واستنصر بعضهم بخلف بن مبارك المعروف بالقصير بصيغة التصغير ، بعد ما كانوا يريدون عمان ، وهم أهل الحل والعقد ، وتعلق بعضهم بمحمــد بن ناصر الغافرى بعد ما كانوا مرجع الغافرى والهنائى ، قال أمر حصن جبرين أن يقتعده محمد بن ناصر ليجعله ملجأه الذى يلجأ اليه ، ومأواه الذى يأوى فيه •

وكان العقد فى كل شهر بثلاثمائة محمدية ، ولعله حيلة مدبرة ، فكان من قدر الله أن قتل محمد بن ناصر فى حلية بصحار فى حال خصامه لخلف بن محمد ، فقبض ناصر بن محمد بن ناصر على حصن جبرين ، وبقى فى يده عهدا ثم تآمر عليه اليعاربة فقبضوا عليه أى ناصر بن محمد عند باب بادى فى بلد بهلى ، فلم يقتلوه إلا بتسليم الحصن ، فرأى الموت بين عينيه ، ففدى نفسه بتسليم الحصن لهم ، وبقى فى أيديهم •

وكان بنو غافر يضمرون لهم العداوة فكان بجادين سالم يتحين غفلة اليعاربة حتى أمكنته الفرصة فقبض هــذا الحصن فى حال غفلة

اليعاربة ، وعلى كل حال إن المـأخوذ غافل والمطلوب مقهور يوما ما ، ولمـا قبضه بجاد سلمه الى ناصر بن محمد وعض عليه بالنواجذ ، ثم إن بلعرب بن حمير بن سلطان وهو ابن أخى الإمام البانى مكنه الله من بجاد المذكور فقبض عليـه .

وكان المذكور قاهرا لنزوى ، فأودع بجاد السجن ، ثم قتله فى السجن بحصن نزوى ، وعاد الحصن لآل يعرب وتمركزوا فيه ، حتى عادت الأقدار لتنزعه منهم وتريهم ما يسوءهم فأخذ هذا الحصن بنو غافر سنة ست وثلاثين ومائة وألف بعـد موت الإمام سيف بن سلطان قيد الأرض بثلاث عشر سنة ، ولم يزل الحصن فى يد بنى غافر الى سنة سـبع وخمسين ومائة وألف ، أى واحدا وعشرين سنة ، وهم يديرون الحيل لاسترداده اليهم فدخلوا فى خادم لراشد بن حميد الغافرى ، وأدخلهم الحصن فتولوه ، وبقى الخادم عند اليعاربه محترما ، ولكن ماذا يكون من هذا الخادم الذى خان لآل يعرب ، لابد أن يخون لغيرهم ، ولا يطمئن الى خائن إلا جاهل .

فبعد مضى ستة أشهر دخل الخـادم الحصن بحيلة من العسكر القابضين له ، وهم مطمئنون من الخادم لأنه كان معهم باطنا وظاهرا ، فلمـا دخل أغلق الباب وأطلق الرصاص على العسكر فقتل منهم سبعة رجال ، فاجتمعوا عليه وحصروه ، وما يريد الخبيث ؟ أيريد أن يكون سيد الحصن ؟ فلم يقدروا عليه لأنهم لا يدرون أين هو ، واذا رأى أحدا منهم رماه ولكنهم أحرقوا الباب ، وهجموا عليه بغير مبالاة ، فلما أحس أنه مقتول أطلق النار على مخزن البارود ، وكان مخزنا كبيرا يجمع أبهرا عديدة من البارود ، فقام البارود كالرعد واشتعلت فيـه نار عظيمة ، فاحترق غالب الحصن ، إذ ظلت النار تمـوج فيه كالبحر وتطير قطعا كالسحاب .

وأخيرا تولاه آل يعرب وكان زعيمه محمد بن سليمان اليعربى ، فقام عليه راشد بن حميد بن راشد بن ناصر بن محمد بن ناصر ، وأحاط به هـــو وجماعته ، وكانوا رهطا وكان زعيما مطاعا ، فخرج منه محمد بن سليمان يوم سابع من شهر شعبان سنة تسع وخمسين ومائة ألف ، وبقى آل يعرب فى بهلى ، فقام عليهم فيها فطردهم منها ، وبقيت بهلى وجبرين فى أيدى أولاد راشد بن حميد الى أن أخرجهم منها الإمام عزان بن قيس رحمـــه الله •

ثم عاد اليهم بعد انتهاء دولة الإمام المذكور ، ثم أخرجهم منها الإمام سالم بن راشد الخروصى رحمه الله فى عهده ولم تعد إليهم الى اليوم ، هذه أحوال جبرين التى تقلبت به أوردناها مسلسلة وإن خالفت أسلوب التاريخ للإفادة •

الحكم على جبرين البلد المعروف

لما تم الكلام على حصن جبرين لقصد البيان والتبيين ، وجب الكلام على نفس البلد لما لها من التعلق بالمقام ، قال الإمام رحمه الله ، قال ذو الغبرا وهو الشيخ خميس بن راشد ، والد الشيخ ماجد العبرى فى حصن جبرين : إنه يحتاج الى حكم من أهل العلم ، لأن أربابه تفرقوا ، وقد خلت أمة بعد أمة ، قال : وأما أموال يبرين فقد سمعت عن كثير من الناس أنهم لم يأكلوا منها ، وقالوا : إنها حرام • قال : وينبغى لمن حرم شيئا أن يأتى فيه بحجة صحيحة ، وكل آية لها تفسير ، وكل مسألة لها جواب •

وقال فى كلام قبل هذا قلت لصاحبى : هل عندك صحة فى جبرين وما قالوا فيه ؟ فقال أما الماء والأموال والمراد بالماء هو ما تسقى به النخل والشجر والحروث من زرع وغيره ، والمراد بالمال هو الحدائق ذات النخل والشجر عرفا عمانيا عاما شائعا إطلاقا قال : فالأكثر آل الى الشيخ ناصر بن محمد الغافرى ، وشىء منها آل اليه بالإرث •

قال : وسمعت هذا من محمد بن عدى بن محمد العبرى وسعيد ابن سليمان الزرعى ، قال : وقد رفعا عن الذين يثقون بهم فى زمانهم الذين أكبر منهم سنا وأرجح عقلا ، وقالوا : إن الشيخ ناصر بن محمد أشهدهم وأمرهم بالكتابة بكثير من الأموال فى وصيته ، وطلق نساءه بحضرتهم ، وأشهدهم بذلك ، وأمرهم أن يكتبوا الماء والمال الذى آل اليه بالإرث والشراء من آل يعرب من يبرين لبيت المال ، فلما مات الشيخ ناصر بن محمد شهد هؤلاء بذلك •

قام : والمال الذى خلفه ناصر لم يقسم على ورثته ، قال : وأما حصن يبرين فلم يصح فيه بيع ولا هبة من آل يعرب الى يومنا • ا هـ كلام ذى الغبرا والله أعلم •

قلت : أما اليوم وقد انقرض آل يعرب ولم يعد فيه مطالب بحق فقد صار مجهول الأرباب ، وكل مجهول الأرباب يرجع أمره الى الإمام عند وجوده ، وقد قبض الإمام الخليلى رحمه الله فى زماننا هذا بواسطة عامله على بهلى ، وهو الشيخ عبد الله بن محمد الريامى المعروف بأبى زيد ، وأخرج منه قاضيه وهم عائلة الشيخ ناصر بن حميد المطلبى ، لكنا لا ندرى على أى طريق كان قبضه ، هل هو خوف الافتتان عليه ؟ أم خوف باغ يتمركز فيه ؟ وقد بلغنا أن الشيخ أبا زيد أصلح فيه كثيرا من التخريب من بيت المسلمين ، وهو علامة جليل من خيار المسلمين اهـ والأمر لله عز وجل .

أدب الإمام بلعرب بن سلطان

كان الإمام بلعرب من الأدباء الذين يقولون الشعر ، ومن شعره المعروف يقول :

اذا ما دعتك النفس يوما لريبة
فعاص على حال هواها وخالف

ولا تتبع ما مدة العمر إنما
اتباع هواها قائد للمتالف

وجانب هواها ما استطعت فإنما
مجانبة الأهواء حرفة عارف

وخف من إله العرش شدة بطشه
لعلك تنجو يوم نشر المصاحف

وله أيضا رحمه الله :

ولما بلوت الناس لم أر صاحبا
أخاثقة فى النائبات المظائم

وأبصرت فيهم فى رخاء وشدة
فلم أر منهم غير كسب الدراهم

فإن كنت ذا يسر فحولك أنهم
مماليك أو عسر كأضغاث حالم

وثقت بمن أحيا العظام رميمة
وأنشأها خلقا لطيف المناسم

إمامة الإمام سيف بن سلطان قيد الأرض

لا يخفى أن سيف بن سلطان تولى الأمر على أخيه الإمام بلعرب بن سلطان ، وقهر أكثرية أهل عمان بالعنف ، وأطاعه أكثر الناس تقية كما علمت ذلك مما سبق من الحديث الذى قدمناه فى الكلام على الإمام بلعرب ، وقد احتملنا له احتمالا فى « العنوان » والغيب لله عز وجل .

قال الإمام السالمى رحمه الله : واجتمع أكثر أهل عمان وعقدوا الإمامة لأخيه سيف ، قال : وأحسب بعضهم دخل فى الأمر تقية ، وأحسب أن بعضا عوقب بتركه الدخول فى العقد ، قال : خرج سيف على أخيه وأخذ كافة حصون عمان ، ولم يبق إلا حصن جبرين ، قال : فسار اليه سيف بنفسه وحاصره فوقع بينهم الحرب حتى مات بلعرب فى الحصار ، فطلب أصحابه الأمان ليخرجوا من الحصن ، فأمنهم سيف فخرجوا من الحصن .

قال : وأحسب أن بعضا من أهل العلم لم يزالوا متمسكين بإمامة بلعرب حتى مات ، ويرون أن سيف بن سلطان باغ على أخيه ، قال : واستولى على حصون عمان وضبط الممالك وأحسن السيرة وأنصف الرعية ، وهابته القبائل ، قال : وتسمى بالإمامة .

قلت : كيف لا يتسمى بالإمامة وقد تقدم أن أكثر أهل عمان اجتمعوا وعقدوا عليه بها ، فهو بهذا إمام ، وقولهم ان بعضا دخل فى الأمر تقية لا يخل بعقد الإمامة اذا كان أهل الحل والعقد هم الذين عقدوا ، فمن حاول لشغب وجب عقابه ، وقولهم خرج على أخيه باغيا لا نعلم عذره فى ذلك ، فيجب السكوت فإنه سيأتى أنهم اجتمعوا للنظر فى إمامته واتفقوا أنه صحيح الإمامة .

قال الإمام : ولقب بقيد الأرض لضبطه الممالك وتقييده البلاد بعدله ، ولم يعب عليه أحد من سيرته شيء إلا ما كان منه فى أول أمره من خروجه على أخية الإمام العادل .

قال الإمام : وسمعت شيخنا محمد بن مسعود يذكر أنه وجد أن العلماء جلسوا يوما فى مجلس يتذاكرون إمامة قيد الأرض ، فقاموا على أنه صحيح الإمامة ، قال : ولعل ذلك بعد تتويبه من خروجه على أخيه وتجديد العقد عليه بعد موت أخيه ، وإلا فالعقد الأول غير صحيح .

قلت : لم يبينوا العلماء الذين عقدوا عليه الإمامة ، ولم يعينوا الذين اجتمعوا للنظر فى إمامته ، ولم يوضحوا وجه صحة إمامته .

وخلاصة الأمر هم المبتلون بما هناك والله المعين ، قال : والخروج أى على الإمام العدل غير جائز .

قلت : ومن ذا الذى يقدر على تتويب قيد الأرض ، وقد دخل الأكثر فى إمامته تقية .

قال الإمام : وباب التوبة مفتوح ، قال : ولم يزل على حسن السيرة وسياسة المملكة ا هـ . لقد رفع سيف بن سلطان رأسه ينظر الى العالم الخارجى ليمد سلطان المسلمين فيه ، وينشر العدل فى نواحيه ، وكان توفيق الله حليفه ، وكانت له همة عالية كما يقول القائل :

ألا يا شيخنا الكندى
أعندك مثل ما عندى

فعندى للعلى همم
تفوق النجم فى البعد

والحقيقة الرجال بهممها وعلى قدر همة الانسان تكون أعماله ، وفى

الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : الأرزاق على قدر الهمم • وناهيك « بقيد الأرض » لم يضعوا له هذا اللقب عبثا ، إنه لقب كبير يدل على أمر خطير تجلى ذلك الأمر فى أعمال هذا الشخص الفذ الذى هز الأفق الشرقى من أفريقيا الشرقية ، كما سوف تقف على شىء منه إن شـــاء الله •

قال شكيب أرسلان فى التعليق على حاضر العالم الاســلامى • واجتاح أسطول سيف جزيرة سلريت بقرب بمباى الهند ، وكذلك « مدينتا بارسالور ومانغالور » ، قال : ولم يقدر راجاكارناتيك فى داخلية الهند ، قال : وكان سيف حكيما مدبرا محبا للعمران ، بصيرا بالإصلاح ، فانتظم بإدارته جمهور المرافق المصالح ، والتأم بنفاذه شمل المعاون والمناصح •

قلت : نعم لأن دين الرعية من دين ملوكها ، واذا كان الملك صالحا كانت الأمة كلها صالحة ، قال : وهو الذى شرع فى بلاده بحفر قنى المياه تحت الأرض •

قلت : هذا غلطه به ذلك للعمانيين من قديم ، وإنما قام هو بنوع من مثله • قال : ويسمون ذلك فى عمان فلجا • قال : والفلج بفتحتين النهر الصغير ، وأما بضمتين الساقية التى تجرى الى البستان • قال : ففاضت الخيرات بهذه القنى ، وترقت الزراعة ترقيا بالغا • قال : واعتنى سيف بمدينة الرستاق ، واعتنى أيضا بغراس النخيل ، واستجلب أصنافه وبلغ فى ذلك غاية الاعتزام ونهاية الإلتزام ، وصار ذا ثروة طائلة ونعمة لا تحصى ، قيل إنه كان يملك ثلث نخيل عمان ، قال : وكانت حاضرته الرستاق •

وتوفى بها يوم ثالث رمضان سنة ١١٢٣ هذا كلام رجل أجنبى بعيد عن عمان ، يتحدث عن عمان بصفتها بلاد عربيـــة فهو يفتخر بها ويعتز بالحديث عنها •

فهرس الكتاب

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

طبع بالمطبعة الشرقية ومكتبتها – تليفون : ٧٧١٦٩٥٢

حقوق الطبع محفوظة لدى
وزارة التراث القومي والثقافة
ص.ب : ٦٦٨ ـ الرمز البريدي : ١١٣ مسقط
سـلطنة عُمـان

رقم الإيداع : ٢٤١ / ٩٥

